محاضرات في «علوم القرآن» تبحث عن نزوله وتدوينه، وجمعه وإعجازه
وعن التفسير والمفسرين، مع رد شبهات المستشرقين،
بأسلوب يجمع بين الجدة والتحقيق

بقلم
محمد علی الصابونی
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
بمكة المكرمة

فرقۂ ضالہ کی تحریف سے پاک نسخہ

التِّبيان في علوم القرآن

مُحاضرات في «علوم القرآن» تبحث عن نزوله وتدوينه، وجمعه وإعجازه
وعن التفسير والمفسّرين، مع ردّ شبهات المستشرقين،
بأسلوب يجمع بين الجدة والتحقيق

بقلم

محمّد علي الصّابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلاميّة
بمكّة المكرّمة

قدیمی کتب خانہ

مقابل آرام باغ - کراچی
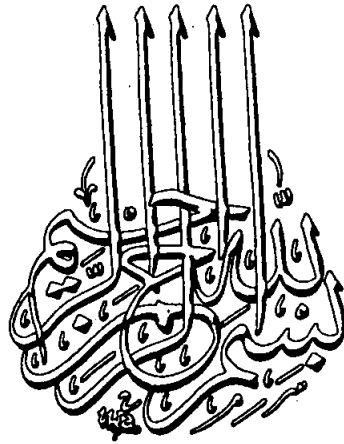
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد :

فهذه مذكّرات في (علوم القرآن) كتبتُها لطلبة (كلية الشريعة والدراسات الاسلامية) بمكة المكرمة تحقيقاً للمنهج الدراسي في الكلية، وحرصاً على فائدة أبنائنا الطلبة، الذين يرغبون في العلم، ويحرصون كل الحرص عليه. وقد رأيت ان أجمعها في كتاب تعمياً للفائدة ونشراً للعلم.

والله أسأل ان يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفعنا بها يوم الدين، ﴿يَوْمَ لا ينفعُ مالٌ وَلا بَنُونَ ★ إلاّ مَنْ أتى اللّهَ بِقَلْبٍ سَليم﴾ [1]

وهُوَ حَسْبُنا ونِعْمَ الوكيل.

غرة رجب الفرد ١٣٩٠ هـ.

محمد علي الصابوني
المدرس بكلية الشريعة والدراسات
الإسلامية بمكة المكرمة

---

(١) سورة الشعراء الآية ٨٨ و٨٩.

الفصل الأول

علوم القرآن

تمهيد

يقتضينا علم التفسير، أن نُلمّ إلمامة موجزة، عن (علوم القرآن) وأن نعرف ما رافق هذا الكتاب المجيد، من عناية فائقة، وجهود واسعة، وأبحاث مستفيضة، بذلت كلها في سبيل خدمة هذا الكتاب العزيز، على أيدي اساتذة أعلام، وعلماء فطاحل، أفنَوْا أعمارهم في سبيل الحفاظ على هذا التراث الكريم، والكنز الثمين، من لدن عصر نزول القرآن إلى يومنا هذا، ثم انتقلوا الى جوار الله وقد خلّفوا لنا ثروة علمية هائلة، لا ينضب معينها، ولا تنتهي دررها، على كرّ الدهور، ومرّ الأزمان، ومع كلّ هذه الجهود المبذولة ـ في القديم والحديث ـ فإن القرآن يبقى بحراً ذاخراً يحتاج إلى من يغوص في أعماقه، ليستخرج منه اللآلىء والدرر.

ولقد تسابق الفصحاء والبلغاء، والحكماء والشعراء، في وصف هذا القرآن، وسرد محاسنه وفضائله، ولكننا لا نجد أبلغ ولا أسمى من وصف صاحب الرسالة، محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول: «كتابُ الله فيه نَبَأُ مَنْ قَبْلَكُم، وخبَرُ مَا بَعْدَكم، وحُكْمُ ما بينَكُم، هو الفَصْلُ ليس بالهزلِ، من تركه من جبّارٍ قصَمه الله، ومَنِ ابْتَغى الهُدى في غيره أضلّه الله، هُو حبْلُ اللهِ المتين، وهو الذكر الحكيم، وهوَ الصّراطُ المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة،

ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلقُ[1] على كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجنّ إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدي إلى الرّشْدِ فآمنّا به..﴾[2] مَنْ قالَ به صَدَقَ، ومن عمل به أجِر، ومن حَكَمَ به عدل، ومَنْ دعا إليه هُدي الى صراط مستقيم»[3].

ما المقصود بعلوم القرآن؟

يقصد بعلوم القرآن الأبحاث التي تتعلق بهذا الكتاب المجيد الخالد، من حيث النزول، والجمع، والترتيب، والتدوين، ومعرفة أسباب النزول، والمكّي منه والمدني، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، وغير ذلك من الأبحاث الكثيرة التي تتعلق بالقرآن العظيم، أوْ لها صلة به.. والغرض من هذه الدراسة فهم كلام الله عز وجل على ضوء ما جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام من توضيح وبيان، وما نقل عن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين، حول تفسيرهم لآيات القرآن، ومعرفة طريقة المفسرين وأساليبهم في التفسير، مع بيان مشاهيرهم ومعرفة خصائص كلٍ من المفسرين، وشروط التفسير، وغير ذلك من دقائق هذا العلم.

تعريف القرآن:

(هو كلام الله المعجز، المنزّل على خاتم الانبياء والمرسلين، بواسطة الأمين جبريل عليه السلام المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبّد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس.)

وهذا التعريف متفق عليه بين العلماء والأصوليين أنزله الله تبارك وتعالى ليكون دستوراً للامة، وهداية للخلق، وليكون آية على صدق الرسول، وبرهاناً ساطعاً على نبوته ورسالته، وحجة قائمة الى يوم الدين تشهد بأنه تنزيل الحكيم الحميد، بل هو

---

(١) أي لا يبلى ولا تذهب جدته على كثرة القراءة والترداد.

(٢) سورة الجن، الآية: ١، ٢.

(٣) رواه الترمذي في باب «فضائل القرآن».

« المعجزة الخالدة » التي تتحدى الأجيال والامم على كرّ الازمان ومرّ الدهور ، وَلله درّ « شوقي » حيث يقول:

« جاء النّبيّون بالآيات[1] فانصرمتْ[2] وجِئْتنــــا بكتـــاب غير منصرمِ »

« آيـاتـهُ كلّما طــالَ المدى[3] جُـدُدٌ يــزينهــن جمالُ العِتْـقِ والقِـدَمِ »

« فضائل القرآن »:

وقد وردت آثار كثيرة في فضائل القرآن وعلومه، منها ما هو متعلق بفضل التعلم والتعليم، ومنها ما هو متعلق بالقراءة والترتيل، ومنها ما له علاقة بحفظه وترجيعه. كما وردت آيات عديدة في كتاب الله عز وجل، تدعو المؤمنين الى تدبره وتطبيق احكامه، والى الاستماع والإنصات عند تلاوته، نذكر بعض هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة:

الآيات الكريمة:

أولاً ـ قال تعالى ﴿ إنّ الّذين يَتلون كتابَ اللهِ، وَأقَامُوا الصّلاةَ، وأنفَقُوا ممَّا رزَقْناهُمْ سِراً وَعلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تبُورَ ﴾[4].

ثانياً ـ وقال تعالى ﴿ وإذَا قُرِىءَ القُـرْآنُ فَـاسْتَمِعُـوا لَـهُ وأنْصِتُـوا لعَلَّكُـمْ تُرْحَمُونَ ﴾[5]

ثالثاً ـ وقال تعالى ﴿ أفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أم عَلى قُلُوبٍ أقْفَالها ﴾[6]

---

(١) المراد بالآيات هنا المعجزات التي أيد الله بها رسله الكرام.

(٢) انصرمت: أي ذهبت بذهابهم وانقضت بوفاتهم فلم يعد لها وجود.

(٣) المدى: الزمان الطويل.

(٤) سورة فاطر، الآية: ٢٩.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

(٦) سورة محمد ﷺ، الآية: ٢٤.

الأحاديث الشريفة:

أولاً: وقال ﷺ: « خيركُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وعَلَّمَه » رواه البخاري.

ثانياً: وقال صلوات الله عليه: « الماهر بالقرآن مع السّفَرة الكِرام البررة والذي يقرأ القُرْآن ويتعتع فيه (أي تصعب قراءته عليه لعيّ لسانه) وهو عليه شاقّ له أجران » رواه مسلم.

ثالثاً: وقال أيضاً: « أشرافُ أمّتي حَمَلَة القُرْآن » رواه الترمذي.

رابعاً: وقال أيضاً: « اقرءوا القرآنَ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه » رواه الترمذي.

خامساً: وقال أيضاً: « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأتْرُجّة ريحها طيّب، وطعمها طيب ».

سادساً: وقال أيضاً: « إن هـذا القـرآن مـأدبـة الله، فتعلّمـوا مـن مـأدبتـه مـا استطعتم... » متفق عليه.

وينبغي للدارس لعلوم القرآن ان يتأدب بآداب القرآن، ويتخلّق بأخلاقه، ويكون غرضه من وراء العلم (رضوان الله والدار الآخرة لا حطام الدنيا وأن يعمل بما فيه ليكون حجة له يوم القيامة فقد صح في الحديث الشريف (القرآن حجة لك او عليك »[1]. قال شيخ الإسلام (ابن تيمية) رحمه الله: (من لم يقرأ القرآن فقد هجره، ومن قرأ القرآن ولم يتدبر معانيه فقد هجره، ومن قرأه وتدبّره ولم يعمل بما فيه فقد هجره) يشير بذلك الى قوله تعالى ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إنّ قَوْمي اتّخذُوا هَذَا القُرآنَ مَهجُوراً﴾[2]

(١) انظر تفسير القرطبي، الجزء الأول.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٠.

أسماء القرآن:

للقرآن الكريم أسماء عديدة كلها تدلّ على رفعة شأنه، وعلوّ مكانته، وعلى أنه أشرف كتاب سماوي على الإطلاق.. فيسمى (القرآن) و(الفرقان) و(التنزيل) و(الذكر) و(الكتاب) الخ كما وصفه الله تبارك وتعالى بأوصاف جليلة عديدة منها (نور) و(هدى) و(رحمة) و(شفاء) و(موعظة) و(عزيز) و(مبارك) و(بشير) و(نذير) الى غير ذلك من الأوصاف التي تشعر بعظمته وقدسيته.

وجه التسمية:

أ - اما تسميته (بالقرآن) فقد جاء في آياتٍ كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ق. وَالقُرآنِ المجيدِ﴾[1] وقوله تعالى ﴿إنّ هَذَا القُرآن يَهْدي لِلّتي هيَ أقْوَمُ﴾[2].

ب - وأما تسميته (بالفرقان) فقد جاء في قوله تعالى ﴿تَبَارَكَ الّذي نَزّلَ الفُرْقانَ على عَبْدِهِ لِيَكونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾[3].

جـ - وأما تسميته (بالتنزيل) ففي قوله تعالى ﴿وإنّهُ لَتَنْزِيلُ رَبّ العَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمينُ﴾[4].

د - وأما تسميته (بالذكر) ففي قوله تعالى ﴿إنّا نَحْنُ نَزّلْنا الذّكْرَ وإنّا لَهُ لَحافِظُون﴾[5].

هـ - وأما تسميته (بالكتاب) ففي قوله تعالى ﴿حم * والكِتابِ المُبين * إنّا أنْزَلْناهُ في لَيْلَةٍ مُبارَكة﴾[6].

---

(١) سورة ق، الآية: ١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٤) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٢، ١٩٣.

(٥) سورة الحجر، الآية: ٩.

(٦) سورة الدخان، الآيات: ١ - ٣.

واما الاوصاف فقد ورد فيها آيات عديدة، وقلّما تخلو سورة من سور القرآن من وصف رائع مجيد لهذا الكتاب الذي أنزله رب العزّة ليكون معجزة خالدة لخاتم الانبياء نذكر منها:

أولاً ـ قوله تعالى ﴿يا أيها النّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبّكُم وَأنْزَلْنا إلَيْكُم نوراً مُبِيناً﴾ [١].

ثانياً ـ وقوله تعالى ﴿ونُنَزّلُ من القُرْآن ما هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ للمُؤْمِنِينَ، ولا يَزِيدُ الظّالمينَ إلاّ خَسَاراً﴾ [٢].

ثالثاً ـ وقوله تعالى ﴿قُلْ لِلّذينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفاء..﴾ [٣]

رابعاً ـ وقوله تعالى ﴿يا أيّها النّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِن رّبكُمْ وَشفَاءٌ لما في الصّدور وَهُدًى ورَحْمةٌ للمؤمنين﴾ [٤].

والقرآن كالقراءة مصدر قرأ قراءة وقرآناً هكذا يرى بعض العلماء ويستدلون بقوله تعالى: ﴿إنَّ علَيْنا جَمْعَهُ وقُرْآنَهُ * فَإذا قَرَأْناهُ فَاتّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [٥] أي قراءته فالقرآن على هذا الرأي يكون مشتقاً، ويرى بعض العلماء انه ليس مشتقاً من قرأ وإنما هو (اسم علم) لهذا الكتاب المجيد فهو مثل (التوراة) ومثل اسم (الانجيل) وهذا رأي الإمام الشافعي رحمه الله. انظر كتاب (مباحث القرآن للأستاذ منّاع القطان).

متى ابتدأ نزول القرآن:

كان بدء نزول القرآن الكريم، في السابع عشر من رمضان، لأربعين سنة خلت من حياة النبي الأمي محمد عليه الصلاة والسلام، فبينما كان رسول الله ﷺ يتحنّث (أي

(١) سورة النساء، الآية: ١٧٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٣) سورة فصلت: جزء من الآية: ٤٤

(٤) سورة يونس، الآية: ٥٧.

(٥) سورة القيامة، الآيتان: ١٧ ـ ١٨.

يتعبد) في غار حراء ، إذ نزل عليه الوحي (جبريل الأمين) بآيات الذكر الحكيم فضمه الى صدره ثم أفلته ـ فعل ذلك به ثلاث مرات ـ وهو يقول له في كل مرة (إقرأ) والرسول الكريم يجيبه (ما أنا بقارىء) أي لست أعرف القراءة، وفي المرّة الثالثة قال له: ﴿ إقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ ★ خَلَقَ الانْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ★ إقْرأْ ورَبّكَ الأكْرَمُ ★ الذي عَلّمَ بالقَلَمِ ★ عَلّمَ الإنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [١].

فكان ذلك بدء نزول الوحي، وبدء نزول القرآن، ولقد سبق نزول بعضُ الارهاصات (أي الإشارات والدلائل) التي تدلّ على قرب الوحي وتحقّق النبوّة للرسول الكريم، ومن هذه الدلائل (الرؤيا الصادقة) في النوم، فكان صلوات الله عليه لا يرى رؤيا الا وقعت كما رآها في منامه، ومنها (حبّه للعزلة والخلوة) فكان يخلو بغار حراء يتعبّد ربه فيه.

رواية البخاري:

وقد أخرج البخاري في صحيحه في باب (بدء الوحي) ما يشيرُ الى هذا، والى كيفية نزول القرآن، حيث روى بسنده عن عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت:

« أول ما بُدِىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحةُ في النوم، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثلَ فلق [٢] الصبح، ثم حُبّبَ إليه الخلاء [٣]، وكان يخلو (بغار حراء) فيتحنّث فيه (وهو التعبّد) الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع [٤] إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك [٥] فقال: إقرأ، قال: ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطّني [٦] حتى بلغ مني

---

(١) سورة العلق، الآيات: ١ ـ ٥.

(٢) فلق الصبح، نور الصبح وضياءه.

(٣) الخلاء، أي العزلة.

(٤) ينزع: أي يرجع.

(٥) الملك: المراد به جبريل عليه السلام.

(٦) فغطّني: أي ضمني إلى صدره.

الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ...﴾ الآيات فرجع بها رسول الله يرجف فؤاده»[١].

ونزول القرآن في شهر رمضان فيه نصّ صريح واضح في كتاب الله عز وجلّ حيث يقول عزّ من قائل:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الّذي أُنْزِلَ فيهِ القُرْآنُ، هُدَىً للنّاسِ، وبَيِّناتٍ منَ الهُدى والفُرْقَانِ﴾[٢]. أوأما كون الملك الذي نَزَل به هو (جبريل) عليه السلام فقد ثبت أيضاً بنص صريح في القرآن وهو قوله تعالى:

﴿نَزَلَ بِهِ الرّوحُ الأمينُ★ على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ★ بِلِسانٍ عرَبِيٍ مُبِينٍ﴾[٣]. وقوله تعالى:

﴿قُلْ نَزّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِكَ بالحقِّ، لِيُثَبِّتَ الذينَ آمَنُوا، وَهُدَى وبُشْرى لِلْمُسلِمِينَ﴾[٤].

والمراد بالروح الأمين، او روح القدس، انما هو (جبريل) عليه السلام باتفاق المفسّرين فهو أمين الله على وحيه، وهو الذي نزل بالوحي على جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين.

أول ما نزل وآخر ما نزل:

أول ما نزل من القرآن الكريم الآيات الأولى من سورة العلق ﴿إقرأ بِاسْمِ ربّكَ﴾[٥] كما مرّ سابقاً في حديث البخاري، وأما آخر ما نزل من القرآن فهو قوله

---

(١) انظر صحيح البخاري، الجزء الأول.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٣) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٣ ـ ١٩٥.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٠٢.

(٥) سورة العلق، الآية: ١

تعالى: ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ [١]. هذا هو الصحيح الراجح الذي اختاره العلماء وعلى رأسهم (السيوطي) وهو منقول عن حَبْر هذه الأمة (عبد الله بن عباس) رضي الله عنهما فقد أخرج النسائي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: «آخر شيء نزل من القرآن ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله..﴾ وقد عاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليالٍ ثم مات ليلة الإثنين في الثالث من ربيع الأول» [٢].. وأما قول بعضهم: إنَّ آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً...﴾ [٣] الآية فهو رأي غير صحيح لأن هذه الآية الكريمة نزلت على رسول الله ﷺ في حجة الوداع، وهو واقف بعرفة، وقد عاش ﷺ بعدها ٨١ واحداً وثمانين يوماً وقبل وفاته بتسع ليالٍ نزلت آية البقرة ﴿واتقوا يوماً..﴾ فتكون هي آخر ما نزل، لا آية المائدة، وهذا هو الرأي الصحيح، وبنزول هذه الآية الكريمة انقطع الوحي فكان ذلك آخر اتصال السماء بالأرض، وانتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى بعد نزول ختام القرآن، بعد أن أدى الأمانة، وبلّغ الرسالة، وهدى الناس إلى دين الله.

آية المائدة متأخرة في النزول:

ومما يدل على ان آية المائدة نزلت في حجة الوداع ما روي في صحيح البخاري أن يهودياً جاء الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين آيةٌ في كتابكم لو علينا مَعشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً! فقال عمر: وأي آية تعني؟ قال قول الله تبارك وتعالى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ فقال له عمر: والله إني لأعلم المكان الذي نزلت فيه، والساعة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.

(٢) أنظر: كتاب الأتقان في علوم القرآن للسيوطي.

(٣) سورة المائدة، الآية: (٣).

التي نزلت فيها، نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ بعرفة، في يوم الجمعة، بعد العصر [1] أي أنها نزلت في يوم هو من أعظم الاعياد الإسلامية، فهو عيد على عيد..

تنبيه:

أورد العلامة السيوطي في كتابه (الاتقان في علوم القرآن) بعض الإشكالات على أول ما نزل من القرآن، وآخر ما نزل، وأجاب عنها بأجوبة سديدة نلخصها فيما يلي:

الإشكال الأول: أنه روي في الصحيحين من حديث (جابر بن عبد الله) أنه سئل: أيّ القرآن أنزل قبل؟ قال: ﴿يا أيها المدّثّر﴾ [2] فقيل له: بل ﴿إقرأ باسم ربك﴾ [3] فقال أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: «إني جاورت بحراء فلما قضيت جواري نزلتُ فاستبطنت الوادي، فنظرت أمامي وخلفي، وعن يميني وشمالي، ثم نظرت إلى السماء فإذا (جبريل) فأخذتني رجفة فأتيت خديجة فأمرتهم فدثّروني فأنزل الله ﴿يا أيها المدّثّر﴾، فهذا الحديث يدلّ على ان سورة المدثر هي أول ما نزل من القرآن، وقد أجاب عن ذلك السيوطي بقوله: ويجاب عن هذا الحديث بأجوبة: أحدها: أنّ السؤال كان عن نزول سورة كاملة فبيّن أنّ سورة المدثر نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة (إقرأ) فإنها أول ما نزل منها صدرها ويؤيد هذا ما في الصحيحين عن جابر بن عبد الله أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «بينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا بالملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرجعت فقلت: زملوني فأنزل الله ﴿يا أيها المدّثر﴾ فقوله الملك الذي جاءني بحراء يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء التي نزل فيها ﴿إقرأ باسم ربك﴾ ثم سرد أجوبة أخرى لا حاجة الى ذكرها.

وأما الإشكال الثاني: وهي أن آية المائدة وهي قوله تعالى ﴿اليَوْمَ أكملتُ لكُمْ

---

(١) انظر: صحيح البخاري، باب التفسير.

(٢) سورة المدثر، الآية: ١.

(٣) سورة العلق، الآية: ١.

دينَكُمْ..﴾[١] تدل على أن الدين قد كمل وتمّ فكيف تنزل بعد ذلك آيات ونقول إنها ختام القرآن؟ والجواب على ذلك: إن الله عز وجل قد أكمل الدين ببيان الفرائض والأحكام، وبيان الحلال والحرام، فما تحتاج إليه الأمة قد بيّنه الله عزّ وجلّ، وفصّل أحكامه حتى أصبحوا على (المحجّة البيضاء)، وهذا لا ينافي أن تنزل بعض الآيات الكريمة التي فيها التذكير والتحذير من عذاب الله، وفيها تذكير الناس بالوقفة الكبرى بين يدي أحكم الحاكمين، في ذلك اليوم الرهيب، الذي لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلاّ مَنْ أتى الله بقلب سليم.. وقد صرّح بهذا جماعة من العلماء حتى قال السُّدّيّ: لم ينزل بعدها حلال ولا حرام[٢].

أول ما نزل في القتال، والخمر، والأطعمة:

أولاً - نزلت في القتال آيات عديدة، ولكنّ هذه الآيات التي نزلت في شأن القتال كلها مدنيّة، لأن المسلمين - في مكة - كانوا في حالة ضعف، فكان جهادهم للأعداء باللسان لا بالسِّنان، ولم يسمح لهم بقتال الأعداء إلا بعد الهجرة، أي بعد ان تقوّى المسلمون وكثروا وأصبح لهم دولة في المدينة المنوّرة فنزلَ عند ذلك الإذن بالقتال، وأول آية نزلت في القتال هي قول الله تبارك وتعالى في سورة الحج:

﴿أذنَ لِلّذينَ يُقَاتَلُونَ بأنّهُمْ ظُلِمُوا، وَإنّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ* الّذينَ أخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقّ إلاّ أنْ يَقُولوا رَبّنَا اللهُ، وَلَوْلا دَفعُ اللهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ ببعض لَهُدِمَتْ صَوَامِعُ وبِيَعٌ وصَلَوَاتٌ ومَسَاجِدٌ يُذْكَرُ فيهَا اسْمُ اللهِ كَثيراً، ولَيَنصُرنَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنّ اللهَ لَقَوِيٌّ عزيزٌ﴾[٣]. فأنت ترى في هذا النصّ الكريم ما يوضح الحكمة من مشروعية الإذن بالقتال، فلم يكن القتال إلا دفعاً للظلم، ودفعاً للعدوان، ولم يُشْرع إلا دفاعاً عن المظلومين وردعاً للمعتدين كما هو صريح النص الكريم.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) أنظر: الإتقان، ص ٢٧ السيوطي.

(٣) سورة الحج، الآيتان: ٣٩، ٤٠.

ثانيا ـ وأما الخمر فقد نزلت فيها آيات عديدة، وكان أول ما نزل فيها قول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ والمَيْسَرِ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ومَنَافِعُ للنَّاس، وإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ من نَفْعِهِمَا...﴾[1].

روي عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: نزل في الخمر ثلاث آيات، فأول شيء ﴿يسألونك عن الخمرِ والميسرِ..﴾ الخ.

ثالثاً ـ وأما أول ما نزل من الأطعمة في مكة فقوله تعالى في سورة الأنعام:

﴿قُل لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أو دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ ولا عَادٍ، فإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2].

وهذه أوائل مخصوصة ببعض الأحكام التشريعية التي نزلت بها أحكام القرآن وهي مما ينبغي معرفته ليقف الانسان على سرّ التشريع الاسلامي الدقيق، الذي راعى حاجات الناس ومصالح البشر. والتي هي أحد الأسس الحكيمة التيَ سلكها الإسلام في معالجة الأوضاع الاجتماعية، والأمراض الخلقية التي كان عليها الناس في الجاهلية كما سنوضح ذلك في بحث آخر إن شاء الله.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٥.

الفَصْلُ الثَانِي
أَسْبَابُ النُزُول

أسْبَابُ النّزول:

معرفة (أسباب النزول) له أثر كبير في فهم معنى الآية الكريمة، ولهذا اعتنى كثير من العلماء بمعرفة أسباب النزول، حتى أفرد له بالتصنيف جماعة من العلماء كان من أقدمهم (علي بن المديني) شيخ البخاري رحمه الله.. ومن أشهر ما كتب في هذا الفن كتاب (أسباب النزول) للواحدي، كما ألّف فيه شيخ الاسلام (ابن حجر) وألّف فيه أيضاً العلامة (السيوطي) كتاباً حافلاً عظيماً سماه (لُباب النقُول في أسباب النزول).

ولمعرفة أهمية هذا النوع من علوم القرآن، والتأكد من ضرورته لفهم معاني الآيات الكريمة نستطيع أن نقول: إن بعض الآيات لا يمكن فهمها أو معرفة أحكامها إلا على ضوء سبب النّزول، فمثلاً قول الله تعالى: ﴿**وَ لله المَشْرِقُ والمغرِبُ فأيْنَما تُوَلّوا فَثَمّ وَجْهُ الله..**﴾[1] الآية قد يفهم منها جواز التوجه في الصلاة إلى غير القِبلَة، وهذا الفهم خاطىء لأن استقبال القِبْلة شرط لصحة الصلاة، وبمعرفة سبب النزول يتّضح فهم الآية، فقد نزلت هذه الآية الكريمة فيمن كان في (سفر)، وأضاع القِبْلَة فلم يعرف جهتها فإنه يجتهد ويتحرّى ثم يصلي فإلى أي جهة صلى تصحّ صلاته، ولا تجب عليه

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٥

إعادة الصلاة فيما إذا تبيّن له بعد الانتهاء خطأ توجهه، فالآية إذاً ليست عامة إنما هي خاصة فيمن جهل القِبلة فلم يعرف جهتها.

ومثال آخر على أهمية سبب النزول في فهم الآية أن قوله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، ثُمَّ اتَّقَوا وَآمَنُوا، ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا، وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ﴾ [1].

إنما نزلت في الخمر، وقد يُفهم من هذا النص الكريم إباحة شرب الخمر ـ كما ظن بعض الجهلة ـ حيث قالوا: الخمر مباحة واحتجوا بالآية الكريمة، ولو علموا سبب نزولها لم يفتروا ذلك، فقد روي أنّه لما نزل تحريم الخمر في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [2] قال ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: فكيف بمن قتلوا في سبيل الله وماتوا، وكانوا يشربون الخمر وهي رجسٌ؟ فنزلت الآية الكريمة تبيّن ان من شربها قبل التحريم فإن الله قد عفا عنه وليس عليه ذنب أو إثم لأن الله لا يؤاخذ على ما سبق من العبد قبل الإسلام أو قبل التحريم، وبذلك تفهم الآية ويبقى النص القطعي في تحريم شرب الخمر.

فوائد معرفة أسباب النزول:

قد يظن بعض الناس أنه لا طائل تحت هذا الفن، وليس له أثر كبير لجريانه مجرى التاريخ والقَصَص، فإن أسباب النزول ـ على زعمهم ـ ليست ضرورية لمن أراد تفسير كتاب الله. وهذا زعم خاطىء وقول مردود، لا يصدر من عالم بالكتاب، مطّلع على أقوال المفسّرين. وها نحن ننقل طرفاً من آراء بعض العلماء، ثم نعقبها بذكر فوائد أسباب النزول.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٠.

قال (الواحدي): لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها، وبيان نزولها.

وقال (ابن دقيق العيد): بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن.

وقال (ابن تيمية): معرفة سبب النزول يعيـن على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبّب.

وهكذا تظهر أهمية هذا الفن من علوم القرآن.

وأما فوائده فيمكن تلخيصها فيما يلي:

أ ـ معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.

ب ـ تخصيص الحكم بالسبب (عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب).

جـ ـ دفع توهم الحصر، فيما ظاهره الحصر.

د ـ معرفة اسم من نزلت فيه الآية، وتعيين المبهم فيها. إلى غير ما هنالك من فوائد أخرى جليلة.

أمثلة على فوائد النزول:

أولاً: أشكل على (مروان بن الحكم) معنى قوله تعالى: **﴿لا تَحْسَبَنَّ الذين يَفْرَحون بما أتَوا، ويُحبّونَ أنْ يُحْمَدُوا بما لَمْ يَفْعَلُوا، فلا تَحْسَبَنَّهُم بمفازةٍ مِنَ العَذاب..﴾** [1] الآية. فقال لخادمه: اذهب الى ابن عباس فقُلْ لهُ: (لئن كان كلّ امرىءٍ فرح بما أوتيَ، وأحبّ أن يحمد بما لم يفعل معذّباً لنعذّبنَّ أجمعون). فبيّن له (ابن عباس) رضي الله عنهما ما أزال عنه الإشكال وقال له: إن الآية نزلت في أهل الكتاب ـ اليهود ـ حين سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، أروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه فنزلت الآية. (رواه الشيخان).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٨.

ثانياً: كما أشكل على (عروة بن الزبير) رضي الله عنه معنى قوله تعالى ﴿إنّ الصَفَا والمروةَ منْ شَعائِرِ الله فَمَنْ حجّ البَيْتَ أو اعتَمَرَ، فلا جُناحَ علَيْهِ أنْ يَطّوّفَ بهما...﴾ [1] الآية. فإن ظاهر الآية الكريمة يشير الى عدم وجوب السعي بين (الصفا والمروة) حتى.قال (عروة بن الزبير) لخالته عائشة ام المؤمنين يا خالة: إنّ الله تعالى يقول: ﴿فلا جُناحَ عليه أنْ يطوف بهما﴾ فأرى أنه لا بأس على الإنسان أن يترك السعي بينهما؟! فقالت له عائشة: بئس ما قلتَ يا ابن أختي، لو كان الأمر كما ذكرتَ لقال الله تعالى: فلا جُناحَ عليهِ ألاّ يطّوفَ بهما.. ثم أخبرته بأن الناس في الجاهلية كانوا يسعون بين الصفا والمروة وكانوا يحجون في سعيهم (لصنمين) أحدهما: على الصفا يسمى (إسافاً)، والثاني، على المروة ويسمى (نائلة)، فلما دخل الناس في الإسلام تحرّج بعض الصحابة من السعي بينهما خشيةَ أن يلتبس الأمر بعبادة الجاهلية، فنزلت الآية الكريمة تدفع عنهم الإثم والحرج وتوجب عليهم السعي لله تعالى لا للأصنام. فقد ردت عائشة على عروة فهمه وكان ذلك بسبب النزول.

ثالثاً ـ أشكل على بعض الأئمة معنى الشرط في قوله تعالى ﴿واللّائي يَئِسْنَ مِنَ المحيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إنْ ارْتَبْتُم فَعِدَّتُهُنَّ ثلاثةَ أشهُرٍ..﴾ [2] الآية حتى قال الظاهرية إنّ الآيسة: (التي انقطع دم الحيض عليها لكبر السن) لا عدّة عليها إذا لم تَرْتَب، وقد تبيّن خطأ فهمهم بسبب النزول، فإنّ الآية خطاب لمن لم يعلم ما حكمهن في العدة؟ وارتاب هل عليهن عدة أم لا؟ فيكون معنى ﴿إنْ ارتبتم﴾ أي إن أشكل عليكم حكمهن، وجهلتم كيف يعتدون فهذا هو حكمهن، وقد نزلت هذه الآية بعد أن قال بعض الصحابة: إن عدة بعض النساء لم تذكر في القرآن وهنّ (الصغيرات والآيسات)، فنزلت الآية الكريمة تبيّن حكم عدة كلٍ منهن، والله أعلم.

رابعاً ـ ومن أمثلة فوائد النزول في دفع توهم الحصر ما روي عن الشافعي رحمه الله في قوله تعالى ﴿قُلْ لا أجِدُ فيما أُوحيَ إليَّ مُحرَّماً على طَاعمٍ يَطْعَمُهُ إلاّ أنْ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٨.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ٤.

يكونَ مَيْتَةً أوْ دَماً مسفُوحاً أوْ لَحْمَ خِنزيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أوْ فِسْقاً أُهِلَّ لغيرِ الله بِهِ..﴾[1] الآية فقد قال ما معناه: إن الكفار لما حرّموا ما أحلّ الله، وأحلّوا ما حرّم الله، وكانوا على المضادّة والمحادّة فجاءت الآية مناقضة لغرضهم فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرمتموه، ولا حرام إلا ما أحللتموه، فلم يقصد حلّ ما وراءه وإنما القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل، قال (إمام الحرمين): وهذا في غاية الحسن ولولا سبق الشافعي إلى ذلك لما كنا نستجيز مخالفة مالك في حصر المحرمات فيما ذكرته الآية[2]

توضيح لمعنى الآيـة الكريمة:

وتوضيحاً لهذه الفكرة أقول: إن ظاهر الآية الكريمة يدل على حصر المحرمات في هذه الأشياء المذكورة في الآية الكريمة وليس الأمر كذلك، فإن هناك محرمات غير هذه، وإنما وردت الآية بصورة الحصر وليس معناها الحصر للرد على المشركين في تحريمهم ما أحلّ الله وتحليلهم لما حرّم الله.

خامساً ـ ومن أمثلة فوائد سبب النزول أن نعرف اسم من نزلت فيه ليزول اللبس والإبهام فقد زعم (مروان) أنّ قوله تعالى ﴿والّذي قَالَ لوالدَيْهِ أُفٍ لَكُمَا..﴾[3] الآية أنها نزلت في (عبد الرحمن بن أبي بكر) فردّت عليه عائشة رضي الله عنها هذا الزعم الباطل وبيّنت له سبب نزولها، وتفصيل القصة على ما ذكرها البخاري هي:

« إنّ مروان كان عاملاً على المدينة، فأراد (معاوية) أن يستخلف (يزيد) فكتب الى مروان بذلك، فجمع مروان الناس فخطبهم، فذكر يزيد ودعا الى بيعته، وقال: إن أمير المؤمنين أراه الله في يزيد رأياً حسناً، وإنْ يستَخْلِفه فقد استخلف أبو بكر وعمر، فقال عبد الرحمن، ما هي إلا هرقليّة (يعني انها استبداد للملك كعمل ملوك الروم). فقال مروان: سنّةُ أبي بكر وعمر، فقال عبد الرحمن: (هرقلية)... إنَّ أبا

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٥.

(٢) أنظر: كتاب الاتقان للسيوطي.

(٣) سورةالأحقاف، الآية: ١٧

بكر والله ما جعلها في أحد من ولده ولا في أهل بيته، وما جعلها معاوية إلاّ كرامة لولده، فقال مروان: خذوه فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه ﴿والّذي قالَ لوَالديهِ أُفٍ لَكُما أتعِدانني أنْ أُخرَجَ وقَدْ خَلَتْ القُرُونُ مِنْ قَبْلي..﴾ الآية. فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن، الا ان الله انزل عذري (براءتي) ولو شئتُ أن أسمي من نزلت فيه لسمّيته [1].

ما هو سبب النزول:

قد تحصل واقعة، او تحدث حادثة، فتنزل آية او آيات كريمة في شأن تلك الواقعة او الحادثة، فهذا هو ما يسمى بـ (سبب النزول).. وقد يعرض سؤال على النبي ﷺ بقصد معرفة الحكم الشرعي فيه، أو الاستفسار عن أمر من امور الدين، فتنزل بعض الآيات الكريمة فهذا أيضاً ما يسمى بـ (سبب النزول).

مثال الحادثة ما رواه البخاري عن (خبّاب بن الأرتّ) رضي الله عنه قال: كنت قيناً (أي حداداً) وكان لي على (العاص بن وائل) دين، فجئت أتقاضاه ديني، فقال لي: لا أعطيك دينك حتى تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزّى، فقلت: لا أكفر حتى يميتك الله ثم يبعثك، فقال: إني إذاً لميّتٌ ثم مبعوث، فانتظرني إلى ذلك اليوم فسأوتي مالاً، وولداً فأوفيك دينك، فأنزل الله عز وجل فيه قوله: ﴿أفرَأيْتَ الّذي كفَرَ بآيَاتِنا وَقالَ لأُوتينَ مالاً وَوَلَداً ★ اطّلَعَ الغيْبَ أم اتّخذَ عِنْدَ الرّحْمَنِ عَهْداً ★ كلاّ سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ ونَمُدّ لهُ مِنَ العَذابِ مدّاً ★ ونَرِثُهُ ما يقولُ ويأْتِينا فَرْداً﴾ [2].

ومثال السؤال ما روي عن (معاذ بن جبل) رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، انّ اليهود تغشانا، ويكثرون مسألتنا عن الأهلّة، فما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد حتى

---

(١) أنظر: صحيح البخاري.

(٢) سورة مريم، الآيات: ٧٧ ـ ٨٠.

يستوي ويستدير ثم ينتقص حتى يعود كما كان؟ فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج..﴾[1] الآية.

كيف يعرف سبب النزول؟

يظهر مما سبق أن أسباب النزول لا يمكن أن تدرك بالرأي، ولا بدّ فيها من الرواية الصحيحة والسماع، ممن شاهدوا التنزيل، او وقفوا على الاسباب وبحثوا فيها من الصحابة والتابعين وغيرهم ممن اكتسبوا علومهم على أيدي العلماء الموثوقين.. وقد قال (ابن سيرين): سألت (عَبِيدَة) عن آية من القرآن فقال: «اتق الله وقل سَداداً. ذهب الذين يعلمون فيما أنزل الله من القرآن». ويعتمد في معرفة سبب النزول على (النقل الصحيح) فإذا صرّح الراوي بلفظ السبب فهو نص صريح فيه كقول الراوي: سبب نزول هذه الآية كذا وكذا..

وكذلك إذا أتى بفاء تعقيبية داخلة على مادة النزول كقوله (حدث كذا.. او سئل النبي عليه السلام عن كذا فنزلت) فهو نص صريح في سبب النزول أيضاً..

وقد لا تكون الصيغة نصاً في السبب كقولهم (نزلت هذه الآية في كذا..) فقد يراد منه سبب النزول، وقد يراد ما تضمنته الآية من احكام، فيكون مثل قوله: عَنى بهذه الآية كذا.. قال (الزركشي) في البرهان: قد عُرِفَ من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا.. فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها. وقال (ابن تيمية): قولهم: (نزلت هذه الآية في كذا يراد به تارةً سببُ النزول، ويراد به تارةً أن ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب فيه).

هل يتعدد سبب النزول؟

كثيراً ما يذكر المفسّرون لنزول الآية أسباباً متعددة. والمعتمد في مثل هذه الحالة أن ننظر الى العبارة التي قالوها، ونستطيع ان نستخلص ما يلي:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

أولاً: أن يعبّر كل منهما بقوله (نزلت هذه الآية في كذا..) ويذكر أمراً آخر غير الذي ذكره الاول، فيحمل على انه استنباط للحكم، وتفسير لمعنى الآية، فلا منافاة بينهما كما مرّ لأنه ليس بسبب للنزول.

ثانياً: أن يعبّر احدهما بقوله (نزلت الآية في كذا..) ويصرّح الآخر بذكر سبب النزول فالمعتمد هنا (التصريح) مثاله ما رواه في البخاري عن (ابن عمر) رضي الله عنه قال: أنزلت ﴿نساؤكم حرْثٌ لَكُم..﴾[1] الآية في إتيان النساء في أدبارهنّ، وروى مسلم في صحيحه عن (جابر) رضي الله عنه قال: كانت اليهود تقول: من أتى امرأته من دُبُرها في قُبُلها جاء الولدُ أحول فأنزل الله ﴿نساؤكم حرْثٌ لكمْ..﴾ الآية فالمعتمد هنا الثاني وهو حديث جابر لأنه نص في السبب فهو نقل، وقول ابن عمر ليس بنص فيحمل على انه استنباط للحكم وتفسير له.

ثالثاً: أن يذكر كل واحد سبباً صريحاً للنزول غير الآخر فيعتمد هنا الصحيح دون الضعيف.

مثاله: ما أخرجه الشيخان عن جندب قال: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة او ليلتين، فأتته امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك فأنزل الله ﴿والضُحى * واللّيلِ إذا سَجَى * ما وَدّعَكَ رَبُّكَ ومَا قَلى﴾[2].

وأخرج (الطبراني): أن جرْواً دخل بيت النبي ﷺ فدخل تحت السرير فمات، فمكث النبي أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة ما حَدَث في بيت رسول الله ﷺ جبريل لا يـأتيني؟ فقلت في نفسي: لو هيأت البيت وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت الجرو، فجاء النبي ترعد لحيته ـ وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة ـ فأنزل الله: ﴿والضّحى وَاللّيل إذا سَجَى. إلى قوله ﴿فترْضَى﴾. فنعتمد على الرواية الأولى لأنها في الصحيحين. قال (ابن حجر) في شرح البخاري

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٣.

(٢) سورة الضحى، الآيات: ١ ـ ٣.

قصةُ جبريل بسبب (الجرو) مشهورة لكنْ كونُها سببَ نزول الآية غريب، وفي إسناده من لا يعرف فالمعتمد ما في الصحيح[1].

رابعاً: ان يستوي الاسنادان في الصحة، فنرجح احدهما على الآخر لوجه من وجوه الترجيحات كذكر الراوي انه حضر القصة مثلا او نحو ذلك.

مثاله: ما اخرجه (البخاري) عن ابن مسعود قال: كنت امشي مع النبي ﷺ بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب، فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم: لو سألتموه، فقالوا: حدّثنا عن الروح، فقام ساعة ورفعْ رأسه، فعرفت انه يوحى إليه، حتى صعد الوحي ثم قال: ﴿قُلِ الروحُ مِنْ أمْرِ رَبّي، ومَا أوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَليلاً﴾[2].

وما اخرجه (الترمذي) وصحّحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل عنه؟ فقالوا: اسألوهْ عن الروح، فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرّوحِ ..﴾ الآية.. فهذه الرواية تقتضي أنها نزلت بمكة، والأولى تقتضي انها نزلت بالمدينة، فترجح الرواية الاولى لأنّ (ابن مسعود) كان حاضر القصة، ثم ما رواه البخاري يرجح على ما رواه غيره.

خامساً: ان تكون كل من الروايتين صحيحة الإسناد، وأن يكون بينهما تقارب في المدة، فتنزل الآية او الآيات بسبب الحادثتين معاً، وننتهي إلى الجمع بين الروايتين.

مثاله: ما أخرجه البخاري عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن هلال بن امية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سمحاء، فقال النبي ﷺ: «البيّنةُ أو حدّ في ظهرك»، فقال يا رسول الله: إذا رأى احدنا مع امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة، فجعل النبي ﷺ يقول «البيّنةُ أو حدٌّ في ظهرك» فقال: والذي بعثك بالحق اني

---

(١) أنظر: الأتقان، صفحة ٣٣.

(٢) سورة الأسراء، الآية: ٨٥

لصادق، ولينزلن الله تعالى ما يبرّىء ظهري من الحد، فنزل جبريل، وأنزل الله عليه ﴿**والّذينَ يَرمونَ أزواجَهُم...**﴾ حتى بلغ ﴿**إنْ كان منَ الصّادقِينَ**﴾ [١].

وما أخرجه (الشيخان) عن سهل بن سعد قال: جاء (عويمر بن نصر) الى (عاصم ابن عدي) فقال: إسأل رسول الله عن رجل وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فيقتل به أم كيف يصنع؟ فسأل (عاصم) رسول لله ﷺ فعاب السائلَ، فأخبر عاصم عويمراً، فقال: والله لآتينّ رسول الله فلأسألنّه، فأتاه فقال ﷺ: إنه قد أُنزلَ فيك وفي صاحبتك قرآنٌ وتلا الآية الكريمة ﴿**والّذين يَرْمونَ أزْواجَهُم، ولَمْ يَكُنْ لهمْ شُهَداءُ إلا أنفُسهم..**﴾ الآية.

وطريق الجمع بينهما ان نقول: إن اول من وقع له ذلك (هلال) وصادف مجيء (عويمر) أيضا فنزل فيهما جميعا.

قال ابن حجر: ولا مانع من تعدد الاسباب.

سادساً: ان لا يمكن الجمع بين الروايات الصحيحة، فيحمل على تعدد النزول وتكرره، لأن المدة بينهما بعيدة.

مثاله: ما روي في الصحيحين عن (المسيّب) قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله وعنده ابو جهل، وعبد الله بن ابي أُمية فقال: أي عم، قل (لا إله إلا الله) كلمة أحاج لك بها عند الله. فقال ابو جهل، وعبد الله. أترغب عن ملة عبد المطلب. فلم يزالا يكلمانه حتى قال: هو على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ لاستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك فنزلت ﴿**ما كانَ للنّبي والّذين آمَنوا أنْ يَسْتَغفِرُوا للمُشركين..**﴾ [٢] الآية.

وما اخرجه الترمذي عن علي (رضي الله عنه) قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه

---

(١) سورة النور، الآية: ٦.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١٣.

وهما مشركان فقلت تستغفر لأبويك وهما مشركان: فقال: استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك، فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت ﴿ما كان للنبي..﴾ الاية.

وروي أيضاً أن النبي ﷺ خرج يوماً الى المقابر، فجلس الى قبر منها فناجاه طويلاً ثم بكى فقال: « إنّ القبر الذي جلست عنده قبر أمي، وإني استأذنت ربي في الدعاء فلم يأذن لي فأنزل عليّ: ﴿ما كان للنبيّ والذينَ آمنوا أنْ يَسْتَغْفِرُوا للمُشْرِكين﴾ » الآية ». قال السيوطي: فيجمع بين هذه الأحاديث بتعدد النزول.

هل العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب؟

اختلف علماء الاصول في مسألة دقيقة وهي: هل العبرة بعموم اللفظ ام بخصوص السبب؟ أي أنه إذا وقعت حادثة فنزلت في شأنها آية كريمة، فهل يقتصر حكم هذه الآية على تلك الحادثة او الواقعة او الشخص الذي نزلت فيه، أم يتعدى الحكم إلى الجميع؟

فجمهور العلماء يذهبون إلى ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهذا هو الصحيح، وهناك رأي آخر بأن العبرة بخصوص السبب.

قال (السيوطي) رحمه الله في كتابه: الاتقان في علوم القرآن.

ومن الأدلة على اعتبار عموم اللفظ احتجاج الصحابة وغيرهم في وقائع بعموم آيات نزلت على أسبابٍ خاصة، كنزول آية الظهار في (سلمة بن صخر) وآية اللعان في شأن (هلال بن أمية) وحد القذف في رماة عائشة، ثم تعدى الحكم إلى غيرهم لعموم اللفظ، وقد ورد عن (ابن عباس) ما يدل على اعتبار العموم، فإنه قال به في آية السرقة مع انها نزلت في امرأة سرقت.. ثم روي عن (نجدة الحنفي) قال: سألت ابن عباس عن قوله تعالى ﴿والسّارِقُ والسّارِقَةُ فاقْطَعُوا أيديَهُما﴾ [1] أخاصّ أم عامّ؟ قال: بل عام. قال (ابن تيمية): قد يجيء كثيراً من هذا الباب

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٨.

قولهم :هذه الآية نزلت في كذا ـ لا سيا إن كـان المذكـور شخصـاً ـ كقـولهم إن آية الظهار نزلت في امرأة (ثابت بن قيس) وإنّ آية الكلالة نزلت في (جابر بن عبد الله)، وان قوله تعالى ﴿أنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بما أنْزَلَ الله﴾[1] نزلت في بني قريظة وبني النضير، ونظائر ذلك. فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا ان حكم الآية يختص بأولئك الأعيـان دون غيرهـم؛ فـإن هـذا لا يقـولـه مسلم ولا عـاقـل على الإطلاق. وقـال (الزمخشري) في تفسير سورة الهمزة: يجوز أن يكون السبب خاصاً، والوعيد عاماً ليتناول كلّ من باشر ذلك القبيح، وليكون ذلك جارياً مجرى التعريض.[2] والله تعالى أعلم.

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٩.

(٢) انتهى بتصرف من كتاب (الاتقان في علوم القرآن).

الفَصْلُ الثَّالِثُ

حِكْمَةُ نُزُولِ القُرْآنِ مُفَرَّقًا

نزول القرآن الكريم:

شرّف الله هذه الأمة المحمدية، فأنزل عليها كتابه المعجز - خاتمة الكتب السماوية - ليكون دستوراً لحياتها، وعلاجاً لمشاكلها، وبَلْسماً شافياً لِعِلَلِها وأمراضها، وآية مجدٍ وفخار على اصطفاء هذه الأمة، واختيارها لحمل أقدس الرسالات السماوية، حيث أكرمها الله بإنزال أشرف كتاب، وخصّها بالانتساب الى أشرف مخلوق (محمد بن عبد الله) ﷺ. وبنزول هذا القرآن اكتمل عقد الرسالات السماوية، فشعّ النور على العالم، وسطع الضياء على الكون، ووصلت هداية الله إلى الخلق، وكان هذا النزول بواسطة امين السماء (جبريل) عليه السلام، يهبط به على قلب النبي ﷺ ليبلغه وحي الله، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه: ﴿**نَزَلَ بِهِ الروحُ الامينُ★ على قلبك لتكون من المنذِرين★ بلسان عربيٍ مبين**﴾[1].

كيف نزل القرآن الكريم؟

للقرآن الكريم تنزّلان:

الأول: من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا (جملة واحدة) في ليلة القدر.

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٣ - ١٩٥.

الثاني: من السماء الدنيا إلى الأرض (مفرقاً) في مدة ثلاث وعشرين سنة.

أما التنزّل الأول: فقد كان في ليلة مباركة من ليالي الدهر هي (ليلة القدر) أنزل فيه القرآن كاملاً إلى (بيت العزة) في السماء الدنيا، ويدل عليه عدة نصوص وهي:

آ - قوله تعالى: ﴿حم * والكِتابِ المبينِ * إنّا أنزَلْناهُ في لَيْلَةٍ مُبارَكةٍ إنّا كُنّا مُنْذِرينَ﴾[1].

ب - وقوله تعالى ﴿إنّا أنزلناه في ليلة القدر، وما أدراك ما ليلة القدر﴾[2]

جـ - وقوله تعالى: ﴿شهرُ رمضانَ الذي أُنزِلَ فيهِ القرآنُ هُدىً للناسِ وبيناتٍ من الهدى والفرقَان﴾[3].

فقد دلت هذه الآيات الثلاث على ان القرآن أُنزل في ليلة واحدة، توصف بأنها مباركة، وتسمّى (ليلة القدر) وهي من ليالي شهر رمضان، ويتعين أن يكون هذا النزول هو النزول الأول الى بيت العزة في السماء، لأنه لو اريد به النزول الثاني على النبي ﷺ لما صحّ أن يكون في ليلة واحدة، وفي شهر واحد هو (شهر رمضان) لأن القرآن إنما نزل في مدة طويلة هي مدة البعثة ٢٣ سنة، ونزل في غير رمضان في جميع الأشهر، فتعيّن ان يكون المراد به (النزول الأول) وقد جاءت الاخبار الصحيحة تؤيد ذلك منها:

آ - عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (فُصِلَ القرآنُ من الذّكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا، فجعل جبريل ينزل به على النبي ﷺ)[4].

ب - وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (أنزل القرآن جلة واحدة إلى سماء

---

(١) سورة الدخان، الآية: ١ - ٣.

(٢) سورة القدر، الآيتان: ١، ٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٤) رواه الحاكم.

الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه في إثر بعض)[1].

جـ - وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (أنزل القرآن في ليلة القدر في شهر رمضان إلى سماء الدنيا جملة واحدة، ثم انزل نجوماً)[2]. قوله نجوماً: أي أجزاء متفرقة..

فهذه الروايات الثلاث رواها السيوطي في كتابه (الاتقان في علوم القرآن) وبيّن انها كلها صحيحة، كما روى (السيوطي) أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سأله (عطيةُ بن الأسود) فقال: (أوقع في قلبي الشك قوله تعالى: ﴿**شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآنُ**﴾ وقوله: ﴿**إنّا أنزلناه في ليلة القدر**﴾ وهذا انزل في شوال، وفي ذي القعدة، وفي ذي الحجّة، وفي المحرم وصفر، وشهر ربيع، فقال ابن عباس: إنه أُنزل في رمضان في ليلة القدر، جملةً واحدة، ثم أُنزل على مواقع النجوم رِسْلا في الشهور والايام).

يريد بقوله (مواقع النجوم) وبقوله (رسلاً) أي انه انزّل منجماً مفرقاً، يتلو بعضه بعضاً على تؤدة ورفق. وذكر (السيوطي) أن القرطبي نقل حكاية الاجماع على نزول القرآن جملة من اللوح المحفوظ الى بيت العزة في السماء الدنيا. ولعلّ الحكمة في هذا النزول هي: تفخيم أمر القرآن، وأمر من نزل عليه، بإعلام سكان السموات السبع أنّ هذا آخر الكتب المنزّلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قد قرّبناه إليهم لننزله عليهم.

قال السيوطي: (ولولا أن الحكمة الالهية اقتضت وصوله اليهم منجماً بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزّلة قبله، ولكنّ الله سبحانه باينَ (أي

---

(١) رواه الحاكم والبيهقي.

(٢) رواه الطبراني.

خالف) بينه وبينها، فجعل له الأمرين: إنزاله جلة، ثم انزاله مفرقاً، تشريفاً للمُنْزل عليه)[1].

٢ ـ التنزيل الثاني:

وأما التنزيل الثاني فقد كان من السماء الدنيا على قلب النبي ﷺ منجماً (أي مفرقاً) في مدة ثلاث وعشرين سنة وهي من حين البعثة إلى حين وفاته صلوات الله وسلامه عليه. والدليل على هذا النزول وأنه نزل منجماً قول الله تعالى في سورة الإسراء:

أ ـ **﴿وقرآناً فرَقْناهُ لِتقْرَأهُ علَى النّاسِ علَى مُكْثٍ، ونَزّلْناه تَنْزيلاً﴾**[2].

وقوله تعالى في سورة الفرقان:

ب ـ **﴿وقالَ الذينَ كَفرُوا لوْلا نُزّل علَيْه القُرْآنُ جُمْلَةً واحِدة كَذَلِك لِنُثَبّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ورتّلْناهُ تَرْتيلاً﴾**[3].

روي ان اليهود والمشركين عابوا على النبي ﷺ نزول القرآن مفرّقاً، واقترحوا عليه أن ينزل جلة واحدة حتى قال اليهود له: يا أبا القاسم لولا أُنزل هذا القرآن جلة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى، فأنزل الله هاتين الآيتين رداً عليهم، وهذا الرد ـ كما يقول الزرقاني ـ يدل على أمرين:

أحدهما: ان القرآن نزل مفرّقاً على النبي ﷺ.

والثاني: ان الكتب السماوية قبله نزلت جلة، كما اشتهر ذلك بين جمهور العلماء حتى كاد يكون إجماعاً.

---

(١) أنظر: الأتقان، ص ٤٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

ووجه الدلالة على هذين الأمرين: أن الله تعالى لم يكذبهم فيما ادّعوا من نزول الكتب السماوية جملة، بل أجابهم ببيان الحكمة في نزول القرآن مفرّقاً ولو كان نزول الكتب السماوية مفرّقاً كالقرآن لردّ عليهم بالتكذيب، وباعلان ان التنجيم هو سنّة الله فيما أنزل على الأنبياء من قبل، كما ردّ عليهم حين طعنوا على الرسول وقالوا: ﴿ما لهذا الرّسول يأكُلُ الطّعامَ ويَمشي في الأسْواق﴾[1] ردّ عليهم بقوله ﴿وما أرسلْنَا قبْلَكَ مِنَ المرْسَلينَ إلاّ إنّهُم لَيَأكُلُونَ الطّعامَ ويَمْشُونَ في الأسْوَاقِ﴾[2].

حكمة نزول القرآن منجماً:

لنزول القرآن الكريم منجماً (أي مفرقاً) حِكَمٌ جليلةٌ، وأسرار عديدة عرفها العالمون، وغفل عنها الجاهلون، ونستطيع أن نجملها فيما يأتي وهي:

أولا: تثبيت قلب النبي ﷺ أمام أذى المشركين.

ثانياً: التلطف بالنبي ﷺ عند نزول الوحي.

ثالثاً: التدرج في تشريع الاحكام السماوية.

رابعاً: تسهيل حفظ القرآن وفهمه على المسلمين.

خامساً: مسايرة الحوادث والوقائع، والتنبيه عليها في حينها.

سادساً: الإرشاد الى مصدر القرآن، وأنه تنزيل الحكيم الحميد.

ولنبدأ بشيء من التفصيل عن هذه الحكم العديدة، التي اجملناها فيما سبق فنقول ومن الله نستمد العون:

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢٠. انظر مناهل العرفان. ص ٤٦.

أولا : أما الحكمة الاولى وهي (تثبيت قلب النبي ﷺ) فقد ذكرتها الآية الكريمة في معرض الرد على المشركين، حين اقترحوا أن ينزل القرآن جلة واحدة كما نزلت الكتب السماوية السابقة فردّ الله عليهم بقوله **﴿كذلك لنثبّت به فؤادك ورتّلناه ترتيلاً﴾** [1] وتثبيت قلب النبي ﷺ انما هو رعاية من الله وتأييد لرسوله أمام تكذيب خصومه له وإيذائهم الشديد له ولأتباعه، فقد كانت الايات الكريمة تنزل على رسول الله ﷺ (تسلية) له وشحذاً لهمته للمضيّ في طريق الدعوة مهما اعترضته المصاعب والشدائد، وتقوية لقلبه الشريف، فقد تعهّده الله سبحانه وتعالى بما يخفف عنه الشدائد والآلام، فكان اذا اشتد الأذى عليه نزلت الآيات تسلية له وتخفيفاً عمّا يلقاه، وكانت التسلية تارة عن طريق قصص الأنبياء والمرسلين ليقتدي بهم في صبرهم وجهادهم كما قال تعالى **﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا على ما كُذِّبوا وأُوذُوا حتّى أتاهم نصرنا..﴾** [2] الآية. وقوله تعالى **﴿فَاصْبِرْ كمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرّسُلِ﴾** [3] وقوله **﴿واصْبِرْ لِحُكْمِ ربّكَ فإنّكَ بأعْيننا﴾** [4].

وقد أوضح الباري جلّت عظمته الحكمة من ذكر قصص الأنبياء فقال وهو أصدق القائلين: **﴿وكلاً نَقُصّ عَلَيْكَ مِنْ أنْباءِ الرّسُلِ ما نُثبّت به فُؤادَكَ، وَجاءَكَ في هذِهِ الحَقّ ومَوْعِظَةٌ وذكْرَى للمؤمنين﴾** [5] وتارة كانت التسلية عن طريق الوعد بالنصر والتأييد للنبي ﷺ كقوله تعالى **﴿وينْصُرُكَ اللهُ نصراً عزيزاً﴾** [6] وكقوله **﴿ولقد سَبَقَتْ كلمتُنا لعبادنا المُرْسَلين ★ إنهم لهم المَنْصُورون وَإنّ جُنْدَنا لهمُ الغالِبُون﴾** [7].

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٤.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

(٤) سورة الطور، الآية: ٤٨.

(٥) سورة هود، الآية: ١٢٠.

(٦) سورة الفتح، الآية: ٣.

(٧) سورة الصافات، الآيات: ١٧١ ـ ١٧٣.

وأخرى تكون التسلية عن طريق إخبار الرسول باندحار اعدائه وانهزامهم كما في قوله تعالى ﴿**سيهزمُ الجمعُ ويولّون الدبُر**﴾[1] وقوله ﴿**قُلْ للذين كفروا ستُغلَبُون وتُحشَرونَ إلى جهنم وبِئسَ المهاد**﴾[2]. إلى آخر ما هنالك من ألوان في التخفيف عن قلب الرسول، وتطييب نفسه وفؤاده، ولا شك أن في تجدد نزول الوحي، وتكرّر هبوط الأمين جبريل بالآيات البينات، التي فيها تسلية للنبي ﷺ وفيها الوعد بالنصر والحفظ والتأييد، كان لها أعظم الأثر في تثبيت قلب الرسول لمتابعة الدعوة، والمضيّ في تبليغ الرسالة الإلهية، لأنّ الله معه، وهل يشعر بالخذلان والفتور من كانت عناية الله تحوطه وعينه ترعاه؟

ثانياً ـ أما الحكمة الثانية وهي: (التلطف بالنبي ﷺ) عند نزول الوحي، فقد كانت بسبب روعة القرآن وهيبته، كما قال تعالى ﴿**إنّا سَنُلقي عليكَ قولاً ثقيلاً**﴾[3] فالقرآن ـ كما هو مقطوع به ـ كلام الله المعجز، الذي له جلال ووقار، وهيبة وروعة وهو الكتاب الذي لو نزل على جبلٍ لتفتّت وتصدّع من هيبته وجلاله كما قال تعالى ﴿**لَوْ أنزلْنا هذا القُرآنَ على جبلٍ لَرَأيْتَهُ خاشِعاً مُتَصدّعاً من خشْيَةِ الله..**﴾[4] فكيف اذا بقلب النبي الرقيق، هل يستطيع ان يتلقى جيع القرآن دون أن يتأثر ويضطرب ويشعر بروعة القرآن وجلاله!! ولقد اوضحت السيدة عائشة حالة الرسول حين ينزل عليه القرآن، وما يلاقيه من شدة وهول من أثر التنزيل، فقالت: (كما رواه البخاري) ولقد رأيته حين ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه (اي ينفصل) وإن جبينه ليتفصد عرقاً). يتفصد: أي يتصبب عرقاً وذلك من شدة الوحي ووطأته على النبي ﷺ..

ثالثاً: وأما الحكمة الثالثة وهي: (التدرج في تشريع الاحكام) فقد كانت جليّة

---

(١) سورة القمر، الآية: ٤٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢.

(٣) سورة المزمل، الآية: ٥.

(٤) سورة الحشر، الآية: ٢١.

واضحة، حيث سلك القرآن الكريم مع البشرية - وخاصة منهم العرب - طريق الحكمة ففطمهم عن الشرك، وأحيا قلوبهم بنور الإيمان، وغرس في نفوسهم حبّ الله ورسوله، والايمان بالبعث والجزاء، ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة - مرحلة تثبيت دعائم الإيمان - الى العبادات فبدأهم بالصلاة قبل الهجرة، ثم ثنّى بالصوم وبالزكاة في السنة الثانية من الهجرة، ثم ختم بالحج في السنة السادسة منها، وكذلك فعل في العادات المتوارثة. زجرهم اولا عن الكبائر، ثم نهاهم عن الصغائر في شيء من الرفق، وتدرج بهم في تحريم ما كان مستأصلاً في نفوسهم كالخمر والربا والميسر، تدرجاً حكيماً، استطاع بذلك ان يقتلع الشرّ والفساد من جذوره اقتلاعاً كاملاً، ولنأخذ بعض الأمثلة على ذلك التشريع الحكيم، الذي نجح في انتهاجه القرآن، في معالجة الأمراض الاجتماعية (تحريم الخمر) الذي كان داءً مستشرياً عند العرب، كيف استطاع ان يمحوه ويقضي عليه الإسلام؟ لقد انتهج القرآن في تحريمه أربع مراحل، كما هو الشأن في تحريم الربا، فلم يحرّمه دفعة واحدة لانهم كانوا يتعاطون شرب الخمر كما يشرب الواحد منا الماء الزلال، فلم يكن من الحكمة ان يحرّمه عليهم دفعة واحدة، وانما حرمه بالتدريج، فبدأ اولاً بالتنفير منه بطريق غير مباشر فنزل قوله تعالى ﴿**وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخيلِ وَالأعنابِ تتّخذونَ مِنهُ سَكَراً ورزقاً حَسَناً..**﴾[1] الآية فقد اخبر تعالى أنّه قد أنعم على الناس بهاتين الشجرتين (النخيل، والاعناب) يستخرجون منهما (السَّكَرَ) أي الخمر الذي يسكر و (الرزق الحسن) الذي ينتفع منه الناس من مأكول ومشروب، فمدح الثاني ووصفه بأنه رزق حسن، وأخبر عن الأول بأنه (سَكَر) اي شيء يسكر ويذهب بعقل الإنسان وبهذه المباينة في الوصف يتّضح لكل عاقل الفارق الكبير بين الأمرين المذكورين.

المرحلة الثانية: جاء التنفير المباشر عن طريق المقارنة العملية بين شيئين: شيء فيه نفع مادي ضئيل، وشيء فيه ضرر جسمي وصحي وعقلي جسيم، وفيه كذلك زيادة

---

(١) سورة النحل، الآية: ٦٧.

على الاضرار العظيمة مهلكة للإنسان عن طريق وقوعه في الإثم الكبير. استمع إلى قوله تعالى ﴿**يَسْأَلونَكَ عَنِ الخَمرِ والمَيْسَرِ، قُلْ: فيهما إثمٌ كَبيرٌ، ومنافِعُ للنّاسِ وإثمُهُما أكبَرُ مِنْ نَفعِهِما**..﴾[1] الآية. والمراد بالمنافع هنا: المنافع المادية التي كانوا يستفيدونها من وراء التجارة والبيع للخمر حيث يربحون منها، كما يربحون من وراء الميسر، وقد جمع القرآن بين الخمر والميسر في الآية الكريمة، ولا شك ان النفع في الميسر (مادي) بحت حيث يربح بعض المقامرين فكذلك في الخمر.

قال العلامة القرطبي في تفسيره عند تفسير هذه الآية: قوله تعالى ﴿**ومَنَافع للنّاس**﴾ (أما في الخمر فربح التجارة، فإنهم كانوا يجلبونها من الشام بِرُخص، فيبيعونها في الحجاز بربح، هذا أصح ما قيل في منتفعها). وبالمقارنة بين هذين الشيئين تبيّن ان الاسلام نفر من الخمر عن طريق بيان اضرارها الجسيمة ولكنه لم يحرّمها. وقد روي في سبب نزول هذه الآية ان جماعة من المسلمين فيهم عمر بن الخطاب جاءوا الى الرسول الكريم فقالوا يا رسول الله: اخبرنا عن الخمر؟ فإنها مَذهَبَةٌ للعقل، مَضْيَعةٌ للمال، منهكة للجسم؟ فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿**يسألونك عنِ الخمْرِ والميْسر**..﴾ الآية.

وفي المرحلة الثالثة: كان التحريم للخمر، ولكنه كان (تحريماً جزئياً) حيث نزل قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذينَ آمنُوا لا تَقرَبُوا الصّلاة وأنتم سُكارى حتى تعلموا ما تقولون**...﴾[2] الآية. فقد حرّم الله عليهم الخمر وقت الصلاة فقط حتى يصحوا من سكرهم، فكان المسلمون يشربونها ليلاً وفي غير أوقات الصلاة، وقد روي في سبب نزول هذه الآية أن (عبد الرحمن بن عوف) صنع وليمة فدعا اليها بعض الصحابة، قال (علي بن ابي طالب): فدعانا وسقانا الخمر، فأخذت الخمر منّا، وحضرت الصلاة فقدّموني لأصلي بهم إماماً فقرأت (قُلْ يا أيها الكَافِرون. أعبُدُ ما

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٣.

تَعْبُدونَ. ونَحْنُ نَعْبُدُ ما عَبَدْتُمْ) الى آخر ذلك أي أنه لسكره غيّر فيها، فنزلت الآية الكريمة.

وفي المرحلة الرابعة: وهي المرحلة الأخيرة كان التحريم الكلي، القاطع المانع، حيث نزل قوله تعالى **﴿يَا أيها الّذينَ آمَنُوا إنّما الخمْرُ والمَيْسر والأنْصابُ والأزلامُ رِجْسٌ مِن عَمَلِ الشّيْطان فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلّكُمْ تُفْلِحُون★ إنّما يُريدُ الشّيْطانُ أنْ يُوقِعَ بَيْنَكُم العَداوةَ وَالبَغْضَاء في الخمْرِ والمَيْسر، ويصدّكم عن ذكرِ الله وعن الصلاةِ، فَهَلْ أنْتم مُنْتَهُون..﴾**[1]؟ وسبب نزول هذه الآيات الكريمة على ما ذكره المفسرون هو: أن بعض الصحابة صلوا العشاء ثم شربوا الخمر وجلسوا يتسامرون، فلعبت الخمر في رؤوسهم وكان فيهم (حمزة بن عبد المطلب) عمّ النبي ﷺ، وكانت جارية صغيرة تنشدهم وتغنّيهم، فقالت ضمن نشيدها:

ألا يــا حمزُ للشُــرُفِ النّــوَاء   وهُــنّ مُعقّلاتٍ بــالفنــاء

تهيّج حمزة على النوق (الإبل) التي كانت بجوار الدار، فقام حمزة فجبّ اسنمة ناقتي (عليّ) وبقر خاصرتيهما - وهو في حالة السكر - فأُخبر عليّ بذلك فتألّم اشد الألم وذهب الى النبي ﷺ يشكو اليه ما فعل عمه (حمزة) فجاء النبي ﷺ اليه يعاتبه ويلومه على صنيعه، فجعل حمزة ينظر اليه نظرة غريبة (يصوّب بصره ويُخفّضه) ثم خاطبه النبي ﷺ ومن معه بقوله: وهم انتم إلا عبيد لأبي؟ فعلم رسول الله ﷺ ان عمه ثَمِلٌ (أي سكران) فلم يؤاخذه، فقال عمر عندئذ: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فـأنـزل الله **﴿إنما الخمـر والميسر والأنصـاب والأزلام رجسٌ﴾** الآيـة. وهكذا تم تحريم الخمر تحريماً (بالتـدرج)، فكان في ذلك اعظم حكمة جليلة سلكها الاسلام في معالجة الامراض الاجتماعية، وقد جاء في كتاب (مناهل العرفان) للزرقاني ما نصته: (وتدرّج الاسلامُ بهم في تحريم ما كان مستأصلاً فيهم كالخمر، تدرجاً حكيماً حقق الغاية، وانقذهم من كابوسها في النهاية، وكان الاسلام في انتهاج هذه الخطة

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٩٠، ٩١.

المثلى أبعد نظراً، وأهدى سبيلاً، وأنجح تشريعاً، وأنجع سياسة، من تلكم الأمم المتمدنة المتحضرة التي افلست في تحريم الخمر على شعوبها افظع إفلاس، وفشلت أمرّ فشل، وما عهد امريكا في مهزلة تحريمها الخمر ببعيد!! أليس ذلك إعجازاً للإسلام في سياسة الشعوب، وتهذيب الجماعات، بلى والتاريخ من الشاهدين.

اما الحكمة الرابعة: فهي: (تسهيل حفظ القرآن) على المسلمين، وفهمهم وتدبرهم له، فمن المعلوم ان العرب كانوا أميين (أي لا يقرأون ولا يكتبون) وقد سجّل القرآن الكريم عليهم ذلك في قوله تعالى ﴿**هو الذي بعث في الأمّيّينَ رسُولاً منْهُم يَتْلُو علَيْهِمْ آياتِه..**﴾[1] الآية. كما كان صلوات الله عليه أمياً كذلك ﴿**الذين يتّبعون الرّسُولَ النبيّ الأميّ**﴾[2] فاقتضت حكمة الله ان ينزل كتابه المجيد (منجماً) ليسهل حفظه على المسلمين، لأنهم كانوا يعتمدون على ذاكرتهم، فكانت صدورُهم اناجيلهم، كما ورد في وصف امة محمد ﷺ، وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لدى الكاتبين منهم على ندرتهم، فلو نزل القرآن جلة واحدة لعجزوا عن حفظه، وعجزوا بالتالي عن تدبّره وفهمه!!

اما الحكمة الخامسة: فهي: (مسايرة الحوادث والوقائع في حينها) والتنبيه على الاخطاء في وقتها، فإن ذلك اوقع في النفس وأدعى الى أخذ العظة والعبرة منها عن طريق (الدرس العملي) فكلّما جدّ منهم جديد نزل من القرآن ما يناسبه، وكلما حصل منهم خطأ او انحراف نزل القرآن بتعريفهم وتنبيههم الى ما ينبغي اجتنابه ولطلب عمله ونبههم الى مواطن الخطأ في ذلك الوقت والحين، خذ مثلاً على ذلك (غزوة حنين) فقد دخل الغرور الى نفوس المسلمين، وقالوا قولة الإعجاب والاغترار لما رأوا عددهم يزيد على عدد المشركين أضعافاً مضاعفة، حينذاك داخلهم العجب فقالوا (لن نُغْلَب اليوْمَ مِنْ قِلّة) وكانت النتيجة انكسارهم وانهزامهم وتوليتهم الأدبار، وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إذْ أعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً**،

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

﴿وضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الأرض بمَا رَحُبَتْ ثُمّ وَلّيْتُم مُدْبِرِينَ﴾[1] ولو ان القرآن نزل جملة واحدة لما أمكن التنبيه على الخطأ في حينه، إذ كيف يتصور ان تنزل الآيات في شأن المؤمنين واغترارهم ولم تحدث بعد تلك الواقعة او الغزوة؟ وكذلك الحال في اخذ الفداء من الأسرى في (بدر) حيث نزل التوجيه السماوي الرائع **﴿مَا كان للنّبي أنْ يَكُونَ لهُ أسْرى حتى يثْخنَ في الأرْضِ ..﴾**[2] الآية.

أما الحكمة السادسة: فهي: (الإرشاد إلى مصدر القرآن الكريم وأنه تنزيل الحكيم الحميد) وفي هذه الحكمة الجليلة يجدر بنا أن ننقل نصّ ما كتبه العالم الفاضل الشيخ (محمد عبد العظيم الزرقاني) في كتابه: مناهل العرفان حيث جاء برائع البيان فقال رحمه الله تعالى: (الإرشاد إلى مصدر القرآن،وأنه كلام الله وحده، وأنه لا يمكن أن يكون كلام محمد ﷺ ولا كلام مخلوق سواه..). وبيان ذلك: أن القرآن الكريم نقرؤه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قويّ الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض في سُوَره وآياته وجُمَلِهِ، يجري دم الإعجاز فيه كلّه من ألفه إلى يائه، كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل، كأنه سِمْط وحيد، وعقد فريد، يأخذ بالأبصار، نظّمت حروفه وكلماته، ونسّقت جُمَلُه وآياته.. وهنا نتساءل: كيف اتسق للقرآن هذا التأليف المعجز؟ وكيف استقام له هذا التناسق المدهش؟ على حين أنّه لم يتنزّل جملة واحدة، بل تنزّل آحاداً مفرّقة تفرّقَ الوقائع والحوادث في أكثر من عشرين عاماً!!

الجواب: أننا نلمح هنا سراً جديداً من أسرار الإعجاز، ونشهد سمةً فَذّة من سِمَات الربوبية ونقرأ دليلاً ساطعاً على مصدر القرآن وأنه كلام الواحد الديّان **﴿ولو كانَ من عندِ غيرِ الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾**[3]؟ وإلاّ فحدّثني بربك كيف

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٥

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ٨٢.

تستطيع أنت؟ أم كيف يستطيع الخلق جميعاً أن يأتوا بكتاب محكم الإتصال والترابط، متين النسج والسّرْد، متآلف البدايات والنهايات، مع خضوعه في التأليف لعوامل خارجة عن مقدور البشر، وهي (وقائع الزمن وأحداثه) التي يجيء كل جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعاً لها، ومتحدثاً عنها، سبباً بعد سبب، وداعية إثر داعية، مع اختلاف ما بين هذه الدواعي، وتغاير ما بين تلك الأسباب، ومع تراخي زمان هذا التأليف، وتطاول آماد هذه النجوم إلى أكثر من عشرين عاماً لا ريب أن هذا الانفصال الزماني، وذاك الاختلاف الملحوظ بين هاتيك الدواعي، يستلزمان في مجرى العادة (التفكك والانحلال) ولا يدعان مجالاً للارتباط والاتصال، بين نجوم هذا الكلام. أما القرآن الكريم فقد خرق العادة في هذه الناحية أيضاً.. نزل مفرّقاً منجماً، ولكنّه تمّ مترابطاً محكماً، أليس ذلك برهاناً ساطعاً على أنه كلام خالق القُوَى والقُدَر، ومالك الأسباب والمسبّبات، ومدبّر الخلق والكائنات، وقيّوم الأرض والسموات، العليم بما كان وما سيكون، الخبير بالزمان وما يحدث فيه من شؤون؟؟

لاحظ فوق ما أسلفنا أن رسول الله ﷺ كان إذا أنزلت عليه آية أو آيات قال: «ضعوها في مكان كذا، من سورة كذا» وهو بشر لا يدري طلعاً ما ستجيء به الأيام، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان، ولا يدرك ما سيحدث من الدواعي والأحداث، فضلاً عمّا سينزل من الله فيها.. وهكذا يمضي العمر الطويل والرسول على هذا العهد، يأتيه الوحي بالقرآن نجماً بعد نجم، وإذا القرآن كلّه بعد هذا العمر الطويل يكمل ويتم، وينتظم ويتآخى، ويأتلف ويلتئم، ولا يؤخذ عليه أدنى تخاذل ولا تفاوت، بل يُعْجِزُ الخلقَ طرّاً، بما فيه من انسجام ووحدة وترابط ﴿ **كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾[1]!!

وإنه ليستبين لك سرّ هذا الإعجاز إذا ما علمت أن محاولة مثل هذا الاتّساق والانسجام، لن يمكن أن يأتي على هذا النمط الذي نزل به القرآن، ولا على قريب من هذا النمط، لا في كلام الرسول ﷺ ولا كلام غيره من البلغاء وغير البلغاء.. خذ

(١) سورة هود، الآية: ١.

مثلاً (حديث النبي ﷺ) وهو ما هو في روعته وبلاغته وطهره وسموّه، لقد قاله الرسول ﷺ في مناسبات مختلفة، لدواع متباينة، في أزمات متطاولة، فهل في مكنتك ومكنة البشر معك أن ينظموا من هذا السَّرْد الشتيت وحده، كتاباً واحداً يصقله الاسترسال والوحدة، من غير أن ينقصوا منه، أو يتزيدوا عليه، أو يتصرفوا فيه؟؟ ذلك ما لَنْ يكون، ولا يمكن أن يكون، ومن حاول ذلك فإنما يحاول العبث، ويخرج للناس بثوب مرقّع، وكلام ملفّق، ينقصه الترابط والانسجام، ويُعوزُه الوحدة والاسترسال، وتمجّه الأسماع والأفهام. إذن: فالقرآن الكريم ينطق نزوله منجماً بأنه كلام الله وحده، وتلك حكمة جليلة الشأن، تدلّ الخلق على الحق في مصدر القرآن!! ﴿قل أنزله الذي يعلم السرّ في السّمَوَاتِ والأَرْض إنّه كانَ غفُوراً رَحِيماً.﴾ [٢]!!

كيف تلقّى النبيّ ﷺ القرآن؟

تلقى النبي ﷺ القرآن بواسطة أمين الوحي (جبريل) عليه السلام، و(جبريل) تلقاه عن ربّ العزّة جلّ جلاله، وليس لجبريل الأمين سوى تبليغ كلام الله وإيحائه للرسول ﷺ.. فالله جلّت حكمته قد أنزل كتابه المقدسْ على خاتم أنبيائه بواسطة (أمين الوحي) جبريل، وعلّمه جبريل للرسول، وبلّغه الرسول لأمته، وقد وصف الله (جبريل) عليه السلام بأنه أمين على الوحي، يبلّغه كما سمعه عن الله تعالى ﴿إنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ★ ذِي قُوّةٍ عِنْدَ ذِي العَرْشِ مَكِينٍ★ مُطَاعٍ ثَمّ أمينٍ﴾ [١] وقال تعالى في وصفه أيضاً: ﴿نَزَلَ بِهِ الرّوحُ الأمين★ عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ﴾ [٢] أمّا حقيقة الكلام، وحقيقة المُنْزِل فإنما هو كلام الله، وتنزيل رب العالمين، كما قال تعالى ﴿وإنّكَ لتُلقّى القُرْآنَ مِنْ لَدُن حَكِيمٍ عليمٍ﴾ [٣] وقد كان

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦. أنظر مناهل العرفان: ١/ ٥٤.

(٢) سورة التكوير، الآيات: ١٩ ـ ٢١.

(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٤) سورة النمل، الآية: ٦.

صلوات الله عليه يعاني عند نزول القرآن شدّة، وكان يحاول أن يجهد نفسه من أجل حفظ القرآن، فيكرّر القراءة مع جبريل حين يتلو عليه القرآن، خشية أن ينساه أو يضيع عليه شيء منه، فأمره الله تعالى بالإنصات والسكوت عند قراءة جبريل عليه، وطمأنه بأنه تعالى سيجعل هذا القرآن محفوظاً في صدره، فلا يتعجل في أمره، ولا يجهد نفسه في تلقيه ﴿ولا تَعْجَل بالقُرْآنِ مِنَ قبل أن يُقضى إلَيْكَ وَحْيُهُ وقُلْ رَبِّ زِدني علماً﴾[١] وأما تَكَفَّلُ الله تعالى له بالحفظ فقد جاء في قوله سبحانه ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بهِ * إنّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وقُرْآنَه* فإذا قرأناه فاتّبع قُرْآنه* ثُمّ إنّ عَلَيْنَا بيَانَه﴾[٢] وقد كان جبريل يدارس النبي ﷺ القرآن في رمضان، فينزل جبريل على رسول الله ويستمع له القرآن، فيقرأ الرسول بين يديه، وجبريل يستمع، ويقرأ جبريل والنبي يستمع، وهكذا يدارسه في كل رمضان ما نزل من القرآن مرّة واحدة، وقبل وفاته ﷺ نزل عليه جبريل مرتين في رمضان فدارسه القرآن حتى لقد شعر عليه الصلاة والسلام ـ من نزول جبريل مرتين عليه ـ بدنوّ أجْله، وقال لعائشة رضي الله عنها: «إن جبريل كان ينزل عليّ فيدارسني القرآن مرة واحدة في رمضان، وقد نزل عليّ هذا العام مرتين، وما أراني إلا قد اقترب أجلي»..وقد كان الأمر كذلك فقد انتقل في ذلك العام إلى جوار ربه صلوات الله وسلامه عليه وانقطع بوفاته نزول الوحي.

أما كيف تلقّى جبريل القرآن عن الله عز وجل، فقد تقدّم معنا أنه كان سماعاً حيث سمع من الله عز وجل هذه الآيات فنزل بها على رسول الله.. قال البيهقي في معنى قوله: ﴿إنّا أنزَلْنَاهُ في لَيْلَةِ القَدْرِ﴾[٣] يريد ـ والله أعلم ـ (إنّا أسمعنا المَلَكَ وأفهمناه إيّاه وأنزلناه بما سمع..) انتهى .. ومعنى هذا أن جبريل أخذ القرآن عن الله تعالى سماعاً ويؤيده ما روي في الحديث الشريف: «إذا تكلّم الله بالوحي

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٤.

(٢) سورة القيامة، الآيات: ١٦ ـ ١٩.

(٣) سورة القدر، الآية: ١.

أخذت السماء رجفةٌ شديدة من خوف الله، فإذا سمع أهل السماء صعقوا، وخرّوا سُجّداً، فيكون أوّلهم يرفع رأسه (جبريل) فيكلّمه الله بوحيه بما أراد، فينتهي به إلى الملائكة، فكلّما مرّ بسماء سأله أهلها ماذا قال ربنا؟ قال: الحق، فينتهي به حيث أمِرَ». رواه الطبراني.

قال (الزرقاني) في كتابه مناهل العرفان: (وقد أسَفّ بعض الناس فزعم أن جبريل كان ينزل على النبي ﷺ بمعاني القرآن، والرسول يعبّر عنها بلغة العرب.. وزعم آخرون أن اللفظ لجبريل وأن الله كان يوحي إليه المعنى فقط.. وكلاهما قول باطل أثيم، مصادم لصريح الكتاب والسنّة والإجماع، ولا يساوي قيمة المِدَاد الذي يُكْتَبُ به، وعقيدتي أنه مدسوس على المسلمين في كتبهم، وإلاّ فكيف يكون القرآن حينئذٍ معجزاً واللفظ لمحمد أو لجبريل؟ ثم كيف تصحّ نسبته إلى الله واللفظ ليس لله؟ مع أن الله يقول ﴿حتى يَسمَعَ كلامَ الله﴾[1] إلى غير ذلك مما يطول بنا تفصيله[2].

هل السنة النبويةُ بوحيٍ من الله؟

تقدّم معنا أن القرآن الكريم (كلام الله) ومعنى ذلك أن (اللفظ والمعنى) هو من عند الله، ولا دخل لجبريل أو لمحمد فيه سوى التبليغ عن الله عز وجل، أما السنة النبوية فإنها بوحي كذلك من الله ولكنّ اللفظ للرسول والمعنى من عند الله، لأن الله تعالى يقول ﴿ومَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى *إن هُوَ إلاّ وحي يوحى﴾[3]. وقد نقل السيوطي عن (الجويني) أنه قال: (كلام الله المنزّل قسمان: قسم قال الله لجبريل: قل للنبي الذي أنْتَ مُرْسَلٌ إليه إنْ الله يقول: إفعَلْ كذا وكذا، وأمر بكذا وكذا، ففهم جبريل ما قاله ربه ثم نزل على ذلك النبي وقال له ما قاله ربه، ولم تكن العبارة تلك العبارة، كما يقول الملكُ لمن يثق به: قل لفلان يقول لك الملك: اجتهد في الخدمة،

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦.

(٢) أنظر: مناهل العرفان، ص ٤٢.

(٣) سورة النجم، الآيتان: ٣ ـ ٤.

واجمع جندك للقتال.. فإن قال الرسول: يقول لك الملكُ: لا تتهاون في خدمتي، ولا تترك الجند يتفرق، وحُثّهم على القتال.. الخ لا ينسب إلى كذب ولا تقصير.. وقسم آخر قال الله لجبريل: اقرأ على النبي هذا الكتاب، فنزل به جبريل من الله من غير تغيير، كما يكتب الملك كتاباً ويسلمه إلى أمين ويقول اقرأه على فلان.. قال السيوطي: القرآن هو القسم الثاني والقسم الأول هو السنة، ومن هنا جاز رواية السنة بالمعنى بخلاف القرآن).

الفصل الرابع

جمع القرآن

جمع القرآن في عهد النبوة:

جُمِعَ القرآنُ الكريم في عهدين: عهد النبوة، وعهد الخلفاء الراشدين، وقد كان لكل جمع خصائصه ومزاياه، وكلمة (جمع) تطلق أحياناً ويراد منها الحفظ والاستظهار في صدور الرجال، وتطلق تارة ويراد منها الكتابة والتسجيل في الصحائف والأوراق.. وقد كان لجمع القرآن في عصر النبوة الأمران معاً:

أولاً: الجمع في الصدور، عن طريق الحفظ والاستظهار.

ثانياً: الجمع في السطور، عن طريق الكتابة والنقش.

وسنتحدث عن كلا الجمعين بشيء من التفصيل، ليتبين لنا العناية الفائقة بالقرآن لعظيم وكتابته وتدوينه، مما لم يسبق لكتاب سماوي أن نال من الرعاية والعناية والاهتمام كما ناله القرآن الكريم، كتاب الله المجيد، ومعجزة محمد الخالدة.

جمع القرآن في الصدور:

نزل القرآن الكريم على النبي الأميّ، فكانت همتّه منصرفة إلى حفظه واستظهاره ليحفظه كما نزل عليه، ثم يقرأه على الناس على مُكث ليحفظوه ويستظهروه، ضرورة

أمه نبيّ أميّ بعثه الله إلى العرب الأميين[1] ﴿**هُوَ الَّذي بَعَثَ في الأُمّيّينَ رَسُولاً منهم، يتلو عليهم آياتهِ، ويزكّيهم ويعلمهم الكتابَ والحكمةَ..**﴾[2] الآية. ومن شأن الأمي ـ في العادة ـ أن يعتمد على حافظته وذاكرته، لأنه لا يقرأ ولا يكتب، ولقد كانت الأمة العربية على عهد نزول القرآن، تتمتع بخصائص العروبة الكاملة، التي فيها قوة الذاكرة، وسرعة الحفظ، وسيلان الأذهان، وكان العربي يحفظ مئات الآلاف من الأشعار ويعرف الأحساب والأنساب، فيستظهرها عن ظهر قلب، ويعرف التواريخ وقلّ أن تجد منهم من لا يعدّ لك الحسب والنسب، أو من لا يحفظ (المعلقات العشر) على كثرة أشعارها، وصعوبة حفظها!!

ثم جاءهم القرآن الكريم فبهرهم بقوة بيانه، وروعة أحكامه، وجلال سلطانه فأخذ عليهم مشاعرهم، واستحوذَ على عقولهم وأفكارهم، حتى صرف هممهم إلى الكتاب المجيد فيمّموا وجوههم نحوه، يحفظونه ويستظهرون آياته وسوره، وتركوا الشعر لأنهم وجدوا في القرآن روح الحياة!!

أما النبي ﷺ فقد بلغ من حرصه الشديد على حفظ القرآن أن يحيي الليل بتلاوة آيات القرآن في الصلاة، عبادةً وتلاوة وتدبراً لمعانيه، حتى تفطّرت قدماه الشريفتان من كثرة القيام امتثالاً لأمر الله العلي الكبير ﴿**يا أيها المزّمّلُ * قمِ الليلَ إلاّ قليلاً * نِصفَه أوِ انقُصْ مِنهُ قَليلاً * أوْ زِدْ عَلَيْهِ ورتّلِ القُرْآنَ تَرْتيلاً**﴾[3] لذلك فلا عجب أن يكون ﷺ سيّد الحفاظ، وأن يجمع القرآن في قلبه الشريف، ويكون مرجع المسلمين في كل ما يعنيهم من أمر القرآن العظيم[4]!.

وأما الصحابة رضوان الله عليهم فقد كانوا يتسابقون إلى تلاوة القرآن ومدارسته، ويبذلون قصارى جهدهم لاستظهاره وحفظه، ويعلّمونه أزواجهم وأولادهم في

---

(١) انظر مناهل العرفان للزرقاني.

(٢) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٣) سورة المزمل، الآيات: ١ ـ ٤.

(٤) من مناهل العرفان للزرقاني بتصرف.

البيوت، حتى لقد كان الذي يمر ببيوت الصحابة في غسق الدّجى، يسمع فيها دوياً كدَوِيّ النحل بالقرآن، حتى كان صلوات الله عليه يمر على بعض دور الأنصار، فيقف على بعضهم يستمع القرآن في ظلام الليل..

أخرج البخاري عن (أبي موسى الأشعري) ان رسول الله ﷺ قال له: «لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك؟ لقد أعطيت مزماراً من مزامير آل داود»..

وزاد في رواية لمسلم: فقلت: لو علمتُ والله يا رسول الله أنّك تستمع لقراءتي لحبّرتُه لك تحبيراً. وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالليل بالقرآن، وإن كنتُ لم أرَ منازلهم بالنهار». رواه الشيخان.

وقد اشتهر كثير من الصحابة بحفظ القرآن الكريم، وكان الرسول ﷺ يُذكي فيهم روح العناية بحفظ القرآن، ويبعث إلى المدن والقرى من يعلمهم ويقرئهم، كما بعث - قبل الهجرة - (مصعب بن عمير) و(ابن أم مكتوم) إلى أهل المدينة، يعلّمانهم الإسلام، ويقرئانهم القرآن، وكما بعث (معاذ بن جبل) إلى مكة للتحفيظ والتعليم بعد هجرته ﷺ.

قال (عبادة بن الصامت): (كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا يعلّمه القرآن، وكان يُسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن، حتى أمرهم رسول الله أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا).

ومن هنا كان حفّاظ القرآن في حياة الرسول ﷺ لا يحصون، ويكفي أن نعلم أن عدد الذين استشهدوا في (معركة اليمامة) يزيد عددهم على سبعين من كبار الحفاظ، كما قتل مثل هذا العدد في عهد الرسول ببئر معونة.. قال القرطبي: (قُتل يوم اليمامة سبعون من القراء وقتل في عهد رسول الله ببئر معونة مثل هذا العدد). أي: أن عدد الذين استشهدوا من الحفظة ١٤٠. ولقد كانت أشرف خصوصية لهذه الأمة المحمدية أن يكون هذا الكتاب المقدس محفوظاً في صدورها، وأن تعتمد في نقله على حفظ القلوب والصدور، لا على كتابته في المصاحف والسطور فحسب.. بخلاف أهل

الكتاب الذين لا نجد منهم من يحفظ التوراة أو الانجيل، وإنما يعتمدون في حفظها على الكتب المسطّرة، ولا يقرأونه إلا نظراً، لا عن ظهر قلب، ولهذا دخل إليهما التحريف والتبديل، أما القرآن الكريم فقد حفظه الله بعنايته الإلهية، فيسّره للحفظ **﴿ولقد يسّرنا القرآنَ للذكرِ فهلْ منْ مدّكرْ﴾**[1] وصانه من التحريف والتبديل بطريق حفظه في السطور، وحفظه في الصدور ومصداقاً لقوله تعالى **﴿إنّا نَحْنُ نزّلنَا الذّكْرَ، وإنّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾**[2] وهذا ـ بلا شك عناية من الله خاصة بهذا القرآن المجيد، وشرف عظيم اختص الله به هذه الأمة المحمدية حيث جعل أناجيلها في صدورها، وأنزل عليها كتاباً لا يغسله الماء ولله درّ القائل:

الله أكبـــرُ إنّ ديـــن محمـــد ... وكتـابهُ أقـوى وأقـوم قيـــلا

لاتُـذكـرُ الكتـبُ السـوالفُ عنـده ... طلـع الصبـاحُ فـأطفـىء القنـديلا

جمع القرآن في السطور:

وأما المزية الثانية لهذا القرآن العظيم فهو جمعه وكتابته في المصحف، فقد كان لرسول الله ﷺ كتّاب للوحي، كلما نزل شيء من القرآن أمرهم بكتابته، مبالغة في تسجيله وتقييده، وزيادة في التوثق والضبط، والاحتياط الشديد في كتاب الله عز وجل، حتى تظاهر الكتابةُ الحفظ، ويعاضد التسجيلُ المسطورُ، ما أودعه الله في الصدور.. وكان هؤلاء الكتّاب من خيرة الصحابة اختارهم رسول الله ﷺ من المجيدين المتقنين، ليتولوا هذه المهمة العظيمة.. وقد اشتهر منهم (زيد بن ثابت، وأبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، ومعاوية بن أبي سفيان، والخلفاء الراشدون) وغيرهم من الصحابة الأجلاّء رضوان الله عليهم أجمعين.

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه أنه قال: (جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة كلهم من الأنصار: أبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، قيل

---

(١) سورة القمر، الآية: ١٧.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩.

لأنس: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومتي) وهؤلاء هم مشاهير كتّاب الوحي وإلاّ فهناك من الصحابة الجمع الكبير الذين كانوا يكتبون القرآن، وكثير منهم كان له مصحف خاص كتب فيه ما سمعه أو حفظه من رسول الله ﷺ لمصحف ابن مسعود، ومصحف عليّ، ومصحف عائشة وغيرهم.

طريقة الكتابة:

وأما طريقة الكتابة فقد كانوا يكتبون القرآن على العُسُب[1]، واللّخاف[2] والرِّقاع[3]، وعظام الأكتاف وغيرها، ذلك لأنه صنع الورق لم يكن مشتهراً عند العرب، وقد كان عند بعض الأمم الآخرين كالفرس والروم، ولكنّه كذلك كان نادراً فلم يكن منتشراً، فكان العرب يكتبون على ما يقع تحت أيديهم مما يصلح للكتابة، رويِ عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: (كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع) أي نجمعه وكان هذا التأليف عبارة عن (ترتيب الآيات) حسب إرشاد النبي ﷺ وبأمر من الله تبارك وتعالى ولهذا اتفق العلماء على أن جمع القرآن (توقيفي) يعني أن ترتيبه بهذه الطريقة التي نراه عليها اليوم في المصحف إنما هو بأمرٍ ووحيٍ من الله، فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان ينزل بالآية أو الآيات على النبي فيقول له: يا محمد إنّ الله يأمرك أن تضعها على رأس كذا من سورة كذا، وكذلك كان الرسول يقول للصحابة: ضعوها في موضع كذا.

جمع القرآن في عهد أبي بكر:

انتقل رسول الله ﷺ إلى جوار الله، بعد أن أدّى الرسالة، وبلّغ الأمانة، ونصح الأمة، وهدى الناس إلى دين الله القويم، وتولّى الخلافة بعده (أبو بكر) رضي الله عنه وأرضاه، وقد واجهته ـ في خلافته ـ خطوب جسيمة، وشدائد عظيمة، ومشاكل

---

(١) العسب: جمع عسيب وهو جريد النخل، كانوا يكشفون الخوص، ويكتبون في الطرف العريض.

(٢) اللخاف: جمع لخفة بفتح اللام وسكون الخاء وهي الحجارة الرقيقة.

(٣) الرقاع: جمع رقعة. وهي قد تكون من جلد أو ورق أو غيرها من أدوات الكتابة.

صعاب، منها حروب الردّة التي وقعت بين المسلمين، وبين أتباع (مسيلمة الكذّاب) وكانت معركة (اليمامة) معركة حامية الوطيس، وقد استشهد فيها كثير من قرّاء الصحابة، ومن حفظه القرآن يزيد عددهم على (٧٠) سبعين من كبار الحفّاظ، وقد هال ذلك المسلمين، وعزّ الأمر على (عمر) فدخل على (أبي بكر) فوجده في حزن وألم، فأشار عليه أن يجمع القرآن خشية الضياع بموت الحفّاظ، فتردّد (أبو بكر) أوّل الأمر، ثم رأى أن يأخذ بإشارة (عمر) بعد أن تبيّن له وجه المصلحة، وشرح الله صدره لذلك العمل الجليل، فأرسل إلى (زيد بن ثابت) وعرض عليه الأمر، وطلب منه أن يقوم بجمع القرآن في مصحفٍ واحد، ولكنّ (زيداً) تردّد في بادىء الأمر، ثم شرح الله صدره للذي شرح له صدر أبي بكرَ وعمر.. وقد روى البخاري في صحيحه قصة هذا الجمع ننقلها بنصّها لأهميتها.

رواية البخاري.

عن (زيد بن ثابت) رضي الله عنه أنه قال:

(أرسل إليّ أبو بكر رضي الله عنه مقتلْ أهل اليمامة (أي عقب استشهاد الحفّاظ السبعين في معركة اليمامة) فإذا عمر جالسٌ عنده، فقال أبو بكر: إن عمر جاءني فقال: (إن القتل قد استَحَرّ (أي كثر واشتدّ) يوم اليمامة بقرّاء القرآن، وإني أخشى أن يستمرّ القتل بالقرّاء في كل المواطن فيذهب من القرآن كثير، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، فقلت: وكيف أفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال: عمر رضي الله عنه: هو واللهِ خيرٌ، فلم يزل يراجعني في ذلك حتى شرح الله تعالى صدري للذي شرح الله له صدر عمر، ورأيت في ذلك الذي رأى.. قال زيد: فقال أبو بكر إنك رجل شاب عاقل، لا نتّهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبّع القرآن وأجمعه.. قال زيد: فوالله لو كلّفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عَليّ مما أمرني به.. فقلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر.. فتتبّعت القرآن أجمعه من اللّخاف، والعُسُب، وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة

مع (أبي خزيمة الأنصاري) لم أجدها عند أحدٍ غيره ﴿لقدْ جاءكُمْ رَسُولٌ مِن أنْفُسِكُمْ..﴾ إلى ﴿وَهوَ ربّ العَرْشِ العَظِيم﴾[1] أي: إلى آخر السورة.. فكانت الصحف عند (أبي بكر) حتى توفاه الله تعالى، ثم عند (عمر) حتى توفاه الله تعالى، ثم عند (حفصه بنت عمر) رضي الله عنهم أجعين. فهذه الرواية دلّت على (سبب جمع القرآن). «رواه البخاري».

تساؤلات حول جمع القرآن:

وهنا أسئلة ينبغي الإجابة عليها بشيء من التفصيل ونحن نوجزها فيما يلي:

أولاً: لماذا تردّد (أبو بكر) عن جمع القرآن مع أنه شيء حسن وأمر يوجبه الاسلام؟

والجواب عن ذلك: أن (أبا بكر) رضي الله عنه خشي أن يتساهل الناس في استظهار القرآن وحفظه غيباً ويعتمدوا على وجوده في المصاحف فتضعف نفوسهم عن الحفظ، وتصبح رغبتهم ضعيفه في حفظه واستظهاره اعتماداً على أنه مسطّر وموجود في مصاحف مطبوعة يمكنهم قراءة القرآن بها، أما قبل أن توجد المصاحف فقد كان الجميع يسعون جهدهم لحفظ القرآن هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: فإن أبا بكر الصديق كان رجلاً وقافاً عند حدود الشرع، مقتفياً لآثار الرسول ﷺ فقد خشي أن يكون بعمله هذا مبتدعاً شيئاً لا يحبه رسول الله، ولهذا قال لعمر: (كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله)؟ ولعله كان يخاف أن يسوقه الإنساء والاختراع إلى الوقوع في المخالفة والابتداع. ولكنّه لما رأى الأمر خطيراً والفكرة ـ في حد ذاتها ـ وسيلة من أعظم الوسائل لحفظ الكتاب الشريف والمحافظة عليه من الضياع والتحريف، وأيقن أنها ليست من الأمور الخارجة ولا من البدع المنتحدثة عزم على جمع القرآن، وظلّ يقنع زيداً بذلك حتى شرح الله صدره فقام بتنفيذ ذلك الأمر الخطير والله اعلم.

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ١٢٨ ـ ١٢٩.

ثانياً: لماذا اختار أبو بكر (زيد بن ثابت) من بين الصحابة الكرام لهذا العمل الجليل؟

والجواب عن ذلك: أن زيداً رضي الله عنه قد اجتمع فيه من المواهب العظيمة التي تؤهله لجمع القرآن ما لم يجتمع في غيره من الرجال، إذ كان من حفّاظ القرآن، ومن كتّاب الوحي لرسول الله، وشهد (العَرْضة الأخيرة) للقرآن في ختام حياته ﷺ.. وكان فوق ذلك معروفاً بشدة ورعه، وعِظَم أمانته، وكمال خُلُقه، واستقامة دينه، وكان معروفاً بالنبوغ والذكاء، وهذا ما أشار إليه كلام أبي بكر في رواية البخاري حين استدعاه وقال له: (إنك رجل شاب عاقل لا نتّهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله)..

فلهذه الخصال والمزايا الحميدة اختاره أبو بكر الصديق لجمع القرآن.. ومما يدّل على شدة وَرَع زيد بن ثابت أنه قال: (فوالله لو كلّفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقلَ عليّ مما أمرني به) الحديث.

ثالثاً: ما هو المقصود من قول زيد في رواية البخاري (حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة لم أجدها عند غيره)؟.

والجواب عن ذلك: أن زيداً رضي الله عنه لم يجد هذه الآيات مكتوبةً عند أحدٍ من الصحابة إلاّ عند أبي خزيمة الأنصاري، وليس المراد أنها لم تكن محفوظة، إذ أن زيداً نفسه كان يحفظها، وكان كثير من الصحابة يحفظونها، ولكنه أراد أن يجمع بين (الحفظ والكتابة) كما سنبينه إن شاء الله زيادة في التوثق ومبالغة في الاحتياط، وعلى ذلك النهج الرشيد تمّ جمع القرآن.

الخطة الرشيدة في جمع القرآن:

وقد انتهج (زيد بن ثابت) في جمع القرآن خطةً رشيدة في غاية الدقّة والإحكام، فيها ضمان لحياطة هذا الكتاب المجيد، بما يليق به من تثبت بالغٍ، وحذرٍ دقيق، فلم يكتف بما حفظ في قلبه ولا بما كتب بيده، ولا بما سمع بأذنه، بل جعل يتتبّع ويستقصي آخذاً على نفسه أن يعتمد في جمع القرآن على مصدرين اثنين:

أ ـ ما كان محفوظاً في صدور الرجال.

ب ـ ما كُتِبَ بين يدي رسول الله ﷺ.

فلا بدّ أن يتضافر الأمران (الحفظ والكتابة) وبلغ من شدة حرصه واحتياطه أنه كان لا يقبل شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أنه كُتِبَ بين يدي رسول الله ﷺ. يدل عليه الحديث الذي رواه (أبو داود) في سننه قال: (قدم عمر فقال: من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعُسب وكان لا يقبل من أحدٍ شيئاً حتى يشهد شاهدان). ويدل عليه كذلك ما رواه أبو داود أيضاً أن أبا بكر رضي الله عنه قال لعمر، ولزيد: (اقعدا على باب المسجد فمن جاء كما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه). قال ابن حجر: المراد بالشاهدين: الحفظ، والكتابة.. وقال السخاوي المراد (أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ) وذلك غاية في التثبت والدقة والإحكام من الصدّيق رسمه منهجاً لزيد بن ثابت رضي الله عنهم أجمعين.

مزايا مصحف أبي بكر الصديق:

امتازت الصحف التي جمعت في عهد أبي بكر الصديق في (مصحف واحد) بعدة مزايا أهمها:

أولاً: التحرّي الدقيق التام، والتثبّت الكامل.

ثانياً: لم يسجّل في المصحف إلا ما ثبت عدم نسخ تلاوته.

ثالثاً: إجماع الأمة عليه، وتواتر ما سجّل فيه من الآيات القرآنية.

رابعاً: شمول المصحف للقراءات السبع التي نقلت بالنقل الثابت الصحيح.

وهذه المزايا جعلت الصحابة يلهجون بالثناء العاطر على أبي بكر الصديق حيث القرآن الكريم من الضياع، وذلك بتوفيق من الله عز وجل ومدد من عنده، وقد قال (عليّ بن أبي طالب) كرّم الله وجهه: (أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع كتاب الله). ولقد أصبح جمع القرآن منقبة

خالدة لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل والثناء العاطر لأبي بكر في التوجيه والإشراف، ولزيد بن ثابت في التنفيذ والعمل رضوان الله عليهم أجمعين. وجمع القرآن في مصحف واحد في عهد أبي بكر لا يعني أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكن لديهم مصاحف كتبوا فيها القرآن من قبل، فإن ذلك لا ينافي أن يكون لبعض الصحابة مصحف خاص، ولكن هذه المصاحف لم تظفر بما ظفر به مصحف أبي بكر من دقة البحث والتحري. والاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته، ومن بلوغه حدّ التواتر، ومن اجماع الأمة عليه، ومن شموله للأحرف السبعة (القراءاتَ السبع) كما تقدّم، فهذا (علي) رضي الله عنه كأن له مصحف خاص كتبه في بدء خلافة أبي بكر، وعزم ألاَّ يخرج إلا للصلاة حتى ينتهي من كتابته...

روى السيوطي عن (محمد بن سيرين) عن (عكرمة) أنه قال: لما كان بدء خلافة أبي بكر، قعد علي بن أبي طالب في بيته، فقيل لأبي بكر: قد كره بيعتك. فأرسل إليه فقال: أكرهتَ بيعتي؟ فقال: رأيت كتاب الله يُزاد فيه فحدثت نفسي ألاّ ألبس ردائي إلا لصلاة حتى أجمعه، قال له أبو بكر: فإنك نعم ما رأيت[1] فقد كان له مصحف ولكنه كما يروى عن ابن سيرين كان فيه الناسخ والمنسوخ فلم يكن مثل مصحف أبي بكر.

لماذا لم يجمع القرآن في مصحف واحد؟

ونتساءل هنا: لماذا لم يجمع القرآن الكريم في مصحف واحد في زمن النبي ﷺ؟ والجواب عن ذلك:

أولاً: إن القرآن لم ينزل مرة واحدة وإنما نَزَل مفرّقاً، ولا يمكن جمعه قبل أن يتكامل النزول.

ثانياً: إنّ بعض الآيات كانت تنسخ، وإذا كان القرآن عرُضَةً للنسخ فكيف يمكن أن تجمع في مصحف واحد.

---

(١) أنظر: كتاب الاتقان للسيوطي.

ثالثاً: إن ترتيب الآيات والسّور لم يكن على حساب النزول فقد تنزل بعض الآيات في أواخر الوحي بينما يكون ترتيبها في أوائل السور الكريمة وهذا يقتضي تغيير المكتوب.

رابعاً: كانت المدّة بين نزول آخر ما نزل وبين وفاته ﷺ قصيرة جداً، وقد تقدّم في الفصل الأول أن آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى ﴿**واتّقُوا يَوْماً تُرْجَعونَ فيهِ إلى الله..**﴾ [1] الآية. وقد انتقل رسول الله إلى جوار ربه بعد نزولها بتسع ليال، فالمدة إذاً قصيرة، ولا يمكن جمعه قبل تكامل النزول.

خامساً: لم يوجد من دواعي الجمع في مصحف واحد مثل ما وجد في عهد أبي بكر، فقد كان المسلمون بخير، والقرّاء كثيرون، والفتنة مأمونة، بخلاف ما حصل في عهد أبي بكر من مقتل الحفّاظ حتى خاف على ضياع القرآن.

والخلاصة: إن القرآن لو جمع في مصحف واحد والحال على ما ذكرنا لكان القرآن عرضة للتغيير والتبديل كلما وقع نسخ، أو حدث سبب، مع أن أدوات الكتابة لم تكن ميسورة. والظروف لا تساعد على ترك المصحف القديم، والأعتماد على المصحف الجديد، لأنه لا يمكن أن يكون في كل شهر أو يوم مصحف يجمع كل ما نزل من القرآن ولكنْ لما استقرّ الأمر بختام التنزيل، ووفاة الرسول، وأمِنَ النسخَ، وعرف الترتيب أمكن جمعه في مصحف واحد، وهذا ما فعله الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه وجزاه عن القرآن والمسلمين خير الجزاء.

جمع القرآن في عهد عثمان.

أما جمع القرآن في عهد عثمان فقد كان له سبب آخر غير السبب الذي حدث في عهد أبي بكر. فقد اتسعت الفتوحات الإسلامية في عهد عثمان، وتفرّق المسلمون في الأقطار والأمصار، واشتهر في كل بلدان من البلاد الإسلامية قراءة الصحابي الذي علّمهم القرآن، فأهل الشام كانوا يقرأون بقراءة (أبيّ بن كعب) واهل الكوفة كانوا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.

يقرأون بقراءة (عبد الله بن مسعود) وغيرهم كان يقرأ بقراءة (أبي موسى الأشعري)، فكان بينهم اختلاف في حروف الأداء، ووجوه القراءات، حتى كاد الأمر يصل إلى النزاع والشقاق، بينهم، وكاد بعضهم يكفّر بعضاً بسبب (اختلاف القراءة).

روي عن أبي قلابة أنه قال: (لما كانت خلافة عثمان، جعل المعلّم (المقرىء) يعلّم قراءة الرجل، والمعلّم يعلّم قراءة الرجل، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون، حتى ارتفع إلى المعلّمين، حتى كفّر بعضهم بعضاً، فبلغ ذلك عثمان فخطب فقال: أنتم عندي تختلفون، فمن نأى (أي بعد) عني من الأمصار فهم أشدّ اختلافاً). لهذه الأسباب والأحداث رأى عثمان بثاقب رأيه، وصادق نظره، أن يتدارك الخرق قبل أن يتّسع على الراقع، وأن يستأصل الداء قبل أن يصعب الدواء، فجمع أعلام الصحابة، ورجال الرأي والبصر فيهم، واستشارهم في علاج تلك الفتنة، وعلاج ذلك الاختلاف، فأجمعوا أمرهم على أن يستنسخ أمير المؤمنين مصاحف عديدة، ويبعث إلى كل بلد أو مصر بمصحف منها، وأن يأمر الناس بإحراق كل ما عداها، حتى لا يبقى ثمة طريق للنزاع والاختلاف في وجوه القراءة، فشرع - رضي الله عنه - بتنفيذ هذا القرار الحكيم، فعهد إلى أربعة من خيرة الصحابة، وثقات الحفّاظ وهم (زيد بن ثابت) و (عبد الله بن الزبير) و (سعيد بن العاص) و (عبد الرحمن بن هشام) وقد كانوا جميعاً من قريش من المهاجرين إلا (زيد بن ثابت) فقد كان من الأنصار، وكان هذا العمل الجليل سنة ٢٤ هجرية، وقال لهؤلاء إذا اختلفتم في شيء من وجوه القراءة فاكتبوه بلغة قريش، فإنّ القرآن نزل بلغتهم. وطلب عثمان من (حفصه بنت عمر) أن تعطيه المصحف الذي كان عندها، والذي جمعه أبو بكر لينسخ منه عدة نسخ ثم يعيده إليها، ففعلت.

سبب جمع عثمان للقرآن الكريم:

روى البخاري عن أنس بن مالك أنه قال::

(أن (حُذيفة بن اليمان) قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية

وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفةَ اختلافهُم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يـا أمير المؤمنين أدرك هـذه الأمـة قبـل أن يختلفـوا في الكتـاب اختلاف اليهـود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا المصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق)[1] «رواه البخاري».

الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان:

الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان: ونستطيع مما سبق أن نعرف الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان، وهو أن الجمع في عهد أبي بكر كان عبارة عن نقل القرآن وكتابته في مصحف واحد مرتب الآيات، جمعه اللخاف والعُسُب والرّقاع، وكان سبب الجمع (موت الحفّاظ)، وأما جمع عثمان فقد كان عبارة عن نسخ عدة نسخ من المصحف الذي جمع في عهد أبي بكر لترسل إلى الآفاق الإسلامية. وكان سبب الجمع إنما هو (اختلاف القرّاء) في قراءة القرآن، والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) انظر: صحيح البخاري، باب جمع القرآن.

الفَصْلُ الخَامِسُ

التَّفْسِيرُ وَالمُفَسِّرُونَ

أنزلَ اللهُ كتابه العظيم، ليكون دستوراً للمسلمين، ومنهاجاً يسيرون عليه في حياتهم، فيستضيئون بضيائه، ويهتدون بهديه، ويقبسون من تعاليمه الرشيدة، ونُظمه الحكيمة ما يجعلهم في أوج السعادة والعزّة، ويرفع بهم إلى ذُرَى المجد والكمال، ويؤهلهم إلى قيادة ركب الانسانية، ويجعلهم السادة والقادة في هذه الحياة، يسيرون بالأمم إلى حياة العزة والكرامة، ويوصلونهم إلى شاطيء الأمن والاستقرار والسلام.

ولا ريب أن البشرية تتخبط اليوم في ظلمات الشقاوة والجاهلية، وتغرق في بحار التحلّل وعبادة المال، وليس لها من منقذ إلا الإسلام، عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن ونظمه الحكيمة، التي روعيت فيها جميع عناصر السعادة للنوع البشري، على ما أحاط به علم الخالق الحكيم، ومن البَدَهي أن العمل بهذه التعاليم لا يكون إلا بعد فهم القرآن وتدبّره، والوقوف على ما حوى من نصح وإرشاد، وهذا لا يتحقق إلا عن طريق الكشف والبيان، لما تدل عليه آيات القرآن، وهو ما نسميه بـ (علم التفسير) خصوصاً في هذه العصور الأخيرة التي فسدت فيها ملكة البيان العربي، وضاعت فيها خصائص العروبة، حتى من سلائل العرب أنفسهم. فالتفسير هو المفتاح لهذه الكنوز والذخائر، التي احتواها هذا الكتاب المجيد، وبدونه لا يمكن الوصول إلى هذه الكنوز والذخائر، واللآليء والجواهر، مهما بالغ الناس في ترديد ألفاظ القرآن، وقرءوا آياته في كل صباح ومساء.

وإنه لمن المؤسف أن يكتفي المسلمون من القرآن بألفاظ يردّ دونها، وأنغام يلحّنونها، في المآتم والمقابر، وعند الاحتفالات الرسمية، ثم لا يكون للقرآن نصيب منهم إلا الطرب بالسماع أو التبرك بالتلاوة، وهذا ما عناه الرسول ﷺ بقوله « يتّخذون القرآن مزامير » وقد نسي المسلمون أو تناسوا أن بركة القرآن العظمى إنما هي في تدبره وتفهمه، وفي الاهتداء بهديه، والاستفادة من تعاليمه وتوجيهاته، ثم الوقوف عند أوامره ومراضيه، والبعد عن مساخطه ونواهيه، والله تعالى يقول: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [1] ويقول سبحانه ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ؟ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [2] ويقول جلّ ذكره: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ، فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ؟ ﴾ [3].

فما أشبه المسلمين اليوم بالرجل العطشان يموت من الظمأ والماء بين يديه، أو بالحيوان يهلك من الجوع والعطش والزاد والماء على ظهره، وما أجمل قول القائل:

كالعِيس في البَيْداء يقتلها الظمَا ... والماءُ فوق ظهورها محمولُ

ولقد صدق رسول الله ﷺ حين قال:

« لقد تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ما تمسكتم بهما بعدي أبداً، كتاب الله، وسنتي » [4].

لماذا نفسّر القرآن؟

أسئلة تخطر ببال كل إنسان.. وتجول في كل فكر « لماذا نفسّر القرآن »؟ ألنجيد قراءته، ونتقن تلاوته؟

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٩.

(٢) سورة محمد، الآية: ٢٤.

(٣) سورة القمر، الآية: ١٧، والآية: ٢٢، والآية: ٣٢.

(٤) الحديث رواه أصحاب السنن.

أم لنزيل الستار عن غامض معانيه؟
أم لنجلو أسرازه، ونبرز محاسنه؟

لا .. لا .. ليس لهذا، ولا لذاك فقط، بل لنتحرر من عبادة العباد، وتبعية البشر، إلى عبادة رب العباد جلّ وعلا .. ونربط الفرد والجماعة بخالق العوالم، ومدبّر الكون، ربّ السموات العُلَى، وربّ العرش العظيم!!

فالقرآن الكريم دستور الأمة، وهداية الخالق، وشريعة الله لأهل الأرض، وهو النور الرباني، والهدي السماوي، والتشريع العام الخالد، الذي تكفّل بكل ما يحتاج إليه البشر في أمور دينهم ودنياهم. ولا عجب فهو كتاب كامل، ونظام شامل، يشمل جوانب الحياة بأجمعها، في العقائد. والعبادات. والأخلاق. والمعاملات. وفي السياسة والحكم وفي السِّلْم والحرب. وفي الشئون الاقتصادية والعلاقات الدولية. فهو كتاب جامع أنزله الله تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون، وهو في ذلك كله حكيم كل الحكمة، لا يعتريه خلل ولا اختلاف، فلا عجب أن كانت السعادة لا تنال إلا بهديه، والتزام ما جاء به، فهو شفاء لما في الصدور، وعلاج لما حلّ أو يحلّ بالمجتمع من شرور. **﴿وننزّل مِنَ القُرآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ للمُؤمِنِينَ، ولا يزيد الظّالمين إلاّ خساراً﴾**.[1]

الفرق بين التفسير والتأويل:

التفسير في اللغة هو: الإيضاح والتبيين. قال تعالى **﴿وَلا يَأتونَكَ بِمَثَلٍ إلاّ جِئْنَاكَ بالحقّ وأحْسَنَ تَفْسِيرَاً﴾**[2]، فقولنا: فسّر بمعنى: بيّن ووضّح، وكلام مفسّر: أي واضح ظاهر. وأما التفسير في الاصطلاح فهو: علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيّه محمد ﷺ، وبيان معانيه، وإستخراج أحكامه وحكمه[3]. وعرّفه غيره بأنه

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٣.
(٣) التعريف للزركشي من كتاب البرهان ص ١٣.

(علمٌ يُبْحثُ فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مزاد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية[1].

معنىَ التأويل:

وأما التأويل فهو لغةً من الأول بمعنى الرجوع، فكأن المفسّر أرجع الآية إلى ما يحتمله من المعاني. ويرى بعض العلماء أن التأويل مرادف للتفسير حتى قال صاحب القاموس: أوّل الكلام تأويلاً، وتأوّله بمعنى: دبّره وقدره وفسّره، ومنه قوله تعالى ﴿ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تأويلِهِ﴾[2] أما في الاصطلاح فهو عند المتقدمين بمعنى التفسير، فيقال تفسير القرآن، ويقال تأويل القرآن، بمعنى واحد. قال (ابن جرير الطبري) في تفسيره: (القولُ في تأويل قوله تعالى كذا.. واختلف أهل التأويل في هذه الآية...) يريد بذلك أهل التفسير.

وقال (مجاهد): إن العلماء يعملون تأويله (يعني القرآن) ويريد تفسير معناه. وذهب فريق من العلماء إلى أن بين (التفسير والتأويل) فرقاً جلياً وقد اشتهر هذا عند المتأخرين.

التفسير: هو المعنى الظاهر من الآية الكريمة.

وأما التأويل: فهو ترجيح بعض المعاني المحتملة من الآية الكريمة التي تحتمل عدة معان. وقد أفاض العلامة (السيوطي) في كتابه (الاتقان في علوم القرآن) في هذا البحث ونقل نقولاً كثيرة عن العلماء نكتفي بأجمعها وأقربها إلى الصواب وهو أن نقول (بأن التفسير هو كشف معاني القرآن الظاهرة، والتأويل ما استنبطه العارفون من المعاني الخفية والاسرار الربانية اللطيفة التي تحملها الآية الكريمة). وهذا الذي اخترناه هو الذي ذهب اليه (الألوسي) رحمه الله حيث قال:

(قد تعورف عن المؤلفين من غير نكير أن التأويل معانٍ قدسية، ومعارف ربانية

---

(١) انظر: مناهل العرفان للزرقاني.

(٢) سورة آل عمران، جزء من الآية: ٧.

تنهل من سحب الغيب على قلوب العارفين، والتفسير غير ذلك..)

والخلاصة: أن التفسير هو المعاني الظاهرة من القرآن الكريم التي هي واضحة الدلالة على المعنى المراد لله عز وجل. والتأويل؛ هو المعاني الخفية التي تستنبط من الآيات الكريمة والتي تحتاج إلى تأمل وتفكر واستنباط والتي تحتمل عدة معانٍ فيرجّح المفسّر منها ما كان أقوى عن طريق النظر والاستدلال، وليس هذا الترجيح بقطعي بل هو ترجيح للأظهر والأقوى إذ الحكم بأنه المراد القطعي تحكم في كتاب الله، والله تعالى يقول ﴿**وما يعلم تأويله إلاّ الله..**﴾ [1] الآية. والله أعلم.

أقسام التفسير

يقسم التفسير حسب الاصطلاح العلمي الدقيق إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: (التفسير بالرواية)، وهذا الذي يسمّى التفسير بالنقل أو التفسير بالمأثور.

ثانياً: (التفسير بالدراية) وهذا الذي يسمّى التفسير بالرأي.

ثالثاً: (التفسير بالإشارة) وهو الذي يسميه العلماء (التفسير الإشاري)

وسنتحدث عن كل قسمٍ من هذه الأقسام بالتفصيل إن شاء الله ونوضّح السليم من

القسم الأول

التفسير بالرّواية

هو ما جاء في القرآن، أو السنة، أو كلام الصحابة، بياناً لمراد الله تعالى تفسير القرآن بالسنة النبوية، فالتفسير المأثور إما أن يكون تفسير القرآن بالقرآن، أو تفسير القرآن بالسنة النبوية أو تفسير القرآن بالمأثور عن الصحابة.

أ ـ مثال ما جاء تفسيره في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**أُحِلّت لَكُمْ بهيمةُ الأنعامِ إلا ما يُتْلى علَيْكُم..**﴾ [2]. فقد جاء تفسير قوله ﴿**إلاّ ما يُتْلى علَيْكُم**﴾

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١.

في آية كريمة أخرى هي قوله تعالى ﴿**حُرِّمَت عَلَيْكُمُ المَيْتَةُ والدّم ولحم الخنْزِير ومَا أُهِلَّ لِغَيرِ اللهِ به..**﴾[1] الآية. وكذلك قوله تعالى: ﴿**والسَّمَاء والطَّارِق**﴾[2] جاء تفسير الطارق في نفس السورة ﴿**النجم الثاقب**﴾[3] وكذلك قوله تعالى ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّه كلماتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ**﴾[4]. الآية. جاء تفسير الكلمات التي تلقاها آدم في موطن آخر من القرآن، وهي قوله تعالى ﴿**قَالا رَبَّنا ظَلَمْنَا أنفُسَنَا وإنْ لم تَغْفِرْ لَنَا وتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرينَ**﴾[5].

ومن الأمثلة أيضاً على تفسير القرآن بالقرآن قوله تعالى ﴿**إنَّا نزَلْنَاه في لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ**﴾[6] جاء تفسير الليلة المباركة بأنها ليلة القدر في قوله جلّ ذكره ﴿**إنَّا أنزَلْنَاهُ في لَيْلَةِ القَدْرِ**﴾[7] إلى آخر ما هنالك.

ب ـ ومثال ما جاء في السنة المطهرة تفسيراً وشرحاً للقرآن أنه ﷺ فسّر الظلم بالشرك في قوله سبحانه ﴿**الذينَ آمنُوا ولَمْ يَلْبسُوا إيمانَهم بظلم، أولئِكَ لَهُمُ الأمْنُ وهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾[8] وأيد تفسيره هذا بقوله تعالى ﴿**إن الشّرْكَ لظُلْمٌ عَظيمٌ**﴾[9].

وفسر ﷺ الحساب اليسير بـ (العَرْض) أي عرض الأعمال على المؤمن وتذكيره بها فقط وذلك حين قال: «من نوقش الحساب عُذّب» فقالت السيدة عائشة له: يا رسول الله أو ليس قد قال الله تعالى ﴿**فأما مَنْ أُتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ★ فَسَوفَ**

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) سورة الطارق، الآية: ١.

(٣) سورة الطارق، الآية: ٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٣٧.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.

(٦) سورة الدخان، الآية: ٣.

(٧) سورة القدر، الآية: ١.

(٨) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

(٩) سورة لقمان، الآية: ١٣.

يحاسَبُ حِساباً يَسيراً * وَيَنْقَلِبُ إلى أهله مَسْروراً﴾[١] فقال ﷺ «ذلك العَرْض» (بياناً للحساب اليسير) وأما من نوقش الحساب عذّب. وكتفسيره ﷺ الصلاة الوسطى في قوله تعالى ﴿حَافِظوا عَلى الصَّلَوات والصَّلاةِ الوُسْطى﴾[٢] بأنها صلاة العصر.. وتفسير المغضوب عليهم، والضالين في سورة الفاتحة باليهود والنصارى، ومن الأمثلة أيضاً على تفسير النبي ﷺ للآيات الكريمة تفسيره الزيادة في قوله تعالى ﴿للذين أحْسَنُوا الحُسْنى وزيادَة..﴾[٣] الآية. فقد فسّرها بأنها النظر إلى وجه الله الكريم، وكتفسيره ﷺ القوة (بالرمي) في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدّوا لهم ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّة﴾[٤] فقد قال ﷺ ألا إن القوة الرميُ، ألا إن القوة الرمي. وكتفسير قوله تعالى ﴿يومئذٍ تُحدِّثُ أخْبارَها﴾[٥] قال ﷺ: «أتدرون ما أخبارها»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها»، تقول: عملت يوم كذا وكذا، وأمثال هذه التفاسير كثير، وقد جمع (السيوطي) في كتابه (الاتقان في علوم القرآن) طائفة كبيرة من التفاسير النبوية فليرجع إليه.

وكلا هذين القسمين (تفسير القرآن بالقرآن) وتفسير (القرآن بالسنة) لا شك في أنه أعلى أنواع التفسير، ولا شك في قبوله، أما الأول فلأن الله تعالى أعلم بمراد نفسه من غيره، وكتاب الله تعالى أصدق الحديث لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وأما الثاني. فلأنّ الرسول ﷺ قد بيّن مهمتّه القرآنُ، وذكر أنها مهمة التوضيح والبيان ﴿وأنْزَلْنا إلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ للنّاسِ ما نُزِّلَ إلَيْهِمْ.﴾[٦] الآية. فما جاء عن رسول الله ﷺ من شرح أو بيان بسندٍ صحيح ثابت فإنه مما لا شك في أنه حق يجب اعتماده.

---

(١) سورة الأنشقاق، الآية: ٧ - ٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

(٣) سورة يونس، الآية: ٢٦.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٦٠

(٥) سورة الزلزلة، الآية: ٤.

(٦) سورة النحل، الآية: ٤٤

ج - تفسير الصحابة:

بقي القسم الثالث من أقسام التفسير المأثور ألا وهو (تفسير الصحابة) فإنه أيضاً من التفسير المعتمد المقبول، لأن الصحابة رضوان الله عليهم قد اجتمعوا بالرسول ﷺ ونهلوا من معينه الصافي، وشاهدوا الوحي والتنزيل، وعرفوا أسباب النزول، ولهم من صفاء نفوسهم، وسلامه فطرتهم، وعلوّ منزلتهم في الفصاحة والبيان، ما يؤهلهم من الفهم الصحيح السليم لكلام الله، ومايجعلهم يدركون أسرار هذا القرآن أكثر من أيّ إنسان.

قال الحاكم:(إن تفسير الصحابي الدي شهد الوحي والتنزيل له حكم المرفوع) ومعنى هذا أن تفسير الصحابي له حكم الحديث النبوي الذي رفع إلى النبي ﷺ فهو إذاً من المأثور.

وأما التابعي: فقد اختلف في تفسيره، فذهب بعض العلماء إلى أنه من المأثور لأنه تلقّاه من الصحابة غالباً، ومنهم من قال إنه من التفسير بالرأي، أي له حكم بقيّة المفسّرين فسّروا حسب قواعد اللغة العربية دون التزام للمأثور.

ملاحظة: التفسير بالمأثور من أجود أنواع التفسير إذا صحّ سنده إلى الرسول ﷺ أو إلى الصحابة. وينبغي التثبت من الرواية عند ذكر التفسير بالمأثور.. قال الحافظ (ابن كثير) رحمه الله: إن أكثر التفسير المأثور قد سري إلى الرواة من زنادقة اليهود والفرس، ومسلمة أهل الكتاب، وجلّ ذلك في قصص الرسل مع أقوامهم، وما يتعلق بكتبهم ومعجزاتهم، وفي تاريخ غيرهم كأصحاب الكهف.. الخ. فينبغي إذاً التثبت من الرواية.

أسباب ضعف الرواية بالمأثور:

ذكرنا فيما تقدم أن تفسير بعض القرآن ببعض، وتفسير القرآن بالسنةالصحيحة المرفوعة إلى النبي ﷺ لا شك في قبوله ولا خلاف في أنه من أعلى مراتب التفسير، وأما تفسير القرآن بالمأثور عن الصحابة والتابعين فإنه يتطرق إليه الضعف من وجوه:

أولاً: اختلاط الصحيح بغير الصحيح، ونقل كثير من الأقوال المنسوبة إلى

الصحابة أو التابعين من غير إسنادٍ ولا تثبت، مما أدّى إلى التباس الحق بالباطل.

ثانياً: أن تلك الروايات مليئة (بالإسرائيليات) ومنها كثير من الخرافات التي تصادم العقيدة الإسلامية، والتي قام الدليل على بطلانها، وهي مما دخل على المسلمين من أهل الكتاب.

ثالثاً: أن بعض أصحاب المذاهب المتطرفة لفّقوا أقوالاً، وصنعوا أباطيل نسبوها إلى بعض الصحابة مثل (الشيعة) شيعة علي المتطرّفين نسبوا إليه ما هو منه بريء، ومثل أولئك المتزلّفين للعباسيين نسبوا إلى (ابن عباس) ما لم يصحّ نسبته اليه، تملقاً للحكام.

رابعاً: أن بعض الزنادقة من أعداء الإسلام دسّوا على الصحابة والتابعين كما دسّوا على رسول الله ﷺ في الأحاديث النبوية، وذلك بفرض هدم الدين عن طريق (الدسّ والوضع) فمن هذه الناحية ينبغي الاحتياط والتثبيت والحذر من الأقوال التي تنسب إلى الصحابة الكرام أو التابعين[1].

رأي الزرقاني في مناهل العرفان:

وقد ذكر الأستاذ (الزرقاني) في كتابه مناهل العرفان كلاماً حسناً حول التفسير بالمأثور بعد أن ذكر نقولاً عن الإمام أحمد رحمه الله، وعن ابن تيمية رحمه الله فقال:

(وكلمة الانصاف في هذا الموضوع أن التفسير بالمأثور نوعان:

أحدهما: ما توافرت الادلة على صحته وقبوله، وهذا لا يليق بأحدٍ ردّه، ولا يجوز إهماله وإغفاله، ولا يجمل أن نعتبره من الصوارف عن هدي القرآن، بل هو على العكس عامل من أقوى العوامل على الاهتداء بالقرآن.

ثانيهما: ما لم يصحّ لسبب من الأسباب الآنفة أو غيرها، وهذا يجب ردّه ولا يجوز قبوله ولا الاشتغال به، ولا يزال كثير من أيقاظ المفسرين كابن كثير يتحرّون الصحة فيما ينقلون، ويزيّفون ما هو باطل أو ضعيف).

---

(١) أنظر كتاب (مناهل العرفان) للزرقاني ص ٤٩١.

أشهر المفسرين من الصحابة:

قال السيوطي في (الإتقان): (اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير... أما الخلفاء فأكثر من رُوِيَ عنه فهم: (علي بن أبي طالب) كرّم الله وجهه، والرواية عن الثلاثة قليلة جداً، وكأن السبَبَ في ذلك تقدّم وفاتهم) انتهى.

وأما السبب في قلة الرواية عن الثلاثة (أبي بكر وعمر وعثمان) فإنما يرجع كما نبّه إليه السيوطي إلى قصر مدة خلافتهم وتقدم وفاتهم، ومن ناحية أخرى فإنهم قد عاشوا في وسط أغلبُ أهله كانوا علماء بكتاب الله، لأنهم صاحبوا الرسول ﷺ، فكانوا واقفين على أسرار التنزيل عارفين بمعانيه وأحكامه، أما (علي) رضي الله عنه فقد عاش بعد الخلفاء الثلاثة في وقت اتسعت فيه رقعة الإسلام، ودخل كثير من العجم في الدين الجديد، ونشأ جيل من أبناء الصحابة كانوا بحاجة إلى دراسة القرآن، وتفهّم أسراره وحِكَمِه، ولذلك اشتهرت الرواية عنه أكثر من بقية الخلفاء الراشدين.. وسنتكلم بشيء من التفصيل عن بعض هؤلاء الصحابة الذين اشتهروا بتفسير القرآن.

١ ـ عبد الله بن عباس:

عبد الله بن العباس رضي الله عنهما حَبْر هذه الأمة، وهو ابن عم رسول الله ﷺ الذي دعا له الرسول الكريم بقوله: «اللهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل» وهو المسمّى بـ(ترجمان القرآن). قال عبد الله بن مسعود: (نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس). كان أعلم الصحابة بتفسير القرآن الكريم، وقد شهد له بالفضل ـ وهو شاب في عنفوان الصبا ـ كبار الصحابة حتى كان ينافسهم وينتزع إعجابهم مع حداثة سنّه، وكان عمر رضي الله عنه يدخله إلى مجلس الشورى مع كبار الصحابة الأجلاء يستشيرهم، وربما عرض الأمر عليه، وكان تقدير عمر لابن عباس مثار جدل عند بعض الصحابة، حتى قال بعضهم: لم يدخل هذا الشاب معنا وعندنا من الأولاد من هو أكبر منه سناً.. وله قصة رواها البخاري في صحيحه تدل على غزارة علمه، وعلو شأنه في الغوص على دقائق أسرار القرآن.

رواية البخاري:

روى البخاري من طريق (سعيد بن جبير) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كـان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأنّ بعضهم وجد في نفسه، فقالوا: لم يدخل هذا معنا وإنّ لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن علمتم (يعني إنه من عزفتم ذكاءه وعلمه)، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلاّ ليريهم.! فقال: ما تقولون في قول الله تعالى ﴿إذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ﴾[1].. فقال بعضهم: أُمِرْنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: إذا جاء نصر الله والفتح، فذلك علامة أجلك، فسبّح بحمدِ رَبّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إنّهُ كانَ تَوّاباً، فقال عمر: والله لا أعلم منها إلا ما تقول[2]. فهذه القصة تدلّ على مدى قوة فهمه، ودقة رأيه في استنباط الإرشادات القرآنية التي لا يدركها إلا الرّاسخون في العلم.. ولا عجب أن ينال ابن عباس تلك الرتبة الرفيعة في فهم أسرار القرآن، فقد دعا له الرسول ﷺ بالفهم والفقه في الدين كما روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضمّني رسول الله إلى صدره وقال: «اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل»، وفي رواية «اللهم علّمه الحكمة».. وكان (ابن عباس) يسمى البحر لكثرة علمه.

روى أن رجلاً أتى (عبد الله بن عمر) يسأله عن السموات والأرض (كانتا رتقاً ففتقناهما)[3]، فقال: اذهب إلى ابن عباس فاسأله ثم تعال فأخبرني! فذهب فسأله فقال: كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات، فرجع إلى ابن عمر فأخبره فقال: قد كنت أقول ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه أوتي علماً.

---

(١) سورة النصر، الآية: ١.

(٢) أنظر: صحيح البخاري، باب فضائل الصحابة.

(٣) سورة الأنبياء جزء من الآية: ٣٠.

وروي أنَّ عمر بن الخطاب قال يوماً لأصحاب النبي ﷺ فيمن ترون هذه الآية نزلت ﴿أيَوَدّ أحدُكُمْ أنْ تَكُونَ لَهُ جَنّةٌ مِنْ نَخيل وأعناب..﴾[1] الآية. قالوا: الله أعلم فغضب عمر، فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء فقال: يا ابن أخي قُلْ ولا تحقِرْ نفسك!! قال ابن عباس: ضُرِبَتْ مثلاً لعمل، فقال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غني يعمل بطاعة الله ثم بعث له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله. «رواه البخاري».

كل هذا وأمثاله كثير يدل على مبلغ علم ابن عباس وفهمه الثاقب منذ حداثة سنّه، ولهذا أصبح في مصاف كبار شيوخ الصحابة، وأصبح يدعى حَبْر الأمة بشهادة الصحابة أنفسهم.

شيوخ ابن عباس:

ومن شيوخ ابن عباس الذين استقى منهم علومه بعد رسول الله ﷺ، وكان لهم أبرز الأثر في توجيهه وثقافته (عمر بن الخطاب، وأبي بن كعب، وعليّ بن أبي طالب، وزيد بن ثابت) وهؤلاء الخمسة هم أهم شيوخه الذين أخذ عنهم أكثر علمه وتلقى منهم معظم ثقافته، وكان لهم أثر في توجيهه تلك الوجهة العلمية الدقيقة.

تلامذة ابن عباس:

تلقىّ العلم عن ابن عباس عدد كبير من التابعين كان من أشهرهم تلامذته المشهورون الذين نقلوا تفسيره وعلمه الغزير وهم: (سعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر الخزرمي، وطاووس بن كيسان اليماني، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح) وهؤلاء هم أظهر تلامذته الذين نقلوا مدرسة ابن عباس في التفسير إلينا رضي الله عنه جميعاً.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٦.

٢ ـ عبد الله بن مسعود:

ومن أعلام الصحابة الذين اشتهروا بالتفسير. ونقلوا لنا آثار الرسول وأقواله (عبد الله بن مسعود) رضي الله عنه، فقد كان من السابقين إلى الإسلام، وكان سادس ستة ما على وجه الأرض مسلم سواهم، وكان خادم رسول الله ﷺ يُلْبِسه نعليه، ويمشي معه وأمامه، فكان له من هذه الصلة النبوية خير مثقّف ومؤدب، لذلك عدّوه من أعلم الصحابة بكتاب الله، ومعرفة محكمه ومتشابهه، وحلاله وحرامه، قال السيوطي. قد روي عن ابن مسعود في التفسير أكثر مما روي عن عليّ كرّم الله وجهه. روى الشيخان عنه أنه قال: (والذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله تعالى إلا وأنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله تعالى إلا وأنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الابل لركبت إليه..) روى عنه كثير من التابعين.

الفصل السادس

المفسرون من التابعين

إذا ذكر المفسرون من التابعين فإنهم يعتبرون كثرة كثيرة، ويعدون في العدد أكثر من الصحابة، ذلك لأنّ الذين اشتهروا بالتفسير من الصحابة لا يزيدون على عشرة ـ كما ذكر ذلك السيوطي في كتابه الإتقان ـ وقد تقدّم معنا أسماؤهم، وذكرنا نبذة عن ترجمة مشاهيرهم، أما التابعون فقد كثر فيهم المفسّرون، واشتهروا شهرة واسعة، ونبغ فيهم رجال أفذاذ، اعتنوا عناية كبيرة بتفسير كتاب الله تعالى، وعنهم نقل المفسرون معظم الآراء، وقد انقسموا إلى طبقات ثلاث:

١ ـ طبقة أهل مكة.
٢ ـ طبقة أهل المدينة.
٣ ـ طبقة أهل العراق.

١ ـ **أما الطبقة الأولى**: وهي طبقة أهل مكة، فقد أخذوا علومهم، من شيخ المفسرين، وترجمان القرآن، سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه وأرضاه، وقد نقل السيوطي عن ابن تيمية رحمه الله أنه قال: (أعلم الناس بالتفسير أهل مكة، لأنهم أصحاب عبد الله بن عباس). وقد اشتهر فيهم عدد كبير، وظهر فيهم رجال أفذاذ، على رأسهم (مجاهد، وعطاء، وعكرمة، وطاووس وسعيد بن جبير) وسنعرض بترجمة موجزة لحياة هؤلاء العلماء الاعلام.

(مجاهد بن جبر)

أما مجاهد: فقد ولد سنة ٢١ وتوفي سنة ١٠٣ هجرية، وهو مجاهد بن جبر، وكنيته (أبو الحجّاج) المكي كان من أشهر العلماء في التفسير، قال عنه الذهبي: « شيخ القراء والمفسرين بلا مراء، أخذ التفسير عن ابن عباس »[1].

وكان من أخص تلامذته، ومن أوثق من روى عنه، ولهذا يعتمد البخاري كثيراً على تفسيره كما يعتمد كثير من المفسرين على روايته، تنقل في الأسفار، واستقر في الكوفة، وكان لا يسمع بأعجوبة إلاّ ذهب فنظر إليها.

تلقى مجاهد تفسير كتاب الله عن شيخه الجليل (ابن عباس) وقرأه عليه قراءة تفهم وتدبّر، ووقوفٍ عند كل آية من آيات القرآن، يسأله عن معناها، ويستفسره عن أسرارها، روى الفضيل بن ميمون عن مجاهد أنه قال:

« عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضت، أقف عند كل آية منه أسألهٰ عنها: فيما أنزلت؟ وكيف أنزلت »؟.

وهذا العرض من (مجاهد) رضي الله عنه على شيخه الجليل إنما كان طلباً لتفسيره ومعرفة أسراره ودقائقه، وتفهم حكمه وأحكامه، ولهذا قال الإمام النووي رحمه الله:

« إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به » أي يكفي هذا التفسير ويغني عن غيره من التفاسير إذا كان راويه الإمام مجاهد.

(عطاء بن أبي رباح)

وأما عطاء بن أبي رباح: فقد ولد سنة ٢٧ هجرية وتوفي سنة ١١٤ هجرية نشأ بمكة وكان مفتي أهلها ومحدثهم، وهو تابعي من أجلاّء الفقهاء، وكان ثبتاً ثقةً في الرواية عن ابن عباس[2].

---

(١) أنظر الأعلام، ج ٦، ص ١٦١.

(٢) الأعلام للزركلي، ج ٥، ص ٢٩.

قال عنه الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان: ما لقيت أحداً أفضل من عطاء بن أبي رباح.

وقال قتادة: أعلم التابعين أربعة: عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وسعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير.. الخ.

توفي رضي الله عنه بمكة ودفن فيها عن (٨٧) سبع وثمانين سنة.

(عكرمة مولى ابن عباس)

وأما عكرمة: فقد ولد سنة ٢٥ هجرية وتوفي سنة ١٠٥ هجرية قال عنه الإمام الشافعي رحمه الله: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة. وهو مولى ابن عباس رضي الله عنه، تلقىَّ علمه على ابن عباس، وأخذ عنه القرآن والسنّة، وكان رضي الله عنه يقول: لقد فسّرت ما بين اللوحين[1] وكل شيء أحدثكم في القرآن فهو عن ابن عباس.

جاء في تعريفه في كتاب الأعلام ما يلي:

«عكرمة بن عبد الله البربري المدني، أبو عبد الله، مولى عبد الله بن عباس، تابعي، كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي، طاف البلدان، وروى عنه زهاء ثلاثمائة رجل، منهم أكثر من سبعين تابعياً، وخرج إلى بلاد المغرب، فأخذ عن أهلها ثم عاد إلى المدينة المنورة، فطلبه أميرها فتغيّب عنه حتى مات، وكانت وفاته بالمدينة هو والشاعر المشهور (كثيّر عزّة) في يوم واحد فقيل: مات أعلم الناس، وأشعر الناس[2].

(طاووس بن كيسان اليماني)

وأما طاووس: فقد ولد سنة ٣٣ هجرية وتوفي سنة ١٠٦ هجرية: وهو (طاووس بن كيسان اليماني) اشتهر بتفسير كتاب الله تعالى، وكان آية في الحفظ

---

(١) يريد باللوحين: ما بين دفتي المصحف.

(٢) الأعلام للزركلي ج ٥، ص ٤٣

والنبوغ والذكاء، وآية في الورع والتقشف والصلاح، أدرك من الصحابة نحو (٥٠) خمسين صحابياً، وتلقى العلم عنه خلق كثير، وقد كان عابداً زاهداً، ورد أنه حجّ بيت الله الحرام أربعين مرة، وكان مستجاب الدعوة، قال فيه ابن عباس: إني لأظنّ طاووسا من أهل الجنة.

جاء في تعريفه في كتاب الأعلام ما يلي:

« طاووس بن كيسان الخولاني الهمداني، أبو عبد الرحمن، من أكابر التابعين تفقهاً في الدين، ورواية للحديث، وتقشفاً في العيش، وجرأة على وعظ الخلفاء والملوك، أصله من الفرس، ومولده ومنشأه باليمن توفي حاجاً بالمزدلفة، وكان (هشام بن عبد الملك) حاجاً تلك السنة فصلّى عليه وكان يأبى القرب من الملوك والأمراء، قال ابن عيينة: « متجنبو السلطان ثلاثة: أبو ذرّ، وطاووس، والثوري »[1].

(سعيد بن جبير)

وأما سعيد بن جبير: فقد ولد سنة ٤٥ هجرية وتوفي سنة ٩٤ هجرية، وهو من أكابر التابعين علماً وورعاً، وقد اشتهر بتفسير كتاب الله عزّ وجل وكان طوداً شامخاً، وعلماً لامعاً، تناقل علمه الرجال، وسرت بذكره الركبان وقد قال (سفيان الثوري): خذوا التفسير عن أربعة: عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، والضحّاك، وقال (قتادة): كان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير[2].

كان آية في الحفظ، يحفظ ما يسمع، وقد شهد له ابن عباس بالحفظ حتّى قال له: « انظر كيف تحدّث عني فإنك قد حفظت عني حديثاً كثيراً ».

وكان ابن عباس بعد أن فقد بصره إذا أتاه أهل الكوفة يسألونه قال: تسألوني وفيكم ابن أمّ دهماء، يعني (سعيد بن جبير) رضي الله عنه.

---

(١) الأعلام، ج ٣، ص ٣٢٢.

(٢) انظر: الأتقان: ص ١٨٩.

وقد كان عابداً زاهداً ، يختم القرآن في كلّ ليلتين ، وقد قرأ ذات مرة القرآن كلّه في ركعة واحدة في الكعبة .

وجاء في ترجمته في الأعلام ما يلي : « سعيد بن جبير الاسدي الكوفي ، أبو عبد الله تابعي ، كان أعلمهم على الإطلاق ، وهو حبشي الأصل ، أخذ العلم عن ابن عباس وابن عمر ، ولما خرج عبد الرحمن بن الأشعث على عبد الملك بن مروان ، كان سعيد بن جبير معه ، فلما قتل عبد الرحمن ذهب سعيد إلى مكة ، فقبض عليه واليها (خالد القسري) وأرسله إلى الحجاج فقتله ، وكان الحجاج يخاطبه (بشقيّ بن كسير) بدل سعيد بن جبير .

قال أحمد بن حنبل : « قتل الحجّاجُ سعيداً ، وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى عمله » .

وروي أن الحجّاج لما أراد قتله أمر الجلاد أن ينطلق به فيضرب عنقه ، فقال له سعيد : دعني أصلي ركعتين ، قال الحجّاج ماذا يقول؟ قال : يريد الصلاة ، فأبى إلا أن يصلي إلى المشرق - قبلة النصارى - ثمّ أمر أن تضرب عنقه ووجهه موجّه إلى غير القبلة ، فأداروا وجهه فقال سعيد عندئذٍ : ﴿ **فأينما تولوا فثمّ وجه الله** ﴾ [١] ثمّ ضربت عنقه وهو يردّد : لا إله إلاّ الله محمد رسول الله ، وذهبت نفسه البريئة الطاهرة إلى ربها تشكو إليه ظلم الحجّاج ، وجاد بأنفاسه في سبيل عقيدته ودينه ، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته » [٢] .

٢ - طبقة أهل المدينة :

وقد أشتهر منهم عدد ، على رأسهم (محمد بن كعب القرظي ، وأبو العالية الرياحي ، وزيد بن أسلم) رضي الله عنهم جميعاً .

ونحن نتحدث عن هؤلاء الثلاثة الذين اشتهروا بالتفسير من أهل المدينة المنوّرة

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١١٥ .

(٢) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٦ ص ٢٥٧ .

والذين كان لهم اثر عظيم في نقل علوم الصحابة، سواءٌ كان ذلك في الفقه او الحديث أو التفسير، وإن كان هناك غيرهم ممن اشتهروا من التابعين ولكنّ شهرة هؤلاء كانت أوسع، وأثرهم كان أظهر.

(محمد بن كعب القرظي)

جاء في تهذيب التهذيب للعسقلاني في ترجمته ما يلي:

« هو محمد بن كعب القرظي، أبو حمزة المدني، من حلفاء الأوس، سكن الكوفة ثم المدينة، روى عن جمع غفير من الصحابة وخاصة عن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود.

قال ابن سعد: كان ثقة عالماً كثير الحديث، ورعاً صالحاً.

قال عون بن عبد الله: ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن منه.

ويذكر البخاري في سبب تسميته بـ (القرظي) أنّ أباه كان ممن لم ينبت يوم قريظة فترك، وذلك أن النبي ﷺ قتل الرجال من بني قريظة حينما خانوا العهود وغدروا بالرسول، فأمر بقتل مقاتلتهم وترك الأطفال والصبيان والنساء. وقد كان من أفاضل أهل المدينة علماً وفقهاً، وكان يحدّث في المسجد فسقط عليه السقف وعلى أصحابه، فمات تحت الهدم، وكان ذلك سنة ١١٧ هجرية رضي الله عنه وأرضاه[١]

(أبو العالية الرياحي)

اسمه رفيع بن مهران، وكنيته أبو العالية، وهو مولى أمرأة من بني رياح وهو تابعي ثقة من أهل البصرة، اشتهر بالفقه والتفسير، رأى أبا بكر وقرأ القرآن على (أبي بن كعب) وغيره، وسمع من عمر، وابن مسعود، وعلي وعائشة، وغيرهم.

روي عنه أنه قال: قرأت القرآن بعد وفاة نبيّكم بعشر بسنين. وكان منذ حداثة

---

(١) أنظر: تهذيب التهذيب. ج ٥، ص ٤٢١.

سنّه راغباً في العلم، مكبّاً على طلبه، حتى نبغ فيه وفاق الأقران وخاصة في التفسير، وقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه على سريره وقريش أسفل منه، ويقول: هكذا العلم يزيد الشريف شرفاً، ويجلس المملوك على الأسرّة، مات سنة ٩٣ هجرية عن عمر يناهز الثمانين رضي الله عنه وأرضاه.

(زيد بن أسلم)

هو زيد بن أسلم العدوي العمري، يكنى (أبا أسامة) وهو فقيه محدث من أهل المدينة، كان مع عمر بن عبد العزيز أيام خلافته، واستقدمه الوليد بن يزيد في جماعة من فقهاء المدينة إلى دمشق مستفتياً في أمر، وكان ثقة كثير الحديث له حلقة في المسجد النبوي، وله كتاب في التفسير رواه عنه ولده (عبد الرحمن) وقد كان رجلاً مهيباً، قال ابن عجلان: «ما هبت أحداً قطّ هيبتي لزيد بن أسلم». وحدّث ذات يوم بحديث ولم يسنده، فسأله رجل يا أبا أسامة عمّن هذا؟ فقال: يا ابن أخي ما كنّا نجالس السّفهاء.

وكان له حلقة كبيرة في المسجد النبوي الشريف، وكان (علي بن الحسين) يجلس إليه فيستمع له ويترك مجالس قومه، فقيل له في ذلك: تترك مجالس قومك إلى عبد عمر بن الخطاب (حيث كان مولى لعمر) فقال عليّ: إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه، توفي رضي الله عنه بالمدينة المنورة سنة ١٣٦ هجرية[١].

٣ ـ طبقة أهل العراق:

وقد أشتهر منهم عدد وعلى رأسهم (الحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وقتادة ابن دعامة، وعطاء بن أبي مسلم الخراساني، ومرّة الهمذاني).

ونحن نتحدث عن ترجمة هؤلاء الأعلام بشيء من الإيجاز فنقول ومن الله نستمد العون.

---

(١) أنظر: تذكرة الحفاظ للذهبي، ج ١ ص ٦٢.

(الحسن البصري)

هو الحسن بن يسار البصري، إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمانه، يكنى (أبا سعيد) وهو أحد العلماء، والفصحاء، والشجعان، والنُسّاك، ولد بالمدينة المنوّرة، وشبّ في كنف (علي بن أبي طالب) واستكتبه الربيع بن زياد والي خراسان في عهد معاوية فسكن البصرة، وعظمت هيبته في القلوب، فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، لا يخاف في الحقّ لومة لائم، رأى مائة وعشرين صحابياً، وكان من أفصح أهل البصرة وأعبدهم وأفقهم.

قال الغزالي: كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء، وأقربهم هدياً من الصحابة، وكان في غاية من الفصاحة، تتصبّب الحكمة من فيه [1].

قال أيوف: ما رأت عيناي رجلاً قطّ كان أفقه من الحسن البصري، كان يعي الحكمة وينطق بها، وكان إذا وعظ أبكى الحاضرين، كأنما كان في الآخرة ثم جاء منها فهو يخبر عمّا رأى وعاين، ولهذا فقد اشتهر بالوعظ، وكان رقيق القلب، فصيح اللسان. وكان يحدّث بالأحاديث النبوية فإذا حدّث عن (علي بن أبي طالب) لم يذكره خشية من بطش الحجّاج، قال يونس بن عبيد: سألت الحسن قلت: يا أبا سعيد، إنك تقول قال رسول الله وإنك لم تدركه؟ قال يا ابن أخي: لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك،ولولا منزلتك منى ما أخبرتك، إني في زمان كما ترى - وكان في عمل الحجاج - كلّ شيء سمعتني أقول قال رسول الله فهو عن علي بن أبي طالب، غير أني في زمان لا أستطيع أن أذكر علياً [2].

ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه: إني قد ابتليت بهذا الأمر، فانظر لي أعواناً يعينوني عليه، فأجابه الحسن: أمّا أبناء الدنيا فلا تريدهم، وأمّا أبناء الآخرة فلا يريدونك فاستعن بالله عن أمرك [3].

---

(١) فيه: أي فمه

(٢) انظر: تهذيب التهذيب، ج ٢، ص ٢٩٦.

(٣) انظر الاعلام للزركلي ج ٢ ص ٢٤٢.

توفي بالبصرة سنة ١١٠ هجرية ودفن فيها رحمه الله رحمة واسعة.

(مسروق بن الأجدع)

مسروق بن الأجدع الهمذاني، كوفي تابعي ثقة، من أصحاب ابن مسعود الذين نقلوا لنا هدي الرسول ﷺ.

وهو عابد فقيه يكنى (أبا عائشة) وقد اشتهر بالتفسير، ورواية الحديث كان أبوه أفرس فارس باليمن، وكان خاله (عمر بن معد يكرب) وقد تولى القضاء، فلم يكن يأخذ على القضاء رزقاً، وكان قانعاً زاهداً راضياً بما قسم الله، مع أنه كان صاحب عيال. جاءته أمرأته يوماً فقالت: يا أبا عائشة: إنّه ما أصبح اليوم لعيالك رزق، فتبسّم ثمّ قال: والله ليأتينّهم الله برزق، فرزقه الله رزقاً واسعاً.

روي عنه أنه لقي (عمر بن الخطاب) فسأله ما اسمك؟ قال: مسروق بن الأجدع، فقال له عمر: الأجدع شيطان، أنت مسروق بن عبد الرحمن فكان بعد ذلك يقول: أنا مسروق بن عبد الرحمن.

قال علي بن المديني شيخ البخاري: ما أقدّم على مسروق من أصحاب عبد الله بن مسعود أحداً، صلى خلف أبي بكر، ولقي عمر وعثمان.

شهد القادسية مع أخوته الثلاثة، فقتلوا يومئذٍ بالقادسية، وجرح مسروق فشلّت يده، وله طريقة لطيفة في النصح والوعظ، خرج يوماً ومعه بعض تلامذته فارتقى بهم على كناسة في الكوفة فقال: ألا أريكم الدنيا؟ هذه هي الدنيا، أكلوها فأفنوها، لبسوها فأبلوها، ركبوها فأنضوها، سفكوا فيها دماءهم، واستحلوا فيها محارمهم، وقطعوا فيها أرحامهم[1].

سئل يوماً عن بيت شعر فقال: أكره أن أرى في صحيفتي شعراً.

---

(١) تهذيب التهذيب ج ٦ ص ٨٢

(قتادة بن دعامة)

وأما قتادة: فهو أبو الخطاب السدوسي البصري، ولد في البصرة، سنة ٦١ وتوفي سنة ١١٧ هجرية ومات وعمره ٥٥ سنة. روى عن أنس بن مالك وسعيد بن المسيب، وجمع من الصحابة، وكان قوي الحفظ، شديد الذكاء، يروى عنه أنه قال: «ما قلت لمحدّث قط أعِد عليّ، وما سمعت أذناي شيئاً إلا وعاه قلبي».

ويروى أنه دخل على (سعيد بن المسيّب) فجعل يسأله أياماً، وأكثر عليه من السؤال، فقال له سعيد: أكلّ ما سألتني عنه تحفظه؟ قال: نعم فتعجب منه، فقال له قتادة: سألتك عن كذا، فقلت فيه كذا، وسألتك عن كذا، فقلت فيه كذا، حتى أورد عليه جميع ما سمعه منه، فقال له سعيد: ما كنت أظنّ أنّ الله خلق مثلك، وقال عنه مرة: ما أتاني عراقي أحسن من قتادة، وقرئت عليه مرة صحيفة جابر فحفظها [١].

وقد كان ضريراً فاقد البصر، حيث ولد وهو أعمى: ولكنه كان آية في الحفظ والنبوغ والذكاء، وكان أحمد بن حنبل يطنب في ذكره والثناء عليه، وينشر من علمه وفقهه، وكان إماماً في التفسير والفقه، ولكنه أخذ عليه أنه كان يأخذ عن كل أحد، حتى قال فيه الشعبي: قتادة حاطب ليل.

توفي رضي الله عنه بالبصرة ودفن بها، وعمره خمس وخمسون سنة، ولما مات بكى عليه أهل البصرة.

(عطاء الخراساني)

قال الحافظ الأصبهاني: كان مولده سنة ٥٠ ووفاته سنة ١٣٥ هجرية. وهو عطاء ابن أبي مسلم الخراساني، يكنى (أبا عثمان) وكان ثقة صدوقاً، عابداً زاهداً، كثير العبادة والتبتل، كان يحيي الليل تهجداً وصلاة.

روى عبد الرحمن بن يزيد أنه كان يحيي الليل صلاة، فإذا ذهب من الليل ثلثه، أو

---

(١) تهذيب التهذيب ج ٨ ص ٣٥١.

نصفه نادانا يا فلان ويا فلان، قوموا فتوضأوا وصلوا، فإن قيام الليل وصيام النهار أيسر من شراب الصديد [1].

وكان يحب نشر العلم، فإذا لم يجد أحداً من تلامذته يحدّثه ذهب إلى المساكين فحدّثهم، خوفاً من الوعيد لكاتم العلم.

وقد اشتهر بالفقه والحديث والتفسير، وكان على غاية من الزهد والورع، رحمه الله تعالى.

(مُرّة الهمذاني)

هو مرة بن شراحيل الهمذاني، أدرك عدداً من الصحابة غير قليل، ويكنى (أبا إسماعيل) وهو المعروف بمرة الطيب، ومرّة الخير، لقب بذلك لعبادته، كان عابداً ورعاً، وزاهداً صالحاً، قال العجلي: كان يصلي في اليوم والليلة خمسمائة ركعة، وهو تابعي ثقة توفي سنة ٧٦ هجرية رحمه الله تعالى رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته [2].

هؤلاء هم أعلام المفسرين من التابعين، استمدوا علومهم وقبسوا معارفهم من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

وعنهم أخذ تابعو التابعين، ومن بعدهم من العلماء العاملين، وهكذا حفظ دين الله، وكتابه، وشريعته، وعلومه ومعارفه، سليمة كاملة، عن طريق التلقّي والتلقين، جيلاً عن جيل، مصداقاً لقول الله سبحانه وتعالى: **﴿إنّا نحن نزّلنا الذكرَ، وإنّا له لحافظون﴾** [3]

ولقد صدق الرسول الكريم فيما نبّأ عنه وأخبر حيث قال

«يحملُ هذا العلم من كلّ خَلَفٍ عدولُه، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين».

---

(١) أنظر تهذيب الكمال للمزي. ج ٤ ص ٤٦٩.

(٢) أنظر تهذيب التهذيب، ج ١٠، ص ٨٨.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٩.

وهكذا حفظ الله كتابه بحفظ هؤلاء الرجال الأعلام. والثقات الأفاضل. الذين كرّسوا جهودهم في خدمة العلم والدين، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وأسكنهم فسيح جناته آمين.

تنبيه:

يلاحظ على تفسير التابعين رضوان الله عليهم. أنه قد دخلت إلى أقوالهم بعض الروايات الإسرائيلية، واختلط الصحيح بالعليل، ونقل على لسانهم بعض الروايات التي لم تثبت، فينبغي التنبه عند نقل أقوالهم إلى الصحيح منها، وأن يرجع الإنسان إلى المراجع الموثوقة من كتب التفسير، كتفسير ابن جرير وغيره من التفاسير الموثوقة.

• قال (السيوطي) في كتابه الاتقان بعد أن ذكر أشهر المفسرين من التابعين ما نصه:

« فهؤلاء قدماء المفسرين، وغالب أقوالهم تلقوها من الصحابة. ثم بعد هذه الطبقة ألّفت تفاسير تجمع أقوال الصحابة والتابعين، كتفسير (سفيان بن عيينة) و (وكيع بن الجراح) و (شعبة بن الحجاج) و (يزيد بن هارون) وآخرين. ثم جاء بعدهم (ابن جرير الطبري) وكتابه أجلّ التفاسير وأعظمها [1].

(١) الإتقان للسيوطي، ج ٢ ص ١٩٠.

الفصل السابع

إعجاز القرآن

العناية بدراسة القرآن العظيم:

لم يحدث في تاريخ البشرية. أنّ أمة من الأمم اعتنت بكتابها السماويّ كما اعتنت هذه الأمة المحمدية، ولم نسمع عن كتاب مقدس نال من الحفظ والرعاية. والإجلال والإكبار. كما ناله هذا الكتاب المجيد، معجزة محمد الخالدة، وحجته البالغة، ودعوته إلى الناس أجمعين. ولا عجب أن ينال القرآن العظيم هذه المنزلة الرفيعة، ويحتل من نفوس المسلمين تلك المكانة الجليلة، ذلك لأن الأحداث التي رافقت نزول هذا الكتاب المقدّس، تجعله يتبوأ مكان الصدارة بين جميع الكتب السماوية، ويفوق كل ما جاء به الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين من هداية وإصلاح وتربية وتعليم، وسموّ وتشريع، ولقد أحسن وأبدع من قال:

(الله أكبرُ إن دين محمد وكتابه أهدى وأقوم قيلا)
(لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفىء القنديلا)

القرآن معجزة محمد الخالدة:

وقد جرت حكمة الله الأزليّة، أن يؤيد أنبياءه ورسله بالمعجزات الباهرات والدلائل الواضحات. والحجج والبراهين الدامغة، التي تدل على صدقهم، وعلى أنهم

أنبياء مرسلون من عند الله العزيز القدير، وقد خصّ الله تبارك وتعالى نبينا ﷺ بالمعجزة العظمى (القرآن الكريم) ذلك النور الرباني، والوحي السماوي، الذي ألقاه على قلب نبيه قرآناً عربياً غير ذي عوج، يتلوه آناء الليل وأطراف النهار، والذي أحيا به أجيالاً من العدم، كانت في عداد الموتى فأحياها الله بنور هذا القرآن، وهداها أقوم طريق وانتشلها من الحضيض فجعلها خير أمة أخرجت للناس، وصدق الله حيث يقول: ﴿أوَمَنْ كان مَيْتاً فأحييناهُ وجعلنَا لهُ نوراً يمشي بهِ في النّاسِ كمنْ مثلُهُ في الظلماتِ ليس بخارجٍ منها؟ كذلك زُيّنَ للكافرينَ ما كانوا يعملونَ﴾ [1]

لقد أحيا القرآن أمماً، وأوجد مجتمعاً، وألّف جيلاً لم يعرف له التاريخ مثيلاً، فأخرج من العرب الذين كانوا رعاة الإبل والغنم، سادةَ الشعوب والأمم، فملّكهم الدنيا حتى حكموا أقاصي المعمورة وكل ذلك بفضل هذا القرآن، معجزة خاتم الأنبياء والمرسلين. وفي ذلك يقول أمير الشعراء:

(أخوك عيسى دعا ميتاً فقام له   وأنت أحييت أجيالاً من العَدَم

ولئن كانت معجزة الأنبياء السابقين معجزات «حسيّة» تتناسب مع العصر والزمان الذي بعثوا فيه، كمعجزة (موسى) عليه السلام حيث كانت (اليد والعصا) لأنه بعث في زمن كثر فيه السحرة واشتهر فيه السحر، وكذلك معجزة (عيسى) عليه السلام حيث كانت بإحياء الموتى، وإبراء الأكمه[2] والأبرص، والإخبار عن بعض المغيبات، لأنه بعث في عصر كثر فيه الطب والحكمة، وظهر فيه الأطباء البارعون، فأتاهم عيسى بن مريم بما أدهشهم وأعجزهم من شفاء المرضى، وإحياء الموتى، وإبراء العمي البكم الصم.

أقول: إذا كانت معجزات الأنبياء السابقين معجزات (مادية حسيّة) فإن معجزة محمد بن عبد الله معجزة (روحية عقلية) وقد خصّه الله بالقرآن معجزة العقل الباقي

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

(٢) الأكمه: الأعمى. قال تعالى: ﴿وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله﴾.

على الزمان، ليراها ذوو القلوب والبصائر، فيستنيروا بضيائها وينتفعوا بهديها في المستقبل والحاضر، فقد ورد عن سيد المرسلين أنه قال:.

« ما من نبي من الأنبياء إلاّ أعطي من الآيات مامثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً » رواه البخاري..

أجل.. هذا الوحي السماوي الذي ألقاه الله على قلب نبيّه الأمين ليكون ضياء ورحمة للعالمين، هو معجزة الإسلام الخالدة، وحجته الباقية، تقوم على فم الدنيا شاهدة بصدق الرسول، ناطقة بعظمة الإسلام وخلود هذا الدين، بينما ذهبت المعجزات الحسيّة، ومضت مع أحداثها الكونيّة، وتلاشت من الوجود بعد وفاة الأنبياء الكرام الذين أتوا بها، فلم يعد لها وجود وبيان إلاّ في هذا القرآن الذي أخبر عنها، فكان له الفضل الأعظم عليها سابقاً ولاحقاً، ولله در القائل حيث يقول:

(جاء النبيّون بالآيات فانصرمت وجئتنا بكتاب غير منصرم)

(آياته كلّما طالَ المدى جُدُدُ يزينهن جمالُ العتق والقدم)

الآيات: المراد بها المعجزات جمع آية بمعنى المعجزة. انصرمت: أي ذهبت بذهابهم..

قال العلامة الزرقاني: (وهنا نلفت النظر إلى أن القرآن بما اشتمل عليه من المعجزات الكثيرة، قد كتب له الخلود فلم يذهب بذهاب الأيام، ولم يمت بموت الرسول عليه الصلاة والسلام، بل هو قائم على فم الدنيا يحاج كل مكذب، ويتحدى كل منكر، ويدعو أمم العالم جمعاء إلى ما فيه من هداية الإسلام وسعادة بني الإنسان. ومن هذا يظهر الفرق جلياً بين معجزات نبيّ الإسلام ﷺ ومعجزات إخوانه الأنبياء عليهم أزكى الصلاة وأتمّ التسليم، فمعجزات محمد في القرآن وحده آلاف مؤلفة، وهي متمتعة بالبقاء إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم حتى يرث الله الأرض ومن عليها، أمّا معجزات سائر الرسل فمحدودة العدد، قصيرة الأمد، ذهبت بذهاب زمانهم، وماتت بموتهم، ومن يطلبها الآن لا يجدها إلا في خبر كان، ولا يسلم شاهد له بها إلا هذا

القرآن؟ وتلك نعمة يمنها القرآن على سائر الكتب والرسل، وما صح من الأديان كافة، قال تعالى: ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مُصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه..** ﴾[1] الآية. وقال عز اسمه: ﴿ **آمن الرسولُ بما انزل إليه منْ ربه والمؤمنون كلٌ آمن باللهِ وملائكتِهِ وكتُبِهِ ورسلِهِ لا نفرّقُ بين أحدٍ من رسله..** ﴾[2] الآية..

لهذا لم تكن معجزة سيد الأنبياء معجزة حسية. تقرع الحسّ وتستولي على النفوس، فلم تكن عصا تنقلب حيّة كعصا موسى، أو ناراً تصير برداً وسلاماً كالنار التي ألقى فيها الخليل، أو ناقة تخرج من صخر أصم ولها رغاء كناقة صالح، أو مريضاً يشفى، أو أعمى ببرأ كما فعل عيسى عليه السلام، وإنما كانت معجزة «عقلية خالدة» لأنها خاتمة الرسالات، فهي خالدة خلود الدهر، باقية بقاء الإنسان.

يقول الشيخ (محمد البنا) ما نصه: وإذا كان قد جرت خوارق للعادات على يد النبيّ ﷺ غير القرآن كما ورد في صحاح السنة فإن النبي ﷺ لم يتحدّ بها، بل كان التحدي بالقرآن وحده، ولهذا كان القرآن معجزة الرسول التي تؤيد رسالته، وتشرق في قلوب الذين اتبعوه من المؤمنين..

ورسالة النبي ﷺ شاملة خالدة لأنها خاتمة الرسالات فكانت الحكمة أن تتفق معجزته من نوع رسالته، إذ كل نبي سبق كان يأتي برسالة لقوم بأعيانهم وتنتهي بما يأتي بعدها من الرسالات، ولم يكن من الممكن أن تكون معجزة خاتم الأنبياء أمراً حسياً يراه جماعة حين يقع، فإذا لحق الرسول بالرفيق الأعلى انقضى ذلك الأمر المحسوس ولا يراه أحد من بعده، لأن الأمور المحسوسة لا تتفق مع نوع هذه الرسالة ولا مع خلودها، لقد كان القرآن معجزة للناس جميعاً، ولذلك جاء من نوع آخر غير نوع المعجزات السابقة، وقد جاء للدنيا بعد أن اكتملت المدارك البشرية، وارتقى الفكر الانساني، لأن رسالة سيدنا محمد ﷺ، وافت البشرية بعد أن أدركت رشدها

---

(١) سورة المائدة، الآية ٤٨

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٨٥ أنظر مناهل العرفان ج ٢، ص ٣٣٢

وتكامل النمو العقلي في مجموعها، فكانت معجزته تدرك (بالعقل) ولا تحتاج إلى أيّ نوع من الحس. فهي معان خالدة، يدرك سموها الإنساني في كل الأجيال، وهي معجزة يخاطب بها الناس جميعاً[1].

معنى إعجاز القرآن:

الإعجاز في اللغة العربية هو: نسبة العجز إلى الغير قال تعالى: ﴿أعَجَزْتُ أنْ أكونَ مثْل هَذَا الغُراب فأواري سوأة أخي..﴾[2] وتسمّى المعجزة (معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها، لأنه أمر خارق للعادة، خارج عن حدود الأسباب المعروفة وإعجاز القرآن معناه: إثبات عجز البشر - متفرقين ومجتمعين - عن الإتيان بمثله. وليس المقصود من (إعجاز القرآن) هو تعجيز البشر لذات التعجيز أي تعريفهم بعجزهم عن الاتيان بمثل القرآن، فإنّ ذلك معلوم لدى كل عاقل، وإنما الغرض إظهار أنّ هذا الكتاب حق، وأن الرسول الذي جاء به رسول صادق، وهكذا سائر معجزات الأنبياء الكرام التي يعجز البشر عنها ليس الغرض منها إلا إظهار صدقهم، وإثبات أن ما جاءوا به إنما هو بوحي من الحكيم العليم، وتنزيل من الإله القادر، وأنهم إنما يبلّغون رسالات الله، وليس لهم إلا الاخبار والتبليغ، فالمعجزات إذاً براهين من الله سبحانه إلى عباده، بصدق رسله وأنبيائه، فكأنّ الله تعالى - بواسطة هذه المعجزة - يقول: صدق عبدي فيما بلّغ عنيّ وأنا أرسلته ليبلغكم ذلك، والدليل على صدقه أن أجْري على يديه خوارق العادات مما لا يستطيع أحد منكم أن يأتي بمثله، ومما ليس بمقدور أحد من الناس أن يجاريه في مثل هذا الأمر العجيب ذالك هو معنى الإعجاز، وذلك هو مفهوم المعجزة.

متى يتحقق الإعجاز:

والإعجاز لا يتحقق إلا إذا توافرت أمور ثلاثة نجملها فيما يلي:

أ - الأول: التحدي، أي (طلب المباراة والمعارضة)

---

(١) أنظر الكتاب والسنّة، ص ٢٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣١.

ب ـ الثاني: أن يكون الدافع إلى ردّ التحدّي قائماً

جـ ـ الثالث: أن يكون المانع منتفياً

ولنوضح هذه الأمور الثلاثة ببعض الأمثلة فنقول:

١ ـ هذا القرآن العظيم (معجزة محمد الكبرى) الذي تحدّى الله به العرب خاصة، والناس أجمعين. يأتي به نبيّ أميّ، لا يعرف القراءة والكتابة، ولم يدرس في مدرسة. أو يتلق علومه في جامعة من الجامعات الكبيرة، ولم يثبت عنه أنه كان تلقيّ شيئاً من العلوم والمعارف عن بعض النابغين من العلماء، أو المبرزين في صنوف الثقافة والعرفان. ولم يتصل بأحدٍ من علماء أهل الكتاب (اليهود والنصارى) حتى يطلع على أنباء الأمم السابقين، وأخبار الأنبياء المتقدمين، جاءهم بهذا الكتاب المجيد، متحدياً لهم ـ وهم أئمة الفصاحة وفرسان البلاغة ـ وطلب منهم معارضة القرآن، بعبارات قوية. ولهجات واخزة تستفز العزيمة وتدفع إلى المباراة، وتنزّل معهم من التحدّي بجميع القرآن. إلى التحدّي بعشر سور مثله، ثمّ إلى التحدي بسورة واحدة من مثله، وهم في كلّ هذا واجمون، لا ينبسون ببنت شفة، وهم رغم هذا التحدّي ينتقلون من عجز إلى عجز، ومن هزيمة إلى هزيمة، أفليس في هذا أكبر شاهد وبرهان على إعجاز القرآن؟!.

اسلوب القرآن في التحدي:

جاء التحدّي في القرآن الكريم بصور متعددة، وأساليب متنوعة، تهز كيان العرب هزا. وتجرّهم إلى الميدان جراً، في أسلوب ممتع أخاذ. يملك عليهم شعورهم، ويستحوذ على أفئدتهم، بسحره وجماله ورونقه

لقد تحدّاهم على أن يأتوا بمثل القرآن. فعجزوا وولّوا الأدبار. مع أنهم فرسان الفصاحة. وملوك البيان.

فتنزل معهم إلى (عشر سور) من مثله مفتريات، فانقطعوا واندحروا وعجزوا عن الإتيان بتلك السور العشر.

فتنزل معهم إلى ما هو أسهل وأيسر، إلى الإتيان بمثل (سورة واحدة) فقط من سور القرآن، فلم يتقدّم واحد منهم إلى حَلْبة الميدان.. وبذلك سجّل عليهم القرآن العجز والهزيمة، وثبتت معجزة محمد، النبي الإميّ، على أنّ هذا القرآن تنزيل من رب العالمين: **﴿وإنه لتنزيلُ ربِّ العالمينَ★ نزلَ به الروحُ الأمينُ★على قلبكَ لتكونَ منَ المنذرينَ★بلسانٍ عربي مبينٍ﴾**[1] وصدق الله حيث يقول:

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوْحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بالحقِّ★ليُثَبِّتَ الّذيـنَ آمنُـوا★وهُـدًى وبُشْرى للمُسْلِمينَ﴾[2]

أنواع التحدي:

والتحدي الذي جاء في القرآن الكريم كان على نوعين:

١ ـ التحدي العام.

٢ ـ التحدّي الخاص.

أما الأول: فقد ورد لجميع الخلائق بما فيهم الفلاسفة، والعباقرة، والعلماء، والحكماء، وجاء لجميع البشر بدون استثناء، عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم، مؤمنهم وكافرهم، استمع إلى هذا التحدي الصارخ في سورة الإسراء:

﴿قلْ لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أنْ يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ، لا يأتونَ بمثلِهِ ولوْ كانْ بعضهمْ لبعضٍ ظهيراً﴾[3].

وأما الثاني:(التحدي الخاص) فقد جاء للعرب خاصة، وعلى الأخص منهم لكفار قريش، وقد ورد هذا التحدي على نوعين أيضاً:

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٢ ـ ١٩٥.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٢.

(٣) ظهيراً: أي معيناً وناصراً. سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

١ ـ تحدي كلّي: وهو التحدي بجميع القرآن، في أحكامه، وروعته وبلاغته، وبيانه

٢ ـ تحدّي جزئي: وهو التحدي بمثل سورة من سور القرآن الكريم،ولو من أقصر سورة كسورة الكوثر.

فالأول مثل قوله تعالى: ﴿فليأتوا بحديثٍ مثله إن كانوا صادقين﴾[١] والمراد بالحديث في هذه الآيات الكريمة (قرآن مثله) أي يأتوا بقرآن يشبه هذا الذي جاءهم به محمد رسول الله، والذي زعموا أنه افتراه وتقوله على الله، كما ورد التحدّي بالقران كله في سورة القصص في قوله تعالى:

﴿قُلْ فأتُوا بكتَابٍ مِن عندِ اللهِ هو أهْدَى منهما أتَّبِعْه إن كُنْتُمْ صادقين﴾[٢].

فقد طلب منهم أن يأتوا بكتاب كامل غير هذا الكتاب الكريم، فإذا لم يستجيبوا لدعوته فإنما هم أناس متعنتون، يعبدون الهوى، ويسيرون على غير هدى الله.

أما التحدي الجزئي: فقد ورد في سورة (هود) في قوله تعالى:

﴿أم يقولونَ افتراهُ؟قُل فأتُوا بعشر سُوَرٍ مثلِه مفترياتٍ، وادعُوا مَن استطعْتُم من دون اللهِ إن كُنتُم صادِقينَ*فإن لم يستجيبوا لكم فاعلمُوا أنَّما أنزل بعلْم الله، وأن لا إلهَ إلاَّ هُو فهل أنتم مسلمون؟﴾[٣]

كما ورد التحدّي بأقل من ذلك تحداهم (بسورة) واحدة من أقصر سور القرآن، وجاء هذا التحدّي مقروناً بالتعجيز الفاضح، في الحاضر،والمستقبل، مسجّلاً عليهم ذلك العجز، بما يثير حميتهم ويغريهم بتكلف المعارضة، لا سيما بعد قولتهم القبيحة

---

(١) سورة الطور، الآية: ٣٤

(٢) سورة القصص، الآية: ٤٩.

(٣) سورة هود، الآيتان: ١٣ ـ ١٤.

ودعواهم الكاذبة حين قالوا: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا، إِنْ هذا إلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلين﴾ .[1]

جاءهم التحدي في سورة البقرة في قوله تعالى:

﴿وإنْ كُنْتُمْ في ريبٍ مما نَزَّلْنَا على عَبْدِنَا فأتُوا بِسُورةٍ من مثلِهِ وادعُوا شهدَاءَكُمْ من دونِ الله إنْ كنتُمْ صادقينَ★فإنْ لم تفعلوا ـ ولَنْ تفعَلُوا ـ فاتَّقُوا النَّارَ التي وَقُودُهَا النَّاسُ والحِجَارةُ أُعِدَّتْ للكَّافِرِينَ﴾ [2].

قال العلامة (القرطبي) في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن): قوله ﴿فإن لم تفعلوا)﴾ يعني فيما مضى، ﴿ولن تفعلوا﴾ أي تطيقوا ذلك فيما يأتي، وفيه إثارة لهممٍ، وتحريك لنفوسهم، ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها [3].

أما الأمر الثاني وهو: (قيام المقْتَضي للمباراة والمعارضة) عند العرب فقد كان حاصلاً وقائماً، فإن النبي عليه الصلاة والسلام جاءهم بدينٍ جديد، أبطل فيه دينهم، وسفَّه احلامهم، وسخر من آلهتهم وأصنامهم، وجعلهم اضحوكة بين الناس، ثم دعاهم الى اتباعه وإلى اعتقاد أنه رسول من عند الله، وقال لهم: إن الحجة على صدقي هذا الكتاب الذي أوحاه الله إلي، فإذا لم تصدقوني في ذلك فأنا اتحداكم ان تأتوا بمثله، او بمثل سورة منه، وإذا عجزتم فذلك آية صدقي، وبرهان رسالتي إليكم.. فما كان احوجهم إلى ان يأتوا بمثله خاصة بعد هذا التحدي السافر، والتهكم الشديد اللاذع، بعقولهم وآلهتهم وأصنامهم، أقول ما كان أحوجهم الى دحض ما ادعاه، وإبطال أنه من عند الله، وذلك بسلوك ايسر الطرق، وولوج اقرب الابواب لرد دعواه وذلك عن طريق ما برعوا فيه، واشتهروا بجودته واتقانه الا وهو (البيان) في النطق

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣١.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٣) تفسير القرطبي، ج ١، ص ٣٢.

و (الفصاحة) في اللسان، وكان ذلك انفع لهم من الحرب التي ذاقوا ويلاتها، وخاضوا غمارها، حتى شربوا كؤوس الأسى وتجرعوا الموت الذؤام، ولكنهم اختاروا طعن الرماح، ووقع النبال، ولم يدخلوا في المباراة.

يقول القاضي (الباقلاني) رحمه الله: (كيف يجوز أن يقدروا على معارضة القرآن، السهلة عليهم، وذلك يدْحض حُجَته، ويفسد دلالته، ويبطل أمره، فيعدلون عن ذلك إلى سائر ما صاروا إليه من الأمور التي ليس عليها مزيد في المنابذة والمعاداة، ويتركون الأمر الخفيف؟ هذا ما يمتنع وقوعه في العادات ولا يجوز اتفاقه من العقلاء).

وأما الأمر الثالث: وهو (انتفاء ما يمنعهم من معارضة القرآن)، فلأنّه نزل بلسان عربي، هو لسانهم، وألفاظه من أحرف العرب، وعباراُته على أسلوب العرب، وهم أهل البيان واللّسن، وأمراء الفصاحة والبلاغة، وقد دلت أشعارهم، ونطقت خطبهم وحِكمُهم على براعتهم في ذلك، وعلى انهم حازوا قصب السبق في مضمار الفصاحة والبيان، كما أثبتت الأيام أنهم من ذوي القدرة والاستطاعة على ان يبرّزوا في الشعر والنثر، وان يحلّقوا في سماء الفصحى ألا وهي لغتهم الأساسية (لغة القرآن) التي بها يتفاخرون ويتبارون، ويعقدون المنتديات، ويجتمعون في المحافل، ليستمعوا أروع القصائد والخطب، ويصوغوا اجمل الالفاظ والعبارات، ولم يكونوا في عجز من قدرتهم، او نقص في عقولهم، بل كانت قدرتهم موفورة، واستطاعتهم مشهورة، وهم أولوا النّهي والألباب، ومع ذلك فالقرآن دعاهم أن يستعينوا بمن شاءوا، ويكمّلوا ما ينقصهم بأهل الأديان، ويستحضروا عُدّتهم بالاتصال بالسحرة والكهّان، وبمن شاءوا من طوائف الإنس والجان، فليس أمامهم ثمة مانع، والنبي ﷺ لم يضرب لهم أجلاً للمعارضة، ولم يحدّد زمناً للمناقضة، حتى يقول قائل منهم: إن الزمن لا يكفي وليس فيه سعة، كما أن القرآن لم ينزل جملة واحدة حتى يحتجوا بذلك، بل نزل مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة، بين كل مجموعة واخرى زمن متسع للمعارضة وللإتيان بمثله لو كان في مقدورهم ذلك، فلما عجزوا دلّ على أنه تنزيل رب العباد، وكفى بذلك دليلاً وبرهاناً.

مثل على إعجاز القرآن:

وقد ذكر المرحوم (الشيخ الزرقاني) كلاماً نفيساً في كتابه (مناهل العرفان) ننقله بنصّه. قال رحمه الله في بحث تعريف (المعجزة) ما يلي:

(المعجزة: هي أمر خارج للعادة، خارق عن حدود الأسباب المعروفة، يخلقه الله تعالى على يد مدّعي النبوّة، عند دعواه إيّاها: شاهداً على صدقه... فإذا قام إنسان ما، وادّعى أنه مبعوث من الله تعالى إلى خلقه، ورسولُه إلى عباده، وقال: إن آية صدقي فيما أدّعيه، أن يغيّر الله الذي ارسلني عادة من عاداته على يدي، وأن يخرج الآن عن سنة من سننه العامة في وجوده ثم قال: وسيأتيكم الله بهذا الأمر العجاب، من باب ترون انكم فيه نابغون وعليه قادرون، وإنّي أتحدّاكم زرافات ووحداناً أن تأتوا بمثل هذه الآية، وأمامكم الباب مفتوحاً كما تعتقدون، وفيكم النبوغ موفوراً كما تدّعون، ثم أنتم مجتمعون وأنا وحدي، قال ذلك بلغة الواثق، وتحدّانا هذا التحدّي الظاهر، في وقت يثور فيه على عقائدنا وعاداتنا وأخلاقنا، ويسفّه فيه أحلامنا وأحلام أمثالنا من آبائنا، ونحن أحرص ما نكون على تعجيزه وتبهيته والغلبة عليه والظفر به، دفاعاً عن كرامتنا وانتصاراً لأعزّ شيء لدينا، ثم لم يلبث أن قام وقمنا، وأجمع امره وأجمعنا، وإذا نحن جميعاً بعد محاولات ومصاولات لم نستطع أن نأتي بمثل ما أتى به، فضلاً عن أعظم منه، مع أننا أمة وهو فرد، ومع انه قد دخل الينا من أيسر الطرق في نظرنا، ومن أشهر فنّ في زماننا، ومع أنه قد أعطانا الفرصة الكافية لمناظرته، وأنصفنا كل انصاف من نفسه!!

هل يشكّ كل ذي مُسْكة من عقل، في أن هذا الإنسان المتفوق الممتاز صادق في رسالته ومحق في دعوته، خصوصاً اذا عرفنا فوق ذلك كله أنه نشأ فينا على الصدق والأمانة ومكارم الاخلاق، من لدن صباه وطفولته إلى يوم مبعثه ورسالته!.

لو أنه جاء بالمعجزة من بابٍ لا نعرفه، لقلنا: رجل حَذَق فناً من الفنون التي لا علم لنا بها، او تعلّم صناعة من الصناعات التي لم نحط بخبرها، أما وقد جاءنا من الناحية التي نشهد لأنفسنا فيها بالتفوق والسبق، فلا يسعنا إلاّ الإذعان له، والإيمان بما جاء به ما

دمنا منصفين. ولنضرب لك مثلاً: جاء موسى عليه السلام بمعجزته عصاً من الخشب، لا روح فيها ولا حركة، ولا لين ولا رطوبة، ثم ألقاها باسم الذي أرسله، فإذا هي حيّة تسعى، بينما الأمة التي تحدّاها بذلك كانت قد تفوّقت في السحر وحذّقته، وضربت فيه بأوفر سهم وأوفى نصيب، خصوصاً انهم امة وهو فرد، وهم نابغون في السحر وهو مع نشأته فيهم لم يُعرف يوماً من الأيام بمعالجة السّحر، فهل يبقى للشك ظل بعد أن ألقى موسى عصاه ﴿ **فإذا هي تلقف ما يأفكون** ﴾ [1]؟ ﴿ **فوقَع الحقّ وبطَلَ ما كانُوا يعملُون** ﴾ [2]؛ ﴿ **وألقي السّحَرَةُ ساجِدين ★ قالُوا آمنّا بربّ العَالمينَ رب موسى وهرون** ﴾ [3]؟؟ الحق أبلج، ولذلك كان أول من آمن به هم السحرة أنفسهم لأنهم أعرف بالسّحر ومقدماته ونتائجه، وقد رأوا رأي العين أن ذلك الإعجاز ليس من نوع السحر الذي عرفوه.

قل مثل ذلك في معجزة كل رسول أرسله الله، قله في عيسى بن مريم عليه السلام، وإبرائه الأكمه والأبرص، وإحيائه الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير بإذن الله، أمام قوم نبغوا في الطبّ أيما نبوغ، ومهروا فيه أيما مهارة!..

وقل مثل ذلك وأكثر من ذلك في خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ وما جاء به من آيات بينات ومعجزات واضحات، وحسبُك القرآن وحده برهاناً ساطعاً، بل براهين ساطعات، كل مقدار ثلاث آيات منه حجة قاطعة تقوم في فم الدنيا إلى يوم الساعة، تتحدّى العالم بما يكون فيها من أسرار الفصاحة والبيان، والعلوم والمعارف، وأنباء الغيب وشواهد الحق [4].

شروط المعجزة الإلهية:

وللمعجزة شرائط خمسة نبّه عليها العلماء، فإن اختلّ منها شرط لا تكون معجزة:

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١١٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١١٨.

(٣) سورة الأعراف، الآيات: ١٢٠ - ١٢٢.

(٤) مناهل العرفان ج ١ ص ٦٨.

١ ـ الشرط الأول: أن تكون مما لا يقدر عليه إلا الله رب العالمين.
٢ ـ الشرط الثاني: أن تخرق العادة وتكون مخالفة للسنن الكونيّة.
٣ ـ الشرط الثالث: أن يستشهد بها مدّعي الرسالة على صدق دعواه.
٤ ـ الشرط الرابع: أن تقع على وفق دعوى النبيّ المتحدي بتلك المعجزة.
٥ ـ الشرط الخامس: ألا يأتي أحد بمثل تلك المعجزة على وجه المعارضة.

فهذه الشروط الخمسة إن تحققت كان ذلك الأمر الخارق للعادة معجزة دالة على نبوّة صاحب الدعوى، التي ظهرت المعجزة على يده، وإن لم تتحقق خرجت عن كونها معجزة، ولم تدلّ على صدق صاحب الدعوى.

أما الشرط الأول: فإنه لو أتى آت ـ في زمن يصحّ فيه مجيء الرسل ـ وادعى الرسالة وجعل معجزته أن يقوم ويقعد، ويأكل ويشرب، ويتحرك من مكان إلى مكان لم يكن هذا الذي ادّعاه معجزة، ولا دالاً على صدقه لقدرة الخلق على مثله، وإنما يجب أن تكون المعجزات مما لا يقدر عليها البشر كفلق البحر، وانشقاق القمر، وإحياء الموتى.. الخ.

وأما الثاني: وهو خرق العادة فلو قال المدعي للنبوة معجزتي أن تطلع الشمس من المشرق وتغرب من المغرب، وأن يأتي النهار بعد الليل، لم يكن فيما ادعاه معجزة، لأنّ هذه الأمور وإن كان لا يقدر عليها إلاّ الله، لكنّها لم تفعل من أجله، وقد كانت من قبله، فليس فيها دلالة على صدقه

وأما الثالث: وهو أن يستشهد بها مدّعي للنبوة وتحصل عند طلبها تصديقاً لدعواه، فلو ادّعى إنسان أنّ معجزته أن ينقلب الجماد إلى حيوان أو إنسان، ولم ينقلب لا يدل على صدق دعواه

وأما الرابع: وهو أن تقع المعجزة على وفق الدعوى لا على خلافه لأنها حينذاك تكون تكذيباً له. روى أن (مسيلمة الكذّاب) لعنه الله طلب منه أصحابه أن يتفل في بئر ليكثر فيها الماء فغارت البئر فدل على كذبه[1]

---

(١) أنظر تفسير القرطبي، ج ١ ص ٧٠.

خامساً: ألاَّ تُعَارَضَ المعجزة فإن عورضت بطل كونها معجزة، ولم تدل على صدق صاحبها، فلو استطاع أحد فلق البحر أو شق القمر لم تعد معجزة ولهذا قال تعالى في خطاب المشركين ﴿ **فَلْيَأْتوا بحديثٍ مثلهِ إنْ كانُوا صادقينَ** ﴾ [1]

بِمَ كان إعجاز القرآن؟

القرآن العظيم كلامُ الله المعجزُ للخلق، في اسلوبه ونظمه، وفي روعته وبيانه، وفي علومه وحِكَمه، وفي تأثير هدايته، وفي كشفه الحُجُب عن الغيوب الماضية والمستقبلة، ولقد جاء العلماء في كشف أسرار البيان، عن وجوه إعجاز القرآن، بعد أن ثبتت عندهم بالوجدان والبرهان، وقد أجمع أهل العربيّة قاطبة، وأهل اللَّسَن منهم والبيان، على أنّ القرآن (معجز بذاته) أي،أنّ إعجازه إنما كان بفصاحة ألفاظه، وروعة بيانه، وأسلوبه الفريد، الذي لا يشابهه فيه أسلوب، لا من نثرٍ، ولا من شعر، ومسحته اللفظية الخلاّبة، التي تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي، وبراعته الفنية.

مذهب أهل الصّرفة:

وقد ذهب بعض المعتزلة منهم (أبو اسحق النظّام) إلى أن إعجاز القرآن إنما كان بـ (الصرّفة) بمعنى أن الله عز وجل صرف البشر عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها وخلق فيهم العجز عن محاكاته في أنفسهم وألسنتهم، ولولا أنّ الله صرفهم عن ذلك لاستطاعوا أن يأتوا بمثله.. ولعمري هذا قول من لم يتذوق طعم العربية، ولا عرف أسرارها، بل قول من لم يدرك من العلوم إلا قشوراً لا تسمن ولا تغني من جوع، وهو قول ساقط مرذول، مخالف لما أجمع عليه العلماء والفصحاء والبلغاء في القديم والحديث

يقول حجة الأدب العربي (مصطفى الرافعي) رحمه الله: (وقد اختلفت آراء المعتزلة في وجه إعجاز القرآن، فذهب شيطان المتكلمين (أبو إسحق النظّام) إلى أنّ

---

(١) سورة الطور، الآية: ٣٤.

الإعجاز كان بالصّرفة، وهي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف خارقاً للعادة وقال (المرتَضَى من الشيعة): بل معنى الصّرفة أن الله سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن.. فكأنه يقول: إنهم بلغاء يقدرون على مثل النظم والأسلوب ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من المعاني، إذ لم يكونوا أهل علم، ولا كان العلم في زمنهم.. وهذا رأي بيّنُ الخلط كما ترى!

ثم قال: وعلى الجملة فإنّ القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه **﴿إنْ هذا إلاّ سِحْرٌ يؤثر﴾** [1] وهذا زعمٌ ردّه الله على أهله، وأكذبهم فيه، وجعل القول به ضرباً من العَمَى **﴿أفسحرٌ هذا أمْ أنتمْ لا تبصرونَ﴾** [2]

وعلى ذلك المذهب الفاسد يمكن أن يقال: إن المعجز ليس هو القرآن الكريم على حد زعمهم إنما هو (الصرّفة) التي بسببها عجزوا عن الاتيان بمثله **﴿صرفَ اللهُ قلوبَهُمْ بأنهم قومٌ لا يفقهون﴾** [3]. وقد أسفَّ (ابن حزم) الظاهري حين سلك ذلك المسلك الملتوي، وذهب إلى ما ذهب إليه سلفه (النظّام) من سُخف الكلام، ولكن بأسلوب رشيق رقيق حيث يقول في كتابه (الفصل) في سبب الإعجاز ما نصّه:

(لم يقل أحد إن كلام الله تعالى غير معجز، ولكن لمّا قاله الله تعالى، وجعله كلاماً له أصاره معجزاً، ومنع من مماثلته، وهذا برهان كافٍ لا يُحتاج إلى غيره)

فأنت ترى صاحب هذا الرأي يجعل القرآن الكريم معجزاً بمنع الله عزّ وجل من مماثلته وهذا عين رأي النظّام الذي يقول بالصّرفة، وهو رأي باطل كما أسلفنا، والقوم محجوبون عن ضياء الحق الساطع، وما أجمل قول القائل:

قد تنكر العينُ ضوء الشمس من رَمَد   وينكر الفم طعم الماء من سَقَمِ

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الطور، الآية: ١٥. انظر، إعجاز القرآن للرافعي ص ١٦٤.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٧.

آراء العلماء في الإعجاز:

بعد أن أجمع العلماء على إعجاز القرآن بذاته، وعلى عدم استطاعة أحدٍ من البشر الاتيان بمثله، اختلفت آراؤهم في وجه إعجاز القرآن على آراء:

أ - يرى بعضهم: أن وجه الإعجاز في القرآن هو ما اشتمل عليه من النظم الغريب المخالف لنظم العرب ونثرهم، في مطالعه، ومقاطعه، وفواصله

ب - ويرى البعض الآخر: أنّ وجه الإعجاز إنما يكمن في فصاحة ألفاظه، وبلاغة عباراته، وجودة سبكهِ، إذ هو في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يُعْهَد مثلها

جـ - ويرى آخرون أن الإعجاز في خلوّه من التناقض، واشتماله على المعاني الدقيقة، والأمور الغيبيّة التي ليستْ بمقدور البشر، ولا في استطاعتهم معرفتها، كما أنه سليم من التناقض والتعارض

د - وهناك من يقول: إن وجه الإعجاز هو ما تضمّنه القرآن من المزايا الظاهرة والبدائع الرائقة، في الفواتح، والمقاصد، والخواتيم في كل سورة، والمعوّل عليه عندهم ما يلي:

١ - الفصاحة في الألفاظ.

٢ - البلاغة في المعاني

٣ - صورة النظْم البديع.

وهذه الأقوال كلها لا تخرج عن دائرة واحدة هي (الدائرة البيانيّة) التي امتاز بها القرآن، وهي وإن كانت حقاً إلاّ أن إعجاز القرآن ليس في (الفصاحة والبلاغة) فحسب، بل هناك وجوه أخرى لإعجاز القرآن، وقد أجاد العلامة (القرطبي) رحمه الله في تفسيره القيّم المسمّى (الجامع لأحكام القرآن) فعدّ عشرة وجوهٍ لإعجاز القرآن، كما ذكر فضيلة الشيخ (الزرقاني) في كتابه (مناهل العرفان) أربعة عشر وجهاً من وجوه الإعجاز، منها ما ذكره القرطبي ومنها ما لم يذكره، ونحن نذكر هذه

الوجوه بالإيجاز ثمّ نعقبها بشيء من التفصيل، فنقول ومن الله نستمدّ العون:

وجوه إعجاز القرآن الكريم:

أولاً: النظم البديع المخالف لكل نظمٍ معهود في لسان العرب

ثانياً: الأسلوب العجيب المخالف لجميع الأساليب العربيّة

ثالثاً: الجزالة التي لا يمكن لمخلوق أن يأتي بمثلها

رابعاً: التشريع الدقيق الكامل، الذي يبزّ كل تشريعٍ وضعي

خامساً: الإخبار عن المغيّبات التي لا تعرف إلاّ بالوحي

سادساً: عدم التعارض مع العلوم الكونيّة المقطوع بصحتها

سابعاً: الوفاء بكل ما اخبر عنه القرآن الكريم من وعد ووعيد

ثامناً: العلوم والمعارف التي اشتمل عليها (العلوم الشرعية والعلوم الكونية)

تاسعاً: وفاؤه بحاجات البشر

عاشراً: تأثيره في قلوب الأتباع والأعداء

أما الوجه الأول: من وجوه إعجازه فهو (النظم البديع) المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب، فالقرآن الكريم لا يشبهه شيء في نظمه، لا من شعر ولا من نثر، وذلك بشهادة أساطين البلاغة، وأئمة الفصاحة والبيان. (الوليد بن المغيرة) و (عتبة بن ربيعة) وغيرهما من فصيحاء العرب ومشاهيرهم.

أمثلة من التاريخ:

١ - يروى أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم، إنّ قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوه لك، فإنَّك أتيت محمداً لتعرضَ لما قِبَله (أي لتنال من فضله) فقال الوليد: لقد علمت قريش أني من أكثرِها مِالاً، فقال له أبو جهل: فقل فيه قولاً يبلغ قومَك أنك

منكر له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلمُ بالشعر مني، لا برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجنّ، والله ما يشبه هذا الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنَّ أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يُعلى عليه.. فقال أبو جهل اللعين: والله ما يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكّر، فلمّا فكّر قال: ﴿إن هذا إلا سحرٌ يؤثر﴾ فنزل فيه قول الله تعالى ﴿ذرني ومنْ خلقتُ وحيداً ★ وجعلتُ لَهُ مالاً ممدوداً..﴾ إلى قوله: ﴿إنه فكّرَ وقدّرَ ★ فَقُتِلَ كيفَ قدّرَ ★ ثمّ قُتلَ كيفَ قدَّر ★ ثمّ نظرَ ★ ثم عَبَسَ وَبَسَرَ ★ ثم أدبَرَ واستكْبَرَ ★ فقالَ إنْ هذا إلا سحرٌ يُؤْثَرَ ★ إنْ هذا إلا قولُ البشر﴾ (١)

٢ - ويروى أن (الوليد) لمّا سمع القرآن من النبي ﷺ تأثرّ تأثراً بالغاً فجاء لقومه (بني مخزوم) وقال لهم: والله لقد سمعت من محمد آنفاً (أي سابقاً) كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة... الخ. فقالت قريش: صبأ والله الوليد، لتصبأنّ قريش كلها، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فقعد إليه حزيناً وكلّمه بما أغاظه، فقام الوليد وقام معه أبو جهل، فلمّا أتى قومه قال: تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق؟ وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهّن؟ وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط؟ وتزعمون أنه كذّاب فهل جرّبتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا في كل ذلك. اللّهم لا... ثمّ قالوا: فما هو؟ ففكّر، فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله، وبين الوالد وولده، وما الذي يقوله إلا سحر يأثره (أي ينقله) عن أهل بابل، فارتجّ النادي فرحاً، وتفرقوا مُعْجَبين بقوله، متعجبين منه فنزلت الآيات الكريمة (٢)

٣ - وفي صحيح مسلم أن (أنيساً الغفاري) أخا أبي ذرّ، قال لأبي ذرّ: لقيت رجلاً بمكة على دينك، يزعم أن الله أرسله، قلت: فما يقول الناس: قال يقولون: شاعر، ساحر، كاهن، وكان (أنيس) أحد الشعراء قال أنيس: لقد سمعت قول

---

(١) سورة المدثر، الآيات: ١١ - ٢٥. رواه البيهقي في دلائل النبوة.

(٢) أنظر الكشاف، ج ٤ ص ٦٤٩.

الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر (يريد أنواعه وبحوره) فلم يلتئم على لسان أحد منهم أنه شعر، والله إنهم لكاذبون وإنه لصادق[1].

٤ ـ وأخرج ابن إسحق في السيرة (أن أبا جهل قال في ملأ من قريش: لقد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم لنا رجلاً عالماً بالشعر، والكهانة، والسحر، فكلّمه ثم أتانا ببيان عن أمره؟ فقال (عتبة بن ربيعة) ـ ومن من أشراف القوم وسادتهم ـ أنا أقوم إليه وأكلّمه! فأتاه فقال يا محمد: أنتَ خيرٌ أم هاشم؟ أنتَ خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فبم تشتم آلهتنا وتضلّلنا؟ فإن كنت تريد الرياسة، عقد لك اللواء فكنت رئيسنا، وإن كنت تريد النساء زوجناك ما تشاء منهن، تختار من أي بنات قريش ما شئت، وإن كنت تريد المال جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أغنانا وأكثرنا مالاً، والنبي ﷺ ساكت لا يجيبه، فلمّا فرغ من عرضه، قال له النبي ﷺ: أفَرَغتَ؟ قال: نعم، قال فاسمع إذاً فتلا عليه سورة فصلت ﴿حم★ تنزيلٌ منَ الرحمٰنِ الرحيمِ★ كتابٌ فصّلتْ آياتُهُ قرآناً عربياً لقومٍ يعلمون★ بشيراً ونذيراً فأعرضَ أكثرَهُمْ فهُمْ لا يسمعون..﴾ الخ حتى بلغ قوله تعالى ﴿فإنْ أعرضُوا فقُلْ أنذرْتُكُمْ صاعقةً..﴾[2] الآية فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم أن يكفّ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش، فلما احتبس عنهم قالوا: ما نرى عتبة الا قد صبأ! فانطلقوا إليه وقالوا يا عتبة: ما حبسك عنّا إلا أنك قد صبأت، فغضب ثم قال لهم: والله لقد كلمته فأجابني بشيء والله ما هو بشعر، ولا بسحرٍ، ولا بكهانة، وقد ناشدته بالرحم أن يكفّ خشية أن ينزل بكم العذاب، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب..)[3]

قال العلامة (القرطبي) رحمه الله

(وإذا اعترف عتبة على موضعه من اللّسان، وموضعه من الفصاحة والبلاغة، بأنه

---

(١) أنظر تفسير القرطبي ج ١ ص ٧٣.

(٢) سورة فصلت، الآيات: ١ ـ ١٣.

(٣) أنظر الكشاف، ج ٤، ص ١٩٢.

ما سمع مثل القرآن قطّ، كان في هذا القول، مقراً بإعجاز القرآن له ولضربائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه)

أما الوجه الثاني لإعجاز القرآن: فهو (الأسلوب العجيب) المخالف لجميع الأساليب العربية. فقد جاء القرآن بذلك الأسلوب الرائع الخلاّب، الذي بهر العرب برونقه وجماله، وعذوبته وحلاوته، وقد كانت فيه من الخصائص العليا مالم توجد في كلام بشر على نحو ما وجدت في القرآن، خصوصاً وأن النبي ﷺ تحدّى به فأعجز أساطين الفصحاء. وأعيا مقاويل البلغاء، وأخرس ألسنة فحول البيان، وذلك في عصر كانت القوَى فيه قد توافرت على الإجادة والتبريز في هذا الميدان، وفي أمة كانت مواهبها محشودة للتفوق في هذه الناحية.

يقول (الزرقاني) رحمه الله: (وها قد مرّت على اللغة العربية، من عهد نزول القرآن إلى عصرنا هذا، أدوار مختلفة بين علوّ ونزول، واتسّاع وانقباض، وحركة وجمود، وحضارة وبداوة، والقرآن في كل هذه الأدوار، واقف في عليائه، يطلُّ على الجميع من سمائه. وهو يشعُ نوراً وهدايةً، ويفيض عذوبة وجلالة، ويسيل رقةً وجزالة، ويرف جدّة وطلاوة، ولا يزال كما كان غضّاً طرياً، يحمل راية الإعجاز، ويتحدّى أمم العالم في يقين وثقة، قائلاً في صراحة الحق وقوته، وسلطان الإعجاز وصولته **﴿قلْ لئنِ اجتمعت الانسُ والجنُ على أنْ يأتُوا بمثلِ هذا القرآن لا يأتُونَ بمثلِهِ ولَوْ كانَ بعضُهُمْ لبعضٍ ظهيراً﴾**[1].

خصائص أسلوب القرآن:

وللقرآن الكريم في أسلوبه العجيب المخالف لجميع الأساليب البشرية خصائص عديدة نجملها فيما يلي:

الخاصة الأولى: مسحة القرآن اللفظية، التي تتجلّى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨. أنظر مناهل العرفان ج ٢، ص ٢٢٩.

الخاصة الثانية: إرضاؤه العامة والخاصة، بمعنى أن الجميع يحسّون بجلاله ويشعرون بروعته

الخاصة الثالثة: إرضاؤه العقل والعاطفة معاً فالقرآن يخاطب العقل والقلب، ويجمع الحق والجمال معاً

الخاصة الرابعة: جودة سبك القرآن وإحكامُ سرده، فكأنه سبيكة واحدة تلعب بالعقول وتأخذ بالأبصار

الخاصة الخامسة: براعته في تصريف القول، وتفنّنه في ضروب الكلام، بمعنى أنه يورد المعنى الواحد بألفاظ شتى، وطرق مختلفة، وكلها رائعة فائقة

الخاصة السادسة: جمع القرآن بين الإجمال والبيان

الخاصة السابعة: الوفاء بالمعنى مع القصد في اللفظ [1].

أمثلة توضيحية على خصائص أسلوب القرآن:

يقول حجة الأدب العربيّ الفقيد (مصطفى الرافعي) رحمه الله:

١ ـ (لو تدبرتَ ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصّرفية واللغوية، تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروفْ أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف مُساوقة لها في النظم الموسيقي، حتى إنّ الحركة ربّما كانت ثقيلة، فلا تعذُب ولا تُساغ فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأناً عجيباً.. من ذلك لفظة (النُّذر) جمع نذير، فإنّ الضمّة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً، فضلاً عن جسأة هذا الحرف، ونبوّه في اللسان، ولكنّه جاء في القرآن على العكس في قوله تعالى ﴿ولقدْ أنذرَهُم بطشَتَنا فتمارَوْا بالنُّذُرُ﴾ [2] فتأمل هذا التركيب، وأنعم ثم أنعم على تأمله، وتذوّق مواقع الحروف، وأجرِ حركاتها في حسّ

(١) أنظر: مناهل العرفان للزرقاني.

(٢) سورة القمر، الآية: ٣٦.

السمع، وتأمّلْ مواضع القلقلة في دال (لقدْ) وفي الطاء من (بطشتنا) وفي الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى الواو من قوله (بطشَتَنا فَتَمَارَوْا) مع الفصل بالمد، ليكون ثقل الضمة عليه مستَخفاً بعد، ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكونَ الاحماض في الأطعمة.

٢ ـ وفي القرآن لفظة غريبة هي من اغرب ما فيه، وما حَسنت في كلام قط الا في موقعها فيه، وهي كلمة (ضيزى) من قوله تعالى ﴿تِلكَ إذاً قِسمَةٌ ضِيْزَى﴾ ومع ذلك فإن حُسْنها في نظم الكلام من أغرب الحُسن ومن أعجبه، ولو أردت اللغة العربية ما صَلُح لهذا الموضع غيرها، فإن السورة التي هي منها وهي سورة (النجم) مفصّلة كلها على الياء، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل، ثم هي في معرض الإنكار على العرب، إذ وردت في ذكر الاصنام، وزعمهم في قسمة الاولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات لله، مع وأدهم للبنات فقال تعالى ﴿ألكُمُ الذَّكَرَ ولَهُ الأنثى★ تلكَ إذاً قسمةٌ ضِيزَى﴾[1] فكانت غرابة اللفظة أشد الاشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي انكرها، وكانت الجملة كلها كأنها تصوّر في هيئة النطق بها، الإنكار في الأولى، والتهكم في الاخرى، وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل..

٣ ـ ومما لا يسعه طوق انسان في نظم الكلام البليغ، ثم مما يدل على ان نظم القرآن مادة فوق الصنعة، ومن وراء الفكر، وكأنها صُبّت على الجملة صباً، انك ترى بعض الالفاظ لم يأت فيه إلا مجموعاً، ولم يستعمل منه صيغة المفرد، فإذا احتاج الى هذه الصيغة استعمل مرادفها، كلفظة (اللُب) فإنها لم ترد إلا مجموعة كقولة تعالى ﴿إنّ في ذلكَ لَذِكرى لأولي الألباب﴾[2] وقوله ﴿وليذّكَرَ أولو الألبابِ﴾[3] ونحوهما ولم ترد فيه مفردة، بل جاء مكانها (القلب) في قوله تعالى ﴿إنّ في ذلك لذِكْرَى لِمَنْ

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٢١، ٢٢.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢١.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٥٢.

كانَ لَهُ قَلْبٌ أوْ ألْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهيدٌ﴾ [1] وذلك لان لفظ (الباء) شديد مجتمع، ولا يُفضي الى هذه الشدّة الا من اللام الشديدة المسترخية، فلما لم تحسن اللفظة اسقطها من نظمه بتّة..

وكذلك لفظ (الكوب) استعملت فيه مجموعة، ولم يأت بها مفردة، لأنه لا يتهيأ فيها ما يجعلها في النطق ـ من الظهور والرقّة والانكشاف وحسن التناسب ـ كلفظ (أكواب) الذي هو الجمع، و (الارجاء) لم يستعمل القرآن لفظها إلا مجموعاً، وترك المفرد وهو الرّجا: اي الجانب لعلة لفظه، وانه لا يسوغ في نظمه كما ترى..

وعكس ذلك لفظة (الأرض) فإنها لم ترد فيه الا مفردة، ولم يرد في القرآن صيغة الجمع (أرضين) ولما احتاج الى جمعها اخرجها على هذه الصورة التي ذهبت بسر الفصاحة، وذهب بها حتى خرجت من الروعة بحيث يسجد لها كل فكر سجدة طويلة، وذلك في قوله تعالى: ﴿اللهُ الّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمواتٍ ومنَ الأرضِ مِثلَهُنَّ، يتنزّلُ الأمرُ بَينَهُنّ﴾ [2] ولم يقل (وسبع أرضين) لهذه الجسأة التي تدخل للفظ، ويختل بها النظم اختلالاً...

٤ ـ وتأمل قوله تعالى ﴿فأرسَلنا عليهِمْ الطّوفانَ، والجرادَ والقُمّلَ، والضّفادعَ، والدّمَ، آياتٍ مفصّلاتٍ﴾ [3] فإنها خمسة اسماء، أخفها في اللفظ (الطوفان، والجراد، والدم) وأثقلها (القمّل والضفادع) فقدّم (الطوفان) لمكان المدّين فيها، حتى يأنس اللسان بخفتها، ثم (الجراد) وفيها كذلك مدّ، ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئاً باخفهما في اللسان، وابعدهما في الصوت لمكان تلك الغُنّة فيه، ثم جيء بلفظة (والدم) آخراً، وهي اخف الخمسة واقلها حروفاً، ليسرع اللّسان فيها، ويستقيم لها ذوق النظم، ويتم بها هذا الاعجاز في التركيب، وانت فمهما قلّبت هذه الاسماء الخمسة، فإنك لا ترى لها فصاحة الا في هذا الوضع، فلو قدّمت او أخرت لبادرك

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٧.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٣٣

التهافت والتعثر، ولأعنتك ان تجيء منها بلفظٍ، او نظم فصيح..

من ذلك يخلص لنا أنّ القرآن الكريم إنما ينفرد بأسلوبه، لأنه ليس وضعاً انسانياً البتة، ولو كان من وضع انسان لجاء على طيقة تشبه أسلوبا من أساليب العرب، او من جاء بعدهم الى هذا العهد ﴿**وَلَو كانَ مِن عِندِ غَيْرِ الله لَوجَدُوا فيهِ اختِلافاً كَثِيراً**﴾[1] ولقد أحس العرب بهذا المعنى، واستيقنه بلغاؤهم، ولولاه ما افحموا، ولا انقطعوا من دونه، لأنهم رأوا جنسا من الكلام غير ما توديه طباعهم، وكيف لهم في معارضته بطبيعة غير مخلوقة[2] ؟!..

ويقول المرحوم فضيلة الشيخ (الزرقاني) في موضوع خصائص أسلوب القرآن:.

(للقرآن مسحة خلابة عجيبة، تتجلّى في نظامه الصّوتي، وجماله اللغوي.. ونريد بنظام القرآن الصوتي: اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته، ومدّاته وغنّاته، واتصالاته وسكتاته، اتساقاً عجيباً، وائتلافاً رائعاً، يسترعي الاسماع ويستهوي النفوس، بطريقة لا يمكن أن يصل اليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور..

ونريد بجمال القرآن اللغوي، تلك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن في وصف حروفه وترتيب كلماته، ترتيباً دونه كل ترتيب تعاطاه الناس في كلامهم، ولقد وصل هذا الجمال اللغوي الى قمة الاعجاز، بحيث لو دخل في القرآن شيء من كلام الناس، لاعتلّ مذاقه في افواه قارئيه، واختل نظامه في آذان سامعيه، ومن عجيب أمر هذا الجمال اللغوي ، وذلك النظام الصوتي، انهما كما كانا دليل اعجاز من ناحية، كانا سُوراً منيعاً لحفظ القرآن من ناحية أخرى، وذلك ان من شأن الجمال اللّغويّ، والنظام الصوتيّ، ان يسترعي الاسماع، ويثير الانتباه، ويحرّك داعية الإقبال في كل إنسان، إلى هذا القرآن الكريم، وبذلك يبقى أبد الدهر سائداً على ألسنة الخلق وفي آذانهم، ويُعرف بذاته ومزاياه بينهم فلا يجرؤ احد على تغييره وتبديله، مصداقاً لقوله سبحانه:

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٢) إعجاز القرآن للرافعي، ص ٢٦١.

﴿إنّا نحنُ نَزّلْنا الذّكْرَ، وإنّا لَهُ لحافِظُون﴾[1].

ومن خصائص اسلوب القرآن العظيم انه يخاطب العقل والقلب معاً، ويجمع الحق والجمال معاً، انظر إليه وهو في معمعان إقامة الدليل العقلي على البعث والنشور في مواجهة المنكرين المكذبين، كيف يسوق استدلاله سوقاً يهز القلوب هزاً، ويمتع العاطفة امتاعاً، بما جاء في طيّ هذه الادلة المسكتة المقنعة، إذ قال سبحانه في سورة (فصّلت):.

﴿ومنْ آياتِه أنّكَ ترى الأرضَ خاشِعةً، فإذا أنزَلْنا علَيْها الماءَ اهتزّتْ ورَبَتْ، إنّ الّذي أحياها لَمُحْيي الموْتى، إنّهُ على كُلّ شيْءٍ قَديرٌ﴾[2]. واستمع إليه في سورة (ق) إذ يقول:.

﴿ونَزّلْنا مِنَ السّماءِ ماءً مُباركاً فأنْبَتْنا بهِ جَنّاتٍ وحَبَّ الحَصيدِ* والنّخلَ باسِقَاتٍ لهَا طَلْعٌ نَضيدٌ* رِزْقاً للعِبادِ وأحْيَيْنَا بهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الخُرُوجُ﴾[3]..

تأمل هذا الاسلوب البارع، الذي اقنع العقل، وامتع العاطفة في آنٍ واحد، حتى في الجملة التي هي بمثابة النتيجة من مقدمات الدليل، إذ قال في الآية الأولى ﴿إنّ الّذي أحْياهَا لَمُحْيي الموْتى﴾ وفي الآيات الأخيرة قال ﴿كذلِكَ الخُروجُ﴾ أي الخروج من القبور، والبعث والنشور..

يا لَلجمال الساحر، ويا لَلإعْجاز الباهر، الذي يستقبل عقل الانسان وقلبه معاً، بأنصع الأدلة، واجمل البيان، في هذه الكلمات المعدودات!!.

ثم أنظر الى القرآن وهو يسوق قصة (يوسف) مثلاً، كيف يأتي في خلالها بالعظات

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٩. أنظر: مناهل العرفان، ج ٢، ص ٢٠٨.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٩.

(٣) سورة ق، الآيتان: ٩ ـ ١١.

البالغة، ويطلع من خلالها بالبراهين الساطعة، على وجوب الاعتصام، بالعفاف، والشرف، والأمانة، إذ قال في فصل من فصول تلك القصة الرائعة:.

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَغَلَّقَتِ الأَبْوابَ، وقَالَتْ: هَيْتَ لَكْ، قالَ مَعاذَ اللهِ إنّهُ رَبّي أحْسَنَ مَثْوايَ، إنّه لا يُفلحُ الظّالِمونَ﴾[1]..

فتأمل في هذه الآية كيف قوبلت دواعي الغواية الثلاث، بدواعي العفاف الثلاث، مقابلة صورت من القصص الممتع جدالاً عنيفاً بين (جند الرحمن) و (جند الشيطان) ووضعتها امام العقل المنصف في كفتي ميزان!! وهكذا تجد القرآن كلّه مزيجاً حلواً سائغاً، يخفّف على النفوس ان تجرع الأدلة العقلية، ويرفه عن العقول باللفتات العاطفية، فهل تسعد بمثل هذا في كلام البشر؟ لا، ثم لا، فكلام البشر إنْ وفى بحقّ العقل، بخس العاطفة حقها، وإن وفى بحقّ العاطفة بخس العقل حقه، حتى لقد بات العرف العام يقسم الاساليب البشرية الى قسمين، لا ثالث لهما (اسلوب علمي) و (اسلوب ادبي) فطلاب العلم لا يرضيهم اسلوب الادب، وطلاب الادب لا يرضيهم اسلوب العلم، وهكذا تجد كلام العلماء والمحققين فيه من الجفاء والعري، ما لا يهز القلوب ويحرّك النفوس، وتجد في كلام الأدباء والشعراء، من الهُزال والعقم العلمي ما لا يغذي الأفكار ويقنع العقول، اما القرآن فقد انفرد بهذه المزيّة بين أنواع الكلام، لأنه تنزيل من القادر الذي لا يشغله شأن عن شأن ﴿فتباركَ اللهُ ربُّ العالمين﴾[2].

٣ ـ الوجه الثالث من وجوه الاعجاز، ذلك الايجاز الرائع، والجزالة[3] الخارقة التي ليس بإمكان مخلوق من البشر ان يحيط بها، أو يأتي بمثلها لأنها فوق الطاقة البشرية، والقدرة الانسانية. لقد كان البدوي، راعي الغنم، يسمع القرآن فيخر ساجداً لله رب العالمين، وذلك لروعة هذا الكتاب المجيد، ولما يفعل به في نفوس السامعين، وهو دليل رقة الإحساس، ولطف الشعور من اولئك الرعاة الجفاة.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٣.

(٢) سورة غافر، الآية: ٦٤. أنظر مناهل العرفان، ص ٢١٠.

(٣) المراد بالجزالة: الفخامة في الألفاظ، والإجادة في التعبير مع قوة الحبك وعدم التعقيد.

قصة الجارية والأصمعي:.

يروى أن (الأصمعي) خرج ذات يوم فلقي جارية خماسيّة او سداسيّة، وسمعها تنشد أبياتاً من الشعر رائعة، فأعجب بتلك الابيات وهزّت منه النفس والقلب، بجمال اسلوبها، وروعة بيانها، وفصاحة الفاظها، فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك؟ فقالت له: ويحك أوَ يعد هذا فصاحة بعد قول الله تبارك وتعالى ﴿**وأوحينا إلى أمِ مُوسى أنْ أرضِعِيهِ، فإذا خفتِ عليهِ فألقيهِ في اليمّ، ولا تخافي ولا تحزني إنّا رادّوه إليكِ وجاعِلوهُ مِن المُرْسَلين**﴾[١] ثم قالت له: فقد جمعت هذه الآية على وجازتها بين أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين[٢].. الخ. قال الاصمعي فأعجبت بفهمها وإدراكها اكثر ما اعجبت بشعرها، فهي جارية بدوية صغيرة السن ولكنها واسعة العلم والفهم، أما الأبيات التي كانت تنشدها فهي قولها:.

(أستغفـــر الله لـــذنبي كلّـــه   قبّلـت إنســانـــاً بغير حلّـــه)
(مثـل الغــزال نــاعماً في دلّــه   وانتصــف الليـــل ولم أصلّـــه)

وقد أشارت هذه الجارية على الأصمعي بروعة ما في القرآن من بلاغة وفصاحة، وإيجاز وإعجاز، فالآية الكريمة جمعت بين امرين وهما (أرضعيه) و(ألقيه في اليمّ) ونهيين وهما (لا تخافي) و(لا تحزني) وخبرين وهما (أوحينا) و(خفت) وبشارتين وهما (إنا رادّوه إليك) و(جاعلُوه منَ المرسلين) فالبشارة الأولى برده اليها سليماً كريماً، والبشارة الثانية وهي أن الله سبحانه وتعالى سيجعله رسولاً هادياً. فانظر ـ رعاك الله ـ كيف أدركت هذه الجارية البدوية، بفطرتها العربية، سراً من أسرار هذا الايجاز والاعجاز، وانتبهت الى ما لم يدركه هو من أسرار هذا القرآن، فكأنّ الآية نظمت في عقد من اللؤلؤ والمرجان، فكانت لآلئها بميزان..

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧.

(٢) القصة ذكرها القرطبي في تفسيره الجزء الثالث عشر ص ٢٥٢، وذكرها صاحب المنار في الجزء الأول ص ٢٨ والمراد بقوله (خماسية او سداسية) أي طولها خمسة او ستة أشبار. أي أنها معتدلة القامة.

ب ـ ويروى أن (ابن المقفع) الكاتب البليغ المشهور، حاول أن يعارض القرآن ذات مرّة، فسمع صبياً يقرأ قوله تعالى: **﴿وقِيل يا أرْضُ ابْلَعي ماءَكِ، ويَا سَماءُ أقلِعي، وغِيضَ الماءُ، وقُضِيَ الأمرُ، واَسْتَوَتْ على الجُودِيّ، وَقيلَ بُعْداً للقومِ الظَّالمين﴾** [1] فكسّر الأقلام، ومزّق الصحف التي كان قد بدأ بها في المعارضة وقال: هذا والله مما لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، فمزق ما جمع واستحيا على نفسه من إظهاره.

وهكذا رجع الأديب الكبير البليغ عن عزمه، بعد ان حدثته نفسه بمعارضة بعض سوره لأنه شعر بروعة القرآن..

ثم انظر الى الجزالة والايجاز في أسلوب القرآن، وقارنها بأروع اسلوب نطق به عربي، وهو أسلوب افصح من نطق بالضاد، سيد المرسلين محمد بن عبد الله، الذي شهد ببلاغته وفصاحته اعداؤه قبل أنصاره، قارن بين (القرآن والسنة النبوية) تجد الفرق شاسعاً، والبون بعيداً، كفرق ما بين السماء والأرض، فبلاغة القرآن ونضارته واشراقته في أعلى طبقات الإحسان، وأرفع درجات الايجاز والبيان، تأمل قوله ﷺ في صفة الجنة وما فيها من نعيم وخلود:.

«فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر...» الحديث، وقارن بين هذه الألفاظ على روعتها وبين قوله تعالى في وصف نعيم أهل الجنة..

﴿وفيها ما تَشْتهِيهِ الأنفُس، وتلذّ الأعين..﴾ [2] الآية. وقوله تعالى **﴿فَلا تعلَمُ نَفسٌ ما أُخفِيَ لهم مِنْ قرّةِ أعيُن﴾** [3] فهذا أعدل وزناً، وأحسن تركيباً، وأعذب لفظاً، وأجزل عبارة، وأقل حروفاً.!!.

ووازن بين قوله ﷺ «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الرجل راع في بيته

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٧١.

(٣) سورة السجدة، الآية: ١٧.

ومسؤول عن رعيته » الحديث. وبين قوله تعالى ﴿فَوَرَبِّكَ لَنسألَنَّهُم أجْمَعينَ ★ عمّا كانُوا يَعْمَلون﴾ [١] وقوله ﴿فَلَنَسْألَنَّ الذينَ أُرْسِلَ إليْهِم ولنَسْألَنَّ المُرسَلين﴾ [٢] وكذلك قارن بين سائر اقواله ﷺ وبين القرآن الكريم تجد أن كلام الرسول على بلاغته لا يخرج عن كونه كلام بشر في الذروة العليا من الكلام، أما كلام الله تعالى فلا يشبهه كلام لانه كلام خالق البشر، انظر إليه وهو يتحدث في جزء آية من آياته المجيدة عن احوال الامم السابقين، ومآل الجاحدين المكذبين، وما حل بهم من كوارث ونكبات، نتيجة لطغيانهم وتمردهم، ثم كيف انتقم الله منهم جميعاً بعد ان جاوزوا الحدّ في الطغيان، فلم ينج منهم إنسان يقول جلّ ثناؤه:.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أرْسَلنا عَلَيْهِ حَاصِباً، ومنهم مَنْ أخَذَتْهُ الصَيْحَةُ، ومِنْهُم مَنْ خَسَفْنا بهِ الأرضَ، ومِنْهُم مَن أغْرَقْنا، ومَا كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كانوا أنفُسَهُمْ يَظْلِمون﴾ [٣]..

يقول القرطبي رحمه الله نقلاً عن (ابن الحصّار): وهذه الثلاثة اوجه من (النظم، والاسلوب، والجزالة) لازمة كل سورة، بل هي لازمة كل آية، وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التحدّي والتعجيز، ومع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة، من غير ان ينضاف اليها أمر آخر من الوجوه العشرة، فهذه سورة (الكوثر) ثلاث آيات قصار، وهي اقصر سورة في القرآن، وقد تضمنت الإخبار عن معنيين:.

أحدهما: الإخبار عن الكوثر (نهر في الجنة) وعظمه وسعته وكثرة اوانيه، وذلك يدل على ان المصدقين به أكثر من أتباع سائر الرسل..

والثاني: الإخبار عن (الوليد بن المغيرة) وكان عند نزول الآية ذا مال وولد، ثم

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٩٢، ٩٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٦.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٠.

أهلك الله سبحانه ماله وولده[1]، وانقطع نسله[2]..) انتهى.

٤ ـ التشريع الالهي الكامل:.

ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم ذلك التشريع الإلهي الكامل، الذي يسمو فوق كل تشريع وضعي عرفه البشر، في القديم والحديث، فالقرآن الكريم هو الذي وضّح أصول العقائد، وأحكام العبادات، وقوانين الفضائل والآداب، وقواعد التشريع الاقتصادي، والسياسي، والمدني، والاجتماعي، وهو الذي نظّم حياة الاسرة، والمجتمع، ووضع أعدل المبادىء الإنسانية الكريمة التي ينادي بها دعاة الإصلاح في القرن العشرين ألا وهي (المساواة، الحرية، العدالة التي يسمونها (الديمقراطية) الشورى) الى غير ما هنالك من أسس الحضارة والتشريع، الذي تسعى اليه المدنية الحديثة. ففي العقائد دعا القرآن الى عقيدة طاهرة سامية، واضحة جلية، عمادها الايمان بالله عز وجل والتصديق بجميع انبيائه ورسله، والايمان بجميع الكتب السماوية مصداقاً لقوله تعالى:.

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ، كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾[3]. ودعا أهل الكتاب (اليهود والنصارى) الى كلمة سواء، لا انحراف فيها ولا التواء قال تعالى: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**[4]..

---

(١) معنى الأبتر: الذي لا ولد له ولا نسل، والشانيء معناه: المبغض، وقد قال الزمخشري أنها نزلت في (العاص بن وائل).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج ١، ص ٧٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

وفي العبادات جاء القرآن العظيم بأسس العبادات ودعائمها، فشرع الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، وسائر اعمال البرّ والطاعة، وليست (العبادة) في الاسلام قاصرة على هذه الدعائم والأركان، بل هي تشمل كل عمل خير، وفعل برّ او طاعة، ولهذا فإن العلماء قرروا أن كل عملٍ يقصد به الإنسان وجه الله يكون عبادة، وقالوا (إن النية الصالحة تقلب العادة الى عبادة) فإذا عمل الإنسان واحترف له صنعة بقصد التعفف عن الحرام والإنفاق على أهله وعياله، وإذا اكل أو شرب بقصد التقوّي على طاعة الله كان عمله عبادة يثاب عليها، والاصل في هذا قول النبي الكريم «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا اجرت عليها، حتى اللقمة تضعها في فيّ امرأتك) الحديث[1]. وقوله ﷺ «وفي بُضْع احدكم صدقة، قالوا يا رسول الله: أيأتي احدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام اكان عليه وزر؟ فكذلك اذا وضعها في حلال كان له أجر»[2] وإذا امعنا النظر في اصول العبادات المفروضة نجد ان الإسلام قد وسّعها ونوّعها، وجعلها ضروباً متفاوتة، فمنها ما هو (عبادة مالية) كالزكاة والصدقات، ومنها ما هو (عبادة بدنية) كالصلاة والصيام، ومنها ما هو يجمع بين الامرين (عبادة مالية وبدنيّة) كالجهاد في سبيل الله يكون بالمال والنفس وهذا التنويع له مغزاه وحكمته السامية وذلك لئلا تألف النفس شيئاً فتصبح لها عادة او تملّ وتضجر من العبادة الواحدة. وفي مجال (التشريع العام) نجد القرآن العظيم قد وضع قواعد عامة في التشريع المدني، والجنائي، والسياسي، والاقتصادي، ووضع أسساً للتعامل الدولي في حالة السلم والحرب، على اكمل وجه واعدل نظام، ففي أمر المعاملات حرّم القرآن اكل اموال الناس بالباطل **﴿يا أيها الّذين آمَنُوا لا تَأكُلوا أمْوالَكُم بَيْنَكُم بالبَاطِلِ إلاَّ أن تَكونَ تِجارَةً عن تَراضٍ مِنْكُم﴾**[3]

---

(١) الحديث من رواية البخاري في قصة (سعد بن أبي وقاص) حين دخل الرسول ﷺ يزوره من وجع اشتد به.

(٢) الحديث من رواية مسلم، وهو في باب كثرة طرق الخير وأوله: أن ناساً قالوا يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٩.

الآية، ودعا الى الإشهاد عند إبرام البيع وبكتابة الدين ﴿يا أيها الذين آمَنُوا إذا تَدايَنتُم بِدَيْنٍ إلى أجلٍ مُسَمًّى فَاكتُبوهُ وَلْيَكتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بالعَدْلِ﴾[1] الآية. وفي الأمور الجنائية شرع القرآن الحدود، وأوجب على الأمة تنفيذها، من أجل حماية المجتمع وصيانته من الفوضى والاضطراب وتأمين الأمة على حياتها ومستقبلها، وأموالها وأعراضها لتعيش الحياة الكريمة السعيدة التي لن تكون إلا عن طريق (الأمن والاستقرار)..

وقد نص القرآن الكريم على أمهات الجرائم، وأعظمها خطراً على مستقبل الفرد والجماعة، ووضع لكلٍ منها عقوبات مقدرة لا يجوز الزيادة عليها او النقصان منها، أو التساهل في تطبيقها، وترك ما سوى ذلك من (الجرائم الخفيفة) للحاكم المسلم، ينفّذ فيها ما يراه من العقوبة، على ضوء السنة النبويّة المطهّرة، وبالشكل الذي يحقق روح الإسلام من إرادة الخير للناس، وتطهير المجتمع من المفاسد والمظالم الاجتماعية، أما الجرائم الكبيرة التي عين لها القرآن عقوبات رادعة فهي خمسة: (جريمة القتل، جريمة الزنى، جريمة السرقة، جريمة قطع الطريق، جريمة الاعتداء على كرامة الناس بالقذف)..

ولعلّ أروع مثلٍ للمقارنة بين (التشريع الإلهي القرآني) وبين (التشريع الوضعي) الذي هو من صنيع البشر ذلك الأثر العظيم الذي تركه القرآن الكريم في نفوس العرب بسبب تلك الطريقة الحكيمة التي سلكها في معالجة المفاسد والأمراض الاجتماعية، حيث قضى على كل فساد، واستأصل كل جريمة من نفوسهم، وجعلهم خير أمة اخرجت للناس، فملكوا الدنيا وسادوا العالم..

أمثلة من واقع الحياة:.

ومن الأمثلة على تفوّق ذلك التشريع القرآنيّ الحكيم، على بقية التشاريع البشرية

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

والنظم الارضية ما نلمسه في واقع الحياة، ويمكن ان نشير إشارة خاطفة الى سموّ الشريعة الإسلامية على بقية النظم فيما يلي:.

١ ـ منذ زمن قريب حرّمت (أمريكا) الخمر، ولكنها فشلت ولم تنجح لأنها لم توفق الى الطريقة الحكيمة التي اتّبعها الإسلام في تحريم الخمر، فعادت الى إباحته مع اعتقادها بضرره الفادح..

٢ ـ أباحت بعض الدول الغربية وخاصة (أمريكا) الطلاق بعد ان كان ممنوعاً لديها بسبب تعاليم الكنيسة، ولكنها أسرفت فيه إلى درجة ضارّة، ولا تزال تأخذ بتشريع الطلاق..

٣ ـ مصلحو اوربا يرفعون اصواتهم بضرورة السماح (بتعدد الزوجات) حتى بعض نسائهم طالبن بذلك نتيجة لكثرة العوانس من النساء، بحيث أصبحت المشكلة ذات أهميّة خطيرة على المجتمع الاوربي..

٤ ـ الخيانات الزوجية انتشرت في المجتمع الاوربي (المتمدّن) بشكل فظيع، وبصورة مذهلة حتى أصبحت الاسر مهددة بانفصام عراها، وكثر فيها اللقطاء وذلك بسبب السفور والتبرج والاختلاط بين الجنسين..

٥ ـ إسبانيا أصدرت حكومتها قراراً وسنت قانوناً بمنع البغاء الرسمي في بلادها، وبمنع النساء من البروز على الشواطيء في ثياب الاستحمام..

٦ ـ زعيم فرنسا نادى غداة هزيمتها امام الألمان في الحرب الاخيرة يقول: إن سبب انهيار دولة فرنسا وسبب هزيمتها وانكسارها هو انغماسهم في الشهوات الجنسية، وإسرافهم في المفاسد والمفاتن..

٧ ـ وأخيراً نجد ان الجرائم تزداد في كل يوم في المجتمع المتمدن (المجتمع العربي) مع صراحة العقوبات المشروعة، عندهم بالحبس والسجن السنوات الطوال، او الإعدام بالشنق، ومع ذلك نجد الجرائم المروّعة من خطف للفتيات والفتيان، وإزهاق للأرواح، وسرقة ـ في وضح النهار ـ للبيوت والبنوك والمحلات الكبيرة حتى لقد اصبحنا نسمع عن وجود عصابات خطيرة، تهدد امن البلاد وسلامة العباد، وذلك مز

أعظم البراهين على فشل النظم الوضعية، والتشريعات البشرية، اما الاسلام فقد حقق الامن والسلام، وقضى على الجريمة في مهدها ولقد أحسن من قال:

(أينما نظّمت عقول ضعاف — من نظام المهيمن الديّان)
(إيه عصرَ العشرين ظنوك عصراً — نيّر الوجه مسعد الانسان)
(لست نوراً بل انت نار وظلم — مُذْ جعلتَ الإنسان كالحيوانِ)

ذلك هو الفرق بين تشريع الرحمن، وتشريع الإنسان، ولكن أكثر الناس لا يعلمون[1].

٥ ـ الإخبار عن المغيّبات:.

ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم (إخباره عن المغيّبات) وذلك برهان ساطع، ودليل قاطع على أن هذا القرآن ليس من كلام البشر، إنما هو كلام علاّم الغيوب، الذي لا تخفى عليه خافية، ولو كان من صنع محمد ـ كما زعموا ـ لظهرت علائم الوضع في تلك الأخبار الغيبية، بوقوعها على خلاف ما اخبر ولافتضح امره بالكذب الصريح، وحاشاه ﷺ من الكذب على الله..

أ ـ فمن هذه الاخبار الغيبية، إخباره عن الحرب التي ستقع بين الروم والفرس، وستكون الغلبة فيها والانتصار للروم بعد ان انكسروا في الحرب السابقة وذلك في قوله تعالى:

﴿أَلَم★ غُلِبَتْ الرّوم★ في أدنى الأرضِ وهُمْ مِنْ بعدِ غَلَبِهم سَيَغلِبون★ في بِضعِ سِنِين، لله الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بعدُ ويَوْمَئِذٍ يَفْرحُ المؤمِنون★ بنصرِ الله، يَنْصُرُ مَنْ يَشاء وَهُوَ العزيزُ الرّحيم﴾[2]..

يذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية ان حرباً وقعت بين دولة الروم وهي

---

(١) أنظر كتاب مناهل العرفان للزرقاني.

(٢) سورة الروم، الآيات: ١ ـ ٥.

(مسيحية) ودولة الفرس وهي (وثنية) فانتصر الفرس على الروم، ففرح المشركون وشمتوا وقالوا للمسلمين: تزعمون انكم أهل كتاب وأن النصارى أهل كتاب، وها قد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرنّ نحن عليكم، فاغتمّ المسلمون وحزنوا لانهزام الروم وهم دولة متدينة، أمام دولة الفرس وهم وثنيون، فنزلت الآية الكريمة تبشر المسلمين بانتصار الروم على الفرس في مدة وجيزة تتراوح بين الثلاث والتسع من السنين (في بضع سنين) ولم يكن مظنوناً وقت تلك البشارة أن الروم تنتصر على الفرس، لأن الحروب الطاحنة انهكتها حتى غزيت في عقر دارها، ولأن دولة الفرس كانت قوية منيعة، وزادها الظفر الأخير قوة ومنعة. فلما نزلت الآية الكريمة راهن ابو بكر بعض المشركين وهو (أبي بن خلف) على مائة ناقة الى تسع سنين، ولم تمض المدة حتى وقعت الحرب بين الروم والفرس، فانتصر فيها الروم وانهزمت الفرس وتحققت نبوءة القرآن وذلك ـ ٦٢٢ ـ ميلادية الموافقة للسنة الثانية من الهجرة النبوية، وكسب أبو بكر الرهان فأمره ﷺ بالتصدق به..

وفي الآية نبوءة اخرى وهي ان المسلمين سيفرحون بنصرٍ قريب، في الوقت الذي ينتصر فيه الروم ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون★ بنصر الله..﴾ ولقد صدق الله وعده في هذه كما صدقه في تلك، فكان ظفر المسلمين في بدر واقعاً في الظرف الذي انتصر فيه الروم، وهكذا تحققت النبوءتان في وقت واحد بفضل الله..

يقول الزمخشري: (وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوّة، وأن القرآن من عند الله، لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله)[1].

ب ـ التنبؤ بدخول الرسول واصحابه مكة آمنين مطمئنين.. روي ان النبي ﷺ رأى رؤيا في منامه وذلك قبل خروجه الى الحديبية، رأى كأنه هو وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصّروا فقصّ الرؤيا على أصحابه، ففرحوا واستبشروا، وحسبوا انهم داخلوها من عامهم، وقالوا: إن رؤيا رسول الله ﷺ

---

(١) انظر الكشاف، ج ٤ ص ٣٤٥. في سبب نزول الآية الكريمة.

حق، فلما كان صلح الحديبية خرجوا من المدينة محرمين يسوقون الهدي إلى مكة لا يقصدون حرباً، وإنما يقصدون العمرة والنسك، ولكنّ قريشاً صدّتهم، وكادت تقع الحرب بين المسلمين والمشركين لولا ان الرسول ﷺ رضي معهم بالصلح إثاراً منه للسّلم وحباً للسلام العام، وكان من شروط ذلك الصلح ان يرجع الرسول ومن معه من ذلك العام على ان يدخلوا مكة في العام القابل، واتخذ المنافقون ضعفاء الايمان من ذلك سبيلاً الى الطعن والدسّ واللمز، حتى قال رئيس المنافقين (عبد الله بن أبيّ): والله ما حلقنا، ولا قصّرنا، ولا رأينا المسجد الحرام، ولكن نزلت الآية الكريمة تحمل تلك الوعود الثلاثة المؤكدة وهي: دخول مكة، وأداء النسك، والأمن من قريش، على رغم ما هو معروف من غدر قريش ونكثهم العهود، وتقطيعهم الأرحام، وقد انجز الله وعده فتمّ الأمر ودخل المؤمنون مكة آمنين مطمئنين وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿لقدْ صَدقَ الله رَسُولَهُ الرّؤيا بالحَقّ، لَتَدْخُلُنّ المسْجِدَ الحرَامَ، إنْ شاءَ الله آمِنينَ مُحلّقينَ رُؤوسَكُمْ ومُقصّرين، لا تخافُونَ، فَعَلِمَ ما لم تَعْلَمُوا فجعَلَ مِنْ دون ذَلكَ فَتْحاً قريباً﴾ [١].

ج ـ تنبؤ القرآن بانهزام المشركين قبل وقوع الحرب وذلك في قوله تعالى في سورة القمر:.

﴿أمْ يَقُولونَ نحنُ جَميعٌ مُنْتَصِرٌ ★ سَيُهزَمُ الجمعُ ويولّون الدّبُرَ ★ بَلِ السّاعةُ مَوْعدُهم وَالسّاعةُ أدْهى وأمَرّ﴾ [٢] وسورة القمر مكّية، والجهاد لم يشرع إلاّ في السنة الثانية من الهجرة، فأين هي إذاً فكرة الحرب، ومن الذي كان يجول بخاطره ان ينهزم جمع المشركين، وينتصر عليهم المسلمون وهم قلّة في العَدَد والعُدَد؟ ولكنه وعد الله لا يخلف..

روي عن عكرمة انه قال: لما نزلت هذه الآية **﴿سَيُهزَمُ الجمعُ ويُولّون الدّبر﴾**

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٧.

(٢) سورة القمر، الآيات: ٤٤ ـ ٤٦.

قال عمر بن الخطاب: أيّ جمع هذا الذي سيُهزم؟ فلما كانت غزوة بدر رأى رسول الله ﷺ وهو يثب في الدرع ويقول (سيهزم الجمعُ ويُولّون الدّبُر) فعرف عمر تأويلها [١]. وروي عن ابن عباس: كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين..

د - تنبؤ القرآن بذلك المستقبل الاسود الذي ينتظر كفار قريش، وذلك في قوله تعالى في سورة الدخان:.

﴿فَارْتَقِبْ يَومَ تأتي السّماء بِدُخانٍ مبين★ يَغْشى النّاسَ هذا عَذابٌ أليم★ ربّنا اكْشِفْ عنّا العَذابَ إنّا مُؤمِنونَ★ أنّى لهمُ الذّكرى وَقَدْ جاءَهُم رَسُولٌ مُبينٌ★ ثمّ تَوَلّوْا عنهُ وَقالُوا مُعَلّمٌ مجنون★ إنّا كاشِفُوا العَذابَ قَليلاً إنّكم عائِدون★ يَوْمَ نَبْطشُ البطْشَةَ الكُبْرى إنّا مُنْتَقِمُون﴾ [٢]..

وسبب نزول هذه الآيات الكريمة أن أهل مكة لما كذّبوا رسول الله ﷺ واستعصوا وتمرّدوا عليه، دعا عليهم فقال: «اللهم أعنّي عليهم بسبع كسبع يوسف، فأخذتهم سنة حصّت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع، وينظر احدهم الى السماء فيرى كهيئة الدخان، فأتاه (أبو سفيان) فقال: يا محمد إنك جئت تأمر بطاعة الله، وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا فادعوا الله لهم فأنزل الله هذه الآيات الكريمة» [٣]..

قال الزرقاني رحمه الله: وفي هذه الآيات عند التأمل خمسة تنبؤات:.

أولها: الإخبار بما يغشاهم من القحط والجوع حتى يرى الرجل بينه وبين السماء كهيئة الدخان..

الثاني: الإخبار بأنهم سيضرعون الى الله حين تحل بهم هذه الازمة..

---

(١) أنظر الكشاف، ص ٤٤٠، الجزء الرابع.

(٢) سورة الدخان، الآيات: ١٠-١٦.

(٣) الحديث من رواية البخاري ومسلم.

الثالث: الإخبار بأن الله سيكشف عنهم ذلك العذاب قليلاً..

الرابع: الإخبار بأنهم سيعودون إلى كفرهم وعتوّهم..

الخامس: الإخبار بأن الله سينتقم منهم يوم البطشة وهو يوم بدر. ثم قال: ولقد حقق الله ذلك كله ما انخرم منه ولا نبوءة واحدة، فأصيبوا بالقحط حتى أكلوا العظام وجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من شدة جوعه وجهده، ثم قالوا متضرعين ﴿رَبّنا اكْشِف عنّا العذابَ إنّا مُؤمِنون﴾، ثم كشف الله عنهم العذاب قليلاً ثم عادوا الى كفرهم وعتوهم، فانتقم الله منهم يوم بدر فبطش بهم البطشة الكبرى حيث قتل منهم سبعون وأسر سبعون وأديل للمسلمين منهم. أرأيت ذلك كله هل يمكن ان يصدر مثله من مخلوق؟ كلاّ بل هو الله العزيز الحكيم [1]..

هـ ـ التنبؤ بإظهار الإسلام على جميع الأديان، وذلك في قوله تعالى:.

﴿هُوَ الذي أرْسَلَ رَسُولهُ بالهُدى وَدينِ الحق لِيُظْهِرَهُ على الدّين كلّهِ وَلَـو كرِهَ المشْرِكون﴾ [2].

وكذلك التنبؤ بالمستقبل الباسم الذي سيكون للمؤمنين وذلك في قوله تعالى:.

﴿وعَدَ اللهُ الّذين آمنُوا مِنكُم وعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَيَسْتَخلِفنَّهم في الأرضِ كما اسْتَخْلَفَ الّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، ولَيُمَكّنَنَّ لهمْ دينَهم الّذي ارْتضى لهم، وليبدلنّهُمْ مِنْ بعدِ خوْفِهِم أمناً﴾ [3].. الآية..

وقد تحقق هذا الوعد الإلهي فأظهر الله الإسلام على جميع الأديان، ومكّن للمسلمين في الأرض في حياة النبي ﷺ حتى استولوا على جميع البلاد العربية، ولم يبق جزء منها إلا دان للمسلمين بالطاعة ومن لم يدخل في الاسلام دخل في ذمة المسلمين، وخضع لسلطانهم،: ودفع الجزية لهم، ثم سار أصحابه من بعده إلى ارض كسرى

---

(١) أنظر مناهل العرفان، ج ٢، ص ٢٧٣.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

(٣) سورة النور، الآية: ٥٥. أنظر: الكشاف للزمخشري، ج ٣، ص ٢٥٢.

وأرض هرقل، فأزالوا دولة الفرس، ودولة الرومان، ولم يمض قرن من الزمان حتى اتسعت رقعة الدولة الاسلامية، فصارت تمتد من بحر الظلمات في المغرب الى تخوم الصين في المشرق، فتحقق بذلك الوعد الكريم، وكان وعد الله مفعولاً..

وكل هذه ـ وأمثالها في القرآن كثير ـ أخبار عن المستقبل وقد تحققت جميعها، وهذا أمر خارق للعادة فكان وجهاً من وجوه الإعجاز لأن مثله لا يتفق إلا بإخبار من عند الله جلّ وعلا. ولا يغيب عن بالنا أن جميع القصص التي جاء في القرآن الكريم هو من باب الإخبار عن غيوب الماضي الذي أطلع الله رسوله الكريم عليه، وما كان له علم بها، ولهذا ذكر الله جلّ ثناؤه قصة نوح ثم اعقبها بهذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى:.

﴿تِلْكَ مِنْ أنباء الغَيْبِ نُوحِيها إليْك ما كُنتَ تَعْلَمُها أنت ولا قَوْمَكَ من قَبِلِ هذا، فاصْبِر إنّ العاقِبةِ للمتَّقين﴾[1]..

وما اروع قصص القرآن الذي نزل على خاتم المرسلين، ليكون تثبيتاً لقلبه وذكرى للمؤمنين؟! وذلك أعظم برهان على أنه تنزيل رب العالمين، فيا لها من حكمة سامية، ومعجزة باهرة!!

سادساً: عدم التعارض مع العلم الحديث:.

ومن وجوه إعجاز القرآن تلك الإشارات الدقيقة، إلى بعض العلوم الكونيّة، التي سبق اليها القرآن قبل ان يكتشفها العلم الحديث، ثم عدم تعارضه مع ما يكشفه العلم من نظريات علمية حديثة، وقد أشار القرآن الكريم الى هذه الناحية من نواحي الإعجاز بقوله جلّ شأنه:.

﴿سَنُرِيهِم آياتنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهم حتى يَتَبيَّن لهمْ أنَّهُ الحقّ، أو لم يكف بِربِّك أنّهُ على كل شيءٍ شَهيد؟﴾[2]..

---

(١) سورة هود، الآية ٤٩.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

ومع اعتقادنا بأن القرآن العظيم ليس كتاب طبيعة أو هندسة او فيزياء، وإنما هو كتاب (هداية وإرشاد) وكتاب (تشريع وإصلاح) ولكن مع ذلك لم تخل آياته من الإشارات الدقيقة، والحقائق الخفيّة، إلى بعض المسائل الطبيعيّة، والطبّية، والجغرافية مما يدل على إعجاز القرآن وكونه وحياً من عند الله، فمن المقطوع به ان محمداً ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وانه نشأ في بيئة بعيدة عن مظاهر الحضارة، حيث لم تكن علوم ولا معارف ولا مدارس تُقرأ فيها العلوم الكونية، لأن قومه وعشيرته كانوا (أميين) ومع ذلك فإن النظريات العلمية التي أشار إليها القرآن لم تكن معلومة في عصره، ولم يكتشف العلم أسرارها إلاّ منذ زمن قريب، وذلك من أصدق البراهين على ان هذا القرآن ليس من تأليف محمد - كما يزعم بعض المستشرقين - إنما هو وحي من الله، أنزله على قلب سيد المرسلين، بلسان عربي متين. ولقد أجاد الاستاذ (عفيف طبّارة) في كتابه (روح الدين الإسلامي) فذكر بعض هذه الحقائق العلمية الدقيقة، ونحن ننقل بعضها بشيء من الإيجاز مع التصرف.

الفصل الثامن

معجزات القرآن العلمية

أولاً: وحدة الكون:.

أظهر النظريات العلمية الحديثة تقول: إن الأرض كانت جزءاً من المجموعة الشمسية ثم انفصلت عنها وتبرّدت وأصبحت صالحة لسكنى الإنسان، ويبرهنون على صحة هذه النظرية بوجود البراكين والمواد الملتهبة في باطن الأرض، وقذف الارض بين حين وحين بهذه الحمم من المواد البركانية الملتهبة.. الخ..

هذه النظرية تتفق مع ما أشار اليه القرآن الكريم في قوله جل ثناؤه:.

﴿أوَ لم يَرَ الّذينَ كَفَروا أنّ السّمواتِ والأرضَ كانَتا رتْقاً[1] ففتَقْناهُما[2] وجَعلْنا مِنَ الماء كلّ شيءٍ حَيّ، أفلا تُؤمِنون﴾[3]..

يقول الاستاذ (طبارة): هذه معجزة من معجزات القرآن يؤيدها العلم الحديث الذي قرّر ان الكون كان شيئاً واحداً متصلاً من غاز ثم انقسم الى سدائم، وعالمنا الشمسي كان نتيجة تلك الانقسامات..اما الشطر الثاني من الآية **﴿وجَعلْنا مِنَ الماء**

---

(١) الرتق: الضم والإلتحام.

(٢) الفتق: الفصل بين الشيئين.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

كلّ شيء حيّ﴾ فهو من أبلغ ما جاء في تقرير حقيقة علمية أدرك العلماء سرّها، فمعظم العمليات الكيمياوية تحتاج إلى الماء، وهو العنصر الأساسي لاستمرار الحياة لجميع الكائنات والنباتات وللماء خواص أخرى تدل على ان مبدع الكون قد صمّمه بما يحقق صالح مخلوقاته، والماء يمتص كميات كبيرة من الأوكسجين عندما تكون درجة حرارته منخفضة، وعندما يتجمد تنطلق منه كميات كبيرة من الحرارة تساعد الأحياء التي تعيش في البحار من أسماك وغيرها، فما أعجب حكمة القرآن الذي يبين بكلمات جليلة سرّ الحياة؟!..

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في تفسير هذه الآية الكريمة: كانت السماء رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، فلمّا خلق للأرض أهلاً، فتق السماء بالمطر، وفتق الأرض بالنبات[1]..

أقول: هذا التفسير جيل وحسن ويكون من باب (الاستعارة) وهو الذي ذهب إليه المفسّرون القدامى، ولكن لا يمنع أن يكون في القرآن بعض هذه الروائع العلمية التي كشف عنها العلم الحديث، فالقرآن حمّال وجوه، وليس هناك تحكّم في فهم أسراره، فربما فهم المتأخرون ما لم يفهمه المتقدمون، والله تعالى يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ آياتنا في الآفاقِ وَفي أنفُسِهِمِ حتى يتبَيّن لَهُمْ أنَهُ الحقّ﴾[2]. فلعلّ هذا من الآيات التي أطلعهم الله عليها في القرن العشرين.

ثانياً: نشأة الكون:.

يقول العالم الفلكي (جينز): (إن مادة الكون بدأت غازاً منتشراً خلال الفضاء بانتظام، وإن السدائم (المجموعات الفلكية) خلقت من تكاثف هذا الغاز)..

ويقول الدكتور (جامو): (إن الكون في بدء نشأته كان مملوءاً بغاز موزّع توزيعاً منتظماً ومنه حدثت عمليات)..

---

(١) أنظر: تفسير ابن كثير: ج ٣، ص ١٨٧.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

هذه النظرية نجد لها في القرآن الكريم ما يؤيدها ـ ولولا أنّ القرآن أخبر عن ذلك لاستبعدنا هذه النظرية ـ يقول تعالى: ﴿ثم استَوى إلى السَّماء وَهيَ دُخانٌ، فقَالَ لها وَللأرضِ: أتِيَا طَوْعاً أوْ كُرْهاً، قالتا: أتَيْنا طَائِعين﴾ [1] فالقرآن صوّر مصدر خلق هذا الكون (بالدخان) وهو الشيء الذي يفهمه العرب من الأشياء الملموسة. أيكون في مقدور اميّ ـ منذ أربعة عشر قرناً ـ أن يدرك هذا في وقت كان الناس لا يعرفون شيئاً عن هذا الكون وخفاياه؟!.

ثالثاً: تقسيم الذرّة:.

ظلّ الاعتقاد السائد حتى القرن التاسع عشر أن الذرّة هي أصغر جزء يمكن ان يوجد في عنصر من العناصر. وأنها غير قابلة للتجزئة لأنها الجزء الذي لا يتجزأ، وقد مضت قرون على هذا الاعتقاد ومنذ عشرات السنين الماضية حوّل العلماء اهتمامهم الى مشكلة (الذرّة) فأمكنهم تجزئتها وتقسيمها، وقد وجدوا أنها تحتوي على الدقائق الآتية: (١) البروتون. (٢) النيترون. (٣) الالكترون، وبواسطة هذه التجزئة اخترعوا القنبلة الذرية، والقنبلة الهيدروجينية، ونعوذ بالله من قيام الساعة ومن شر ابليس اللعين. إستمع إلى قوله تعالى عند الإخبار عن الذرّة ﴿ومَا يَعزُبُ عَن رَبِكَ مِن مِثقَالِ ذرَةٍ في الأرضِ وَلا في السَّماء، وَلا أصغر مِنْ ذلكَ ولا أكبَر إلاّ في كِتابٍ مُبين﴾ [2]..

فكلمة (أصغر) من الذرة في الآية القرآنية تصريح جلي بإمكان تجزئتها، وفي قوله (ولا في السماء) بيان بأنّ خواصّ الذرات في الأرض هي نفس خواص الذرات الموجودة في الشمس والنجوم والكواكب. فهل درس محمد خواص الذرة وأمكنه تجزئتها والوقوف على خواصها في الأرض والسماء؟ إنها لدليل قويّ على أن القرآن وحي إلهي.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٢) سورة يونس، الآية: ٦١. يعزب: أي يغيب ويخفى.

رابعا : نقصُ الاوكسجين :.

منذ اكتشاف الطيران ظهرت للعلماء بادرة طبيعية وهي نقص الاوكسجين في طبقات الجو العليا، فكلّما حلق الإنسان وارتفع في أجواء السماء كلّما أدركته هذه الظاهرة، وشعر عند ذلك بضيق الصدر وصعوبة التنفس، حتى ليكاد يشعر بالاختناق، ولهذا فإن الطيّارين يعطون تعليمات للركاب بأن يستعملوا (الأوكسجين الصناعي) حين تعلو بهم الطائرة إلى مرتفعات عالية تزيد عن ٣٥ خمسة وثلاثين الف قدم. هذه الظاهرة العلمية أشار اليها القرآن الكريم قبل اختراع الطيران وقبل أربعة عشر قرناً. استمع إلى قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أنْ يهدِيِهِ يَشْرَح صَدرَهُ للإسلامِ، ومَنْ يُرِدْ أن يضِلَّهُ يجعَلْ صَدْرَهُ ضَيقاً حَرَجاً**[1] **كأنّما يَصعَدُ في السّماء**﴾[1]..

ولقد كان القدماء يفسّرون هذا الآية حسب مفاهيمهم التي تتفق مع زمانهم فكانوا يقولون (كأنما يصّعد في السماء) أي كمن يحاول الصعود إلى السماء وهو ليس بمستطيع او كمن يحاول عمل المستحيل، وقد جاء هذا العصر فأظهر معجزة القرآن، وسجّل اتفاقاً رائعاً للآية القرآنية مع الواقع العلمي فكان تأييداً لصدق نبوة محمد ﷺ، فللّه ما أروع هذا القرآن وما أسماه؟!؟.

خامساً: الزوجيّة منبثّة في كل شيء :.

كان الناس يعتقدون بأن الزوجيّة (الذكر والأنثى) منبثّة بين النوعين (الإنسان والحيوان) فقط، فجاء العلم الحديث فأثبت انها الزوجية توجد في النبات كذلك وفي الجماد، وفي كل ذرّة من ذرات الكون والوجود، حتى الكهرباء ففيها (الموجب) وفيها (السالب) هذه فيها شحنة كهربائية موجبة، وتلك فيها شحنة كهربائية سالبة، وحتى الذرّة فيها (البروتون) و (النيترون) وكل منهما يشبه الذكر والأنثى وهذا الاكتشاف سبق اليه القرآن العظيم في عديدٍ من الآيات الكريمة استمع إلى هذه الروائع البينات..

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥. حَرَجاً: شديد الضيق.

أ - ﴿وَمِنْ كُلِّ شيءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون﴾[1]. فالعموم هنا واضح (ومِنْ كُلِّ شيءٍ)..

ب - ﴿أوَ لمْ يَرَوْا إلى الأرْضِ كَمْ أنْبَتْنا فيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كريمٍ﴾[2](الإشارة هنا للنبات).

جـ - ﴿سُبْحَانَ الّذي خلَقَ الأزْوَاجَ كُلَّها مِمّا تُنْبِتُ الأرْضُ. وَمِنْ أنْفُسِهِمْ، ومِمّا لا يَعْلَمُون﴾[3]..

فهذه الآية الكريمة عممت الزوجية في النبات والإنسان وفي كل شيء مما نعلمه او لا نعلمه فسبحان الإله القدير العليم، الذي أحاط علمه بكل الأكوان وأحصى كل شيء عدداً..!

سادساً: أغشية الجنين:

ثبت علمياً أن الجنين في بطن أمه محاط بثلاثة أغشية، وهذه الأغشية لا تظهر إلا بالتشريح الدقيق، وتظهر بالعين المجرّدة كأنها غشاء واحد، وهذه الأغشية هي التي تسمى (الغشاء المنباري) و (الخوربون) و (اللفائفي) هذا ما أثبته الطبّ الحديث، وقد جاء القرآن الكريم مؤيداً هذه الحقيقة العلمية، وذلك في سورة الزمر في قوله جلّ وعلا:

﴿يَخلُقُكُمْ في بُطونِ أمّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بعدِ خلْقٍ في ظُلُماتٍ ثلاثٍ، ذلِكُمُ اللهُ ربُّكُم لَهُ المُلْكُ﴾[4] ففي هذه الآية معجزة علمية للقرآن، فقد أخبر ان الجنين له ثلاثة أغشية أسماها (ظلمات) لأن الغشاء حاجز وحجاب يحجز عنه النور والضياء، وهي في العلم الحديث ثلاثة أغشية.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٤٩.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٧.

(٣) سورة يس، الآية: ٣٦.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٦.

سابعاً: التلقيح بواسطة الرياح:

أثبت العلم الحديث أن الهواء ينقل الأعضاء المذكّرة إلى المؤنثة في النخيل والتين وغيرها من الأشجار المثمرة فيكون التلقيح بواسطة الرياح[1] والهواء، وهذه الناحية العلمية تحدّث عنها القرآن الكريم في قوله جلّ ثناؤه ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُم لَهُ بِخَازِنِينَ﴾[2] وهذا سبق للقرآن في الحقائق العلمية الثابتة مما يدل على صدق النبوّة.

ثامناً: الحيوان المنوي:

اكتشف الطب الحديث أن هذا السائل من منيّ الإنسان يحوي حيوانات صغيرة تسمى (الحيوانات المنوية) وهي لا ترى بالعين المجرّدة، إنما ترى (بالمكرسكوب) وكل حيوان منها له رأس ورقبة وذيل يشبه دودة العلق في شكلها ورسمها، وأن هذا الحيوان يختلط بالبويضة الأنثوية فيلقحها، فإذا ما تمّ اللقاح انطبق عنق الرحم فلم يدخل شيء من بعده الى الرحم، وأمّا بقية الحيوانات فتموت، وهذه الناحية العلمية وهي أنّ الحيوان المنوي يشبه العلق في الشكل والرسم فقد أثبتها القرآن، استمع الى قوله جلّ وعلا: ﴿إقرأ باسْمِ ربّكَ الذي خَلَق * خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[3] فهذه الآية معجزة بليغة من معجزات القرآن لم يظهر وقت نزولها ولا بعده بمئات السنين إلى أن اكتشف المجهر المكبّر (المكرسكوب) وعرف كيف يتكون الإنسان بقدرة الله.

تاسعاً: اختلاف بصمات الإنسان:

في القرن الماضي سنة ١٨٨٤ م استعملت في انكلترا رسمياً طريقة للتعرف على

---

(١) يقول المستشرق المستر (أجنيري) الأستاذ في مدرسة (أكسفورد) في القرن الماضي: إن أصحاب الإبل قد عرفوا أن الريح تلقح الأشجار والثمار قبل أن يعلمها أهل أوروبا بثلاثة عشر قرناً، يشير بذلك إلى أن هذا مما سبق إليه القرآن والفضل ما شهدت به الأعداء.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٢٢.

(٣) سورة العلق، الآيتان: ١ و٢

الشخص بواسطة بصمات الأصابع، وأصبحت هذه الطريقة متبعة في جميع البلاد، ذلك لأن بشرة الأصابع مغطاة بخطوط دقيقة وعلى عدة أنواع (أقواس، عراو، دوامات) وهذه الخطوط لا تتغير مدى الحياة وجميع أعضاء الجسم تتشابه أحياناً ولكن الأصابع لها مميزات خاصة إذ انها لا تتشابه ولا تتقارب وهنا المعجزة الإلهية، فلماذا اختار الله سبحانه بنان الإنسان في إقامة الدليل على البعث ﴿أيَحْسَبُ الإنسانُ ألَّنْ نَجمَعَ عِظَامَهُ * بَلى قادِرينَ على أنْ نُسَوِّيَ بَنانَه﴾[1].

٧ ـ الوفاء بالوعد:

ومن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم (الوفاء بالوعد) في كل ما أخبر عنه، وفي كل ما وعد الله سبحانه عباده به، وهذا الوعد ينقسم إلى قسمين:

أ ـ وعد مطلق.

ب ـ وعد مقيّد.

فالوعد المطلق، كوعده بنصر رسوله، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه، ونصر المؤمنين على الكافرين، وقد تحقق ذلك كله إن شئت قوله جلّ وعلا:

﴿إنّا فتَحنَا لكَ فَتحاً مُبيناً * لِيَغفِرَ لكَ الله ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تأخَّرَ ويُتِمَّ نِعْمَتَهُ عليكَ ويَهْدِيكَ صِراطاً مُستَقيماً * ويَنْصركَ الله نَصْراً عَزيزاً﴾[2] وقد تحقق هذا النصر بفتح مكة، وبدخول الناس في الإسلام أفواجاً أفواجاً، وبذلك تمت النعمة على سيّد الأنام محمد ﷺ وأقر الله عينه بنصره على أعدائه ﴿إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ * وَرَأيْتَ النّاسَ يدْخُلونَ في دينِ اللهِ أفْواجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وآستَغْفِرْهُ إنَّهُ كانَ توّاباً﴾[3]. وصدق الله وعده بنصرته لأنبيائه وأوليائه ﴿إنّا لَنَنْصرُ رُسُلَنا والّذينَ آمنُوا في الحَياةِ الدّنيا ويَوْمَ يَقُومُ الأشْهاد﴾[4]

(١) سورة القيامة، الآية: ٣، ٤.

(٢) سورة الفتح، الآيات: ١ ـ ٣.

(٣) سورة النصر، الآيات: ١ ـ ٣.

(٤) سورة غافر، الآية: ٥١.

ومن الوعد المطلق قوله جلّ ثناؤه: ﴿وكَانَ حقّاً علَيْنا نصْر المؤمِنِينَ﴾[1] وقد تحقق نصر المؤمنين في مواطن عديدة (في بدر، وأحد) وغيرهما من المعارك العظيمة التي شهدها تاريخ الإسلام، إقرأ قوله تعالى ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذِلّةٌ فاتّقُوا الله لعَلّكُم تَشكُرون﴾[2] وقوله جلّ وعلا ﴿ولَقَدْ صَدَقَكُم اللهُ وعدَهُ إذ تحسّونهم بإذنِهِ﴾[3]. تحسّونهم: أي تقتلونهم قتلاً ذريعاً.

ومن الوعد المطلق قوله سبحانه:

﴿وعَدَ اللهُ الّذينَ آمنُوا مِنكُمْ وعَمِلوا الصّالِحاتِ لَيَسْتَخلِفنهم في الأرضِ كما اسْتخْلفَ الّذين من قَبْلِهمْ..﴾[4] الآية. وقد تحقق الوعد فانتصر المؤمنون حتى فتحوا مشارق الأرض ومغاربها، وسارت جيوشهم حتى بلغت أقاصي المعمورة، وقد كان (أبو بكر) إذا أرسل جيوشه للغزوَ عرّفهم ما وعدهم الله ليتقوا بالصبر ويستيقنوا بالظفر. ومن الوعد المطلق قوله سبحانه ﴿هوَ الّذي أرسلَ رَسُولَهُ بالهُدى ودينِ الحقّ لِيُظْهِرَهُ عَلى الدّينِ كلّهِ وكَفى باللهِ شَهيداً﴾[5]. أما الوعد المقيّد فهو ما كان فيه شرط، كشرط التقوى، وشرط الصبر، وشرط نصرة دين الله وما شابه ذلك. قال تعالى ﴿إن تنصروا الله ينصُرْكُمْ ويُثَبّتْ أقْدامَكُم﴾[6] وقال تعالى ﴿ومَنْ يتّقِ الله يَجعَل لَهُ مخرجاً ويرزُقْهُ مِنْ حيثُ لا يَحْتَسِب﴾[7] وقال تعالى ﴿ومن يتّقِ الله يَجعَلْ لَهُ منْ أمْرِهِ يُسْراً﴾[8] وقد وعد الله المؤمنين بالنصر بشرط الصبر كما قال تعالى ﴿يا أيها النّبي حَرّض المؤمنينَ على القِتالِ إنْ يَكُنْ مِنكُم

---

(١) سورة الروم، الآية: ٤٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

(٤) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٥) سورة الفتح، الآية: ٢٨.

(٦) سورة محمد، الآية: ٧.

(٧) سورة الطلاق، الآية: ٢.

(٨) سورة الطلاق، الآية٤.

عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وإِنْ يكُنْ مِنْكُم مائةٌ يَغْلِبوا ألفاً مِنَ الّذينَ كَفَرُوا بأنّهم قومٌ لا يَفْقَهُون﴾[1].

٨ ـ العلوم والمعارف:

ومن وجوه إعجاز القرآن هذه العلوم والمعارف التي زخر بها القرآن الكريم، والتي بلغت من نصاعة البرهان وقوة الحجة مبلغاً يستحيل على محمد ـ وهو رجل أمي نشأ بين الأميّين ـ ان يأتي بها من عند نفسه، بل يستحيل على أهل الأرض جميعاً من أدباء وعلماء، وفلاسفة وحكماء، ومن مشرعين وعباقرة، أن يأتوا بمثل هذه العلوم والمعارف، وفي هذا الوجه من وجوه إعجاز القرآن حجة دامغة، وبرهان ساطع، يقصم ظهر كلّ أفّاك مُعاند، يزعم أن ما جاء به محمد إن هو إلا (تعاليم الكتب السابقة) استمدّها محمد من بعض أهل الكتاب في عصره ثم نسبها إلى ربه ليستمدّ من هذه النسبة قدسيتها ﴿كَبُرَتْ كلِمةً تخرجُ من أفْواهِهم إنْ يَقولونَ إلاّ كَذِباً﴾[2]. ونحن نقول لهؤلاء العمي: كيف يكون القرآن نسخة عن الكتب السابقة، وقد جاء منكراً على أهلها، مخالفاً لأكثرها، بل جاء مبطلاً وهادماً لأصول أفكارها وعقائدها بسبب ما دخل فيها من تحريف وتبديل؟! وكيف يمكن أن تتفق عقيدة (التوحيد) مع عقيدة (التثليث) وبينهما كما بين السماء والأرض؟! ألم يسمعوا الحكم القاطع الجازم فيهم بأنهم كفرة فَجَرة يعبدون احبارهم ورهبانهم من دون الله؟ ﴿وَقَالتِ اليَهودُ عُزَيرٌ ابنُ الله، وقالت النّصارى المسِيحُ ابن الله، ذلكَ قولُهمْ بأفواهِهم يُضاهِئون[3] قَوْلَ الذينَ كفرُوا مِنْ قبْل، قاتلهُم الله أنّى يُؤْفَكُون ★ اتّخذوا أحبارَهُم ورُهبانَهُم أرْباباً مِنْ دونِ اللهِ وَالمسيحَ ابنَ مريم، ومَا أمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا إلهاً وَاحداً لا إله إلا هُوَ سُبْحانَهُ عمّا يُشْرِكُون﴾[4].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥.

(٣) يضاهئون: أي يشابهون ويماثلون، والمضاهاة: المشابهة.

(٤) سورة التوبة، الآيتان: ٣٠، ٣١.

جاء القرآن بالعلوم المتنوعة، والمعارف المتعدّدة، في العقائد، والعبادات والتشريع والتنظيم، وفي الأخلاق والمعامَلات، وفي حقول شتى، في التربية، والتعليم، وفي السياسة والاقتصاد، وفي الفلسفة والإجتماع، وكذلك في القصص والأخبار، وفي أصول المناظرة والجدل. ولا شك أن هذا الوجه من أظهر وجوه الإعجاز، فكيف يستطيع رجل أمّي، لم يقرأ ولم يكتب ولا نشأ في بلد علم وتشريع، ولا في مدينة ذات حضارة ومدنيّة أن يأتي بمثل ما في القرآن من هذه العلوم والمعارف تحقيقاً وكمالاً، مؤيداً بالحجج والبراهين بعد أن قضى معظم حياته لا يعرف شيئاً عنها، ولم ينطق بقاعدة او أصل منها، ولا حكم بفرعٍ من فروعها إلا ان يكون ذلك وحياً من الله تعالى؟! وأحب أن أقتصر هنا على مثلٍ من هذه العلوم المتنوعة العديدة، وهو بحث (العقيدة في القرآن) وأن أقارن بين تعاليم الإسلام، وتعاليم اليهودية والنصرانية على عهد نزوله، ليتبين الصبح لذي عينين، ونظهر ضياء الحق الساطع، ونوره الباهر وكما قيل: (وبضدّها تتميّز الأشياء).

العقيدة الإسلامية:

جاء القرآن بعقيدة سمحة صافية، بيضاء نقيّة، في ذات الله تبارك وتعالى، وفي حق رسله الكرام، فالله رب العالمين واحد أحد، فرد صمد، ليس له والد ولا ولد، له جميع صفات الكمال، ومنزّه عن جميع صفات النقص: (لا ذاته تشبهها الذوات: ولا حكت صفاته الصفات) ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وهو السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[1] وهو جلّ وعلا قيّوم، لا تأخذُهُ سِنَةٌ ولا نومٌ، ولا يشغله شأن عن شأن ﴿لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وما فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾[2].. هو الخالق المتفرد بالخلق والايجاد، وبيده ناصية العباد، يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وهو على كُل شيءٍ قدير، الكلّ خلقه والجميع عبيده ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمواتِ والأَرْضِ إِلاّ آتِي الرَّحمٰنِ عَبْداً﴾[3] إقرأ إن شئتَ هذه الآيات الرائعة في صفات الله عزّ وجل:

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٢) سورة طه، الآية: ٦.

(٣) سورة مريم، الآية: ٩٣.

١ - ﴿إنّ إلهكم لواحدٌ * ربّ السموات والأرض وما بينهما وربّ المشارق﴾[١].

٢ - ﴿إنّ ربكم الله الذي لا إله إلاّ هو وسع كلّ شيء علماً﴾[٢].

٣ - ﴿قل ادعو الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعو فله الأسماء الحسنى، ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً * وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليّ من الذل وكبره تكبيراً﴾[٣].

٤ - ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله، والله هو الغنيّ الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز﴾[٤].

العقيدة اليهودية:

وضل اليهود بعد موسىٰ فعبدوا بعلاً، وزعموا أن لله ابناً هو العزير وشبهوا الله بالإنسان فزعموا انه تعب من خلق السموات والأرض فاستراح يوم السبت واستلقى على قفاه، وركبوا رؤوسهم فقالوا إنه - جلّ وعلا - ظهر في صورة إنسان وصارع اسرائيل فلم يستطع أن يغلبه ولم يتخلص منه الرب حتى باركه وذريته فأطلقه عند ذلك يعقوب، وادعوا انهم الشعب المختار من بين الشعوب، وأنهم ابناء الله وأحباؤه، وأن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس، وان النار لن تمسّهم إلا أياما معدودة، هي مدة عبادتهم العجل أربعين يوماً، كما افتروا على السيد المسيح (عيسى) فزعموا أنه ابن زنى، وأن أمه زانية، وأنهم صلبوه ليطهّروا بني اسرائيل من هذه الجريمة الشنيعة، كلّ هذا وأمثاله كثير من اباطيل واضاليل اليهود، جاء القرآن هادماً لها، وجرياً

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٤، ٥.

(٢) سورة طه، الآية: ٩٨.

(٣) سورة الإسراء، الآيتان: ١١٠، ١١١.

(٤) سورة فاطر، الآيات: ١٥ - ١٧.

عليها، فكيف يزعمون أن القرآن نسخة عن التوراة؟

العقيدة النصرانية:

وضل النصارى فزعموا ان لله ولداً، وذهبوا الى عقيدة معقدة من الايمان بالتثليث (الأب، والابن، وروح القدس) وسمّوها بالأقانيم، فعيسىٰ هو (الاقنوم) الثاني من الثالوث الإلهي الذي هو عين الأول والثالث، وكل منها عين الآخر، الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة، وخلعوا على رجال كهنوتهم ما هو حق لله وحده من التشريع والتحليل والتحريم، وزعموا أن (ابن الإله) صلب ليخلص الإنسان من خطيئته ويطهّره من أوزاره، والأعجب من هذا أن كثيرين منهم يعتقدون بأن (عيسى ابن مريم) هو الله نزل الى الأرض بصورة بشر، إلى غير ذلك من الأباطيل والمخازي التي نسبوها إلى الله تعالى ﴿**تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً**﴾[١].

فانظر مدى البون الشاسع بين الحق الذي جاء به القرآن، وبين الباطل الذي جاء به هؤلاء وهؤلاء على أن القرآن الكريم لم يكتف بسرد هذه الأباطيل والإخبار بها عن تحريف أهل الكتاب، بل ردّ على أولئك ببراهينه الساطعة، وأدلّته القاطعة، استمع إليه وهو يقول عن أهل الكتاب (النصارى) ﴿**يا أهلَ الكتابِ لا تَغلُوا في دينِكُمْ، ولا تقولُوا على الله إلاّ الحقّ، إنّما المسيحُ عيسى ابنُ مريم رسُولُ الله وكَلِمَتُهُ ألقاها إلى مريم وروح مِنهُ، فآمِنوا بالله ورُسُلِه، ولا تقولُوا ثلاثة، انتَهُوا خيراً لكُمْ، إنّما الله إله واحدٌ، سُبحانَهُ أنْ يكونَ لهُ ولَدٌ، لهُ ما في السّمٰواتِ وما في الأرضِ وكَفى بالله وكِيلاً ★ لنْ يستَنْكِف المسيحُ أنْ يكونَ عبْداً لله ولا الملائكةُ المقرّبون، ومَنْ يَستَنْكِف عَنْ عِبادَتِه ويَستَكْبر فسَيحْشُرُهُمْ إليه جَميعاً**﴾[٢].

واستمع اليه وهو يتكلم عن أهل الكتاب (اليهود) فيقول:

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٣.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ١٧١، ١٧٢.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهم، وكُفرِهم بآياتِ الله، وقَتْلهم الأنبياء بغَير حَقٍّ، وَقَوْلِهم قُلوبنا غُلْفٌ، بَلْ طَبعَ اللهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِم فَلا يُؤْمِنونَ إلاّ قَليلاً* وبِكفرِهِمْ وقَوْلِهم على مريمَ بُهْتاناً عَظيماً* وقَوْلِهم إنا قَتَلْنا المسيحَ عيسى ابن مرْيمَ رَسُول الله، ومَا قَتَلُوهُ ومَا صَلَبُوهُ ولكنْ شُبِّهَ لهم، وإنّ الّذينَ اختَلفُوا فيه لَفي شك منهُ، مَا لَهُم مِنْ عِلمٍ إلاّ اتّباع الظنّ، ومَا قتلُوهُ يقيناً* بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إليهِ وكانَ الله عزيزاً حَكيماً﴾[1]. ولقد صرح القرآن بالتحريف الذي وقع عند أهل الكتاب في (التوراة والانجيل) وبيّن ان مهمة الرسول إنما هي في تصحيح ما ارتكبه أهل الكتاب من الكذب والبهتان، وفي كشف ما أخفوه من آيات الله في التوراة والانجيل ﴿يا أهْلَ الكِتابِ قَدْ جاءَكُم رَسُولنا يُبيّن لكم كثيراً مما كنتم تُخفونَ منَ الكِتابِ ويَعفو عَنْ كَثيرٍ. قَدْ جاءَكُم مِنَ الله نُورٌ وكِتابٌ مُبين* يَهدي بهِ الله منِ اتّبعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السّلامِ، ويُخرِجهم من الظُلُماتِ إلى النورِ بإذنِه ويَهْديهِم إلى صِراطٍ مُستَقيمٍ﴾[2]. فهل بعد هذا البرهان من حجة أوضح على صدق سيد المرسلين ويرحم الله (البوصيري) حيث يقول:

(كفاك بالعلم في الأمي معجزةً   في الجاهلية والتأديب في اليُتمِ)

٩ ـ وفاؤه بحاجات البشر:

وهذا الوجه من وجوه الإعجاز ظاهر جلي، يدركه كل متأمل في شريعة الإسلام، فقد جاء القرآن الكريم بهدايات تامة كاملة، شاملة واسعة، تفي بحاجات البشر في كل زمان ومكان ويتجلى ذلك اذا استعرضت المقاصد النبيلة التي رمى إليها القرآن في هدايته وارشاده وهي بإيجاز: ١ ـ اصلاح الافراد ٢ ـ اصلاح المجتمعات ٣ ـ إصلاح العقائد ٤ ـ إصلاح العبادات ٥ ـ إصلاح الاخلاق ٦ ـ إصلاح الحكم والسياسة ٧ ـ أصلاح الشؤون المالية ٨ ـ اصلاح الشؤون الحربية ٩ ـ اصلاح

---

(١) سورة النساء، الآيات: ١٥٥ ـ ١٥٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٥ ـ ١٦.

الثقافة العلمية ١٠ ـ تحرير العقول والأفكار من الخرافات. ولقد احسن من قال:

شريعـــة الله للإنســـان تبيـــان   وكـل شيء سـوى القـرآن خسرانُ[١]

١٠ ـ تأثير القرآن في القلوب:

ومن وجوه إعجاز القرآن ذلك التأثير البالغ الذي أحدثه في قلوب أتباعه وأعدائه، حتى لقد بلغ من شدة التأثير ان المشركين أنفسهم كانوا يخرجون في جنح الليل يستمعونْ إلى تلاوة القرآن من المسلمين، وحتى تواصوا فيما بينهم الا يستمعوا الى القرآن، وان يرفعوا أصواتهم بالضجيج حينما يتلوه محمد لئلا يؤمن به الناس ﴿**وَقَالَ الذينَ كفرُوا لا تَسمعُوا لهذا القُرآنِ والغُوا فيهِ لعَلّكُمْ تَغْلِبون**﴾[٢].

ولقد بلغ من تأثير القرآن في القلوب ان يفيء الى ظلاله أشد الناس عداوة له، وأعظمهم عناداً، فيسلم كثير من هؤلاء الزعماء، وعلى رأسهم (عمر بن الخطاب) و (سعد بن معاذ) و (أسَيْد بن حضير) وغيرهم من القادة والرؤساء، هذا هو عمر بن الخطاب الذي يبلغ من شدة قسوته على المسلمين أن يقول فيه احدهم (والله لن يسلم حتى يسلم حمار الخطاب) والذي يبلغ من شدة عدائه ان يتقلد سيفه بالظهيرة ثم يخرج ليفتش عن محمد ﷺ ليقتله ثم لا يأتي المساء إلا وقد رجع معتنقاً للإسلام بسبب بضع آيات سمعها في بيت اخته من (سعيد بن زيد) والقصة مشهورة وتأمل كيف أسلم (سعد بن معاذ) سيد قبيلة (الخزرج) هو وابن أخيه (أسيد بن حضير). تروي كتب السيرة ان رسول الله ﷺ حين كان في مكة جاءه وفد المدينة الذين بايعوه بيعة العقبة فأرسل معهم مبعوثين جليلين يعلّمانهم الإسلام والقرآن وهما (مصعب بن عمير) و (عبد الله بن أم مكتوم)، فلما وصلا المدينة أخذا يعلمان الناس القرآن، فبلغ ذلك (سعد بن معاذ) سيد القبيلة فقال لابن اخيه (أسيد بن حضير) ألا تذهب إلى هذين الرجلين، اللذين جاءا يسفّهان ضعفاءنا فتنهاهما وتزجرهما عن هذا الضبع؟ فسار إليهما

---

(١) من قصيدة للأستاذ وليد الاعظمي.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

(أسيد) فلما انتهى إليهما قال لهما: ما جاء بكما جئتما تسفّهان ضعفاءنا؟ ثم توعّدهما وهدّدهما فقال: اعتزلا إن كانت لكما في أنفسكما حاجة؟ فقال له (مصعب) رضي الله عنه: أوَ تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته كففنا عنك ما تكره، فجلس أسيد وجعل مصعب يقرأ وهو يسمع، فما انتهى من مجلسه حتى أسلم، ثم كرّ راجعاً إلى سعد فقال له، والله ما رأيت بالرجلين بأساً، وأخفى أمامه إسلامه، فغضب (سعد) وقام بنفسه ثائراً مهتاجاً، فقال لهما: ما جاء بكما اجئتما تسفّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا، فقال له مصعب: أوَ تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته منا وإن كرهته كففنا عنك ما تكره، فقال أنصفتما، فجعل مصعب يتلو القرآن عليه وسعد يستمع، يقول (مصعب): والله لقد كان وجه سعد يشرق بالإيمان وهو يستمع القرآن فما انتهى مصعب من القراءة حتى أعلن سيد الأوس إيمانه، ثم كرّ راجعاً فجمع قبيلته وقال لهم: كيف تعدونني فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، فقال لهم سعد: كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تسلموا بمحمد، فدخلوا جميعاً في الإسلام.. رضي الله عن سعد وأرضاه!!

هكذا كان تأثير القرآن في قلوب الأولياء والأعداء، ولا تنس قصة (الوليد بن المغيرة) و (عتبة بن ربيعة) وغيرهما ممن تأثروا بالقرآن، ولولا حبّ الزعامة، ولولا حبّ الجاه والسلطان لدخلوا جميعاً في دين الله، ولكن الهداية بيد الله ﴿**يُضلّ مَنْ يشاءُ ويَهْدي منْ يَشاءُ**﴾[1] ﴿**وهُوَ أعلَمُ بالمُهْتَدينَ**﴾[2].

ذكر صاحب تفسير المنار أن فيلسوفاً من فلاسفة فرنسا ألف كتاباً ردّ فيه ما زعمه دعاة النصرانية من أن محمداً ﷺ لم يأت بمثل آيات (موسىٰ وعيسىٰ) عليهما السلام، ولم يكن له من الآيات الخوارق ما كان لمن قبله فقال ذلك الفيلسوف: إنّ محمداً كان يقرأ القرآن خاشعاً مولَهاً مدّلهاً، صادعاً ومتضرعاً فيفعل في جذب القلوب إلى الإيمان به فوق ما كانت تفعله جميع آيات الأنبياء السابقين، انظر تفسير المنار.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

وذكر الرافعي، كلمة قيّمة في كتابه (إعجاز القرآن) هذه الكلمة نقلها عن الامير شكيب ارسلان: «أن (لوثير) و (كلفين) المصلحين المعروفين في التاريخ المسيحي، ذكرا مرّة امام (فولتير) فيلسوف فرنسا فقال: إنهما لا يليقان حذاءين لنعال محمد ﷺ».

١١ ـ سلامته من التناقض:

وأخيراً فإن من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم سلامته من التناقض والتعارض خلافاً لجميع كلام البشر وصدق الله حيث يقول ﴿**وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فيهِ اخْتِلافاً كثيراً**﴾[1]. هذه بعض وجوه الإعجاز في القرآن وهناك وجوه أخرى ضربنا عنها صفحاً خشية التطويل، ولا يزال الزمن يكشف عن أسرار إعجاز القرآن، فكلما تقدّم الزمن تجلّت نواحٍ من نواحي إعجازه، وقام البرهان القاطع أنه تنزيل الحكيم الحميد، ومع ذلك فإن هذه الأسرار التي ذكرها العلماء إن هي إلا قطرة من بحر علوم القرآن، ومهما اتسع القول وعظم البيان، فإن كلام الله تعالى لا يحيط به أحد، كما لا يحيط أحد بعظمة ذاته، وجليل صفاته!!

دفع شبهة القول بالصرفة:

وإذ قد انتهينا من وجوه إعجاز القرآن الكريم نرى لزاماً علينا أن ندفع تلك الشبهة التي ذهب إليها بعض المعتزلة وبعض الشيعة وهي (شبهة القول بالصّرفة) وخلاصتها: أن الله عزّ وجلّ صرف العرب عن معارضته على حين أنه لم يتجاوز في بلاغته المستوى الذي يعجز عنه البشر، ولولا أن الله صرف هُممهم عن معارضته لاستطاعوا أن يأتوا بمثله.. الخ. فأنت ترى أصحاب هذا القول يذهبون إلى ان القرآن ليس معجزاً وإنما كان إعجازه بسبب أمرين:

الاول: الصارف الإلهي الذي زهدهم في المعارضة، فكسلوا وقعدوا،.

الثاني: العارض المفاجىء الذي عطّل مواهبهم البيانية وقدرتهم البلاغية.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

وهذا القول ـ بشقّيه ـ باطل، لا يثبت أمام البحث، ولا يتفق مع الواقع وذلك لعدة أسباب:

أولاً: لو كان هذا القول صحيحاً لكان الإعجاز في (الصّرفة) لا في القرآن نفسه وهذا باطل بالإجماع.

ثانياً: لو صحّ القول بالصّرفة لكان ذلك (تعجيزاً) لا (إعجازاً) لأنه حينئذ يشبه ما لو قطعنا لسان إنسان ثم كلفناه بعد ذلك بالكلام، فهذا ليس من باب العجز وإنما هو من باب التعجيز.

(ألقاه في اليمّ مكتوفاً وقال له   إيّاك إيّاك أن تبتلّ بالماء)

ثالثاً: لو كان هناك صارف زهّدهم في المعارضة من (كسلٍ أو ملل) لما وقفوا في وجه نبيّ الإسلام، ولما آذوه وأصحابه، ولما عذّبوا المسلمين وشرّدوهم، ولما قاطعوا الرسول وعشيرته وحاصروهم في الشّعب حتى أكلوا ورق الشجر، ولما فاوضوه وساوموه على أن يترك الدعوة ثم اضطروه الى الهجرة هو وأصحابه الكرام، إلى غير ما هنالك من دوافع وبواعث جعلتهم يسلكون كل سبيل للقضاء على الإسلام.

رابعاً: لو كان هناك عارض مفاجيء عطّل مواهبهم البيانية لأعلنوا ذلك في الناس، ليلتمسوا العذر لأنفسهم، وبالتالي ليقللوا من شأن القرآن، ولكانوا بعد نزول القرآن أقل فصاحة وبلاغة منهم قبل نزوله، وهذا باطل واضح البطلان.

خامساً: لو كان هذا العارض المفاجيء صحيحاً لأمكننا نحن الآن، وأمكن المشتغلين بالأدب العربي في كل عصر أن يعارضوا القرآن، وأن يتبينوا الكذب في دعوى إعجازه. وكل هذه الأشياء باطلة فهل يرضى عاقل لنفسه ان يقول بعد ذلك كله: إن العرب كانوا مصروفين عن معارضة القرآن ونبيّ القرآن، وأنهم كانوا مخلدين الى العجز والكسل زاهدين في النزول لذلك الميدان؟! وهل يصح لإنسان يحترم نفسه وعقله أن يصدّق بمثل هذا الافتراء القول بتعطيل المواهب والحواس) بعد أن يستمع الى شهادة ألدّ الأعداء من صناديد قريش وهو (الوليد بن المغيرة) حين قال كلمته المشهورة.. (والله لقد سمعت آنفاً كلاماً ليس من كلام بشر ليس بشعر ولا نثر ولا

كهانة، والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن اسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يعلى) والفضل ما شهدت به الأعداء.

وأختم هذه الكلمة بما ذكره العلاّمة القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) حيث قال: (فهذه عشرة وجوه ذكرها علماؤنا رحمهم الله في إعجاز القرآن)، وهناك قول آخر ذكره النظّام: أن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته، والصّرفة عند التحدي بمثله، وان المنع والصّرفة هو المعجزة دون ذات القرآن، وذلك أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحديهم بأن يأتوا بسورة من مثله، وهذا فاسد، لأن اجماع الأمة أن القرآن هو المعجز، فلو قلنا إن المنع والصرفة هو المعجز لخرج القرآن ان يكون معجزاً[1].. انتهى.. والصحيح ان الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في عجزهم عن الإتيان بمثل سورة من أقصر سور القرآن مع التحدّي اللاذع.

هل حاول احد معارضة القرآن؟

أجمع رواة التاريخ والآثار، على ان اساطين البلغاء، وفحول الشعراء من مشركي العرب لم تحدثهم أنفسهم بمعارضة القرآن، ولم ينقل عن احد منهم أنه حاول ان يأتي بمعارضة للقرآن، مع شدة حرصهم على صدّ الناس عن الإسلام، والتكذيب برسالة محمد عليه الصلاة والسلام.. ولكن نقل عن بعض السفهاء الحمقى، انهم حاولوا معارضة القرآن، فكان ما أتوا به لا يخرج عن أن يكون محاولات مضحكة، أخجلتهم امام البشر، وجعلتهم اضحوكة لدى العقلاء، فباءوا بغضب من الله وسخط من الناس، وكان مصرعهم هذا كسباً جديداً للحق، وبرهاناً ناصعاً على أن القرآن كلام الله الذي لا يستطيع معارضته إنسان فمن أولئك:

أ ـ (مسيلمة الكذّاب) الذي أدّعى النبوة، وزعم انه شريك لرسول الله في شأن النبوة وقد كتب إليه في السنة العاشرة للهجرة يقول: (اما بعد، فإني قد شوركت في

---

(١) أنظر تفسير القرطبي: ج ١ ص ٧٥.

الأرض معك، وإنما لنا نصف الأرض، ولقريش نصفها، لكن قريشاً قوم يعتدون..!)

وقد زعم (مسيلمة) أن له قرآناً نزل عليه من السماء، ويأتيه به ملك يسمى (رحمن)، وها نحن ننقل طائفة من أقواله وهذيانه، ليظهر كذب هذا الأحمق الدجّال، ويتّضح امره، فكفاه ذلك الوصف أنه كذاب.

قال أخزاه الله معارضاً سورة العاديات:

(والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً. واللاقمات لقماً، إهالة وسمناً.. لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر.. ريفكم فامنعوه، والمقبر فآووه! والباغي فناوئوه). وقال: (والشاء وألوانها، وأعجبها السود وألبانها، والشاة السوداء، واللبن الأبيض، إنه لعجب محض، وقد حرم المذْق فما لكم لا تمجعون).

ومن قرآنه المفترى: (الفيل ما الفيل، وما ادراك ما الفيل، له ذنب وبيل، وخرطوم طويل...) الخ. وقوله (يا ضفدع بنت ضفدعين، نقّي ما تنقّين، نصفك في الماء ونصفك في الطين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين).

وقد زعم انه عارض سورة الكوثر فخرج إلى الناس بهذا الهذيان:

(إن أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر، إن شانئك هو الكافر).

وكل كلامه على هذا النمط واهٍ سخيف لا ينهض ولا يتماسك، وأنت خبير بأن مثل ذلك الإسفاف ليس من المعارضة في قليل ولا كثير، يقول (الرافعي) رحمه الله: إن مسيلمة لم يرد أن يعرض للقرآن من ناحية (الصناعة البيانية) وإنما اراد أن يأخذ سبيله الى استهواء قومه من ناحية اخرى ظنها اهون عليه وأقرب تأثيرا في نفوسهم، وذلك أنه رأى العرب تعظّم الكهّان في الجاهلية، وكانت عامة أساليب الكهّان من هذا السجع القلق، الذي يزعمون انه من كلام الجن كقولهم: (يا جليح، امر نجيح، رجل فصيح، يقول لا إله إلا الله) فجعل يسجع ليوهم أنه يوحي إليه، على أنه لم يفلح في هذه الحيلة إذ كان أشياعه يعرفونه بالكذب والحماقة، ويقولون: إنه لم يكن في تعاطيه

الكهانة حاذقاً، ولا في دعوى النبوة صادقاً، وإنما كان أتباعهم إياه على حد قول قائلهم: كذّاب ربيعة أحب الينا من صادق مضر..).

ب ـ ومنهم (الاسود العنسي) ادّعى النبوة في اليمن، وكان يزعم ان الوحي ينزل عليه فيخفض رأسه الى الأرض ثم يرفعه فيقول: قال لي كذا وكذا ـ يعني شيطانه ـ الذي يوحي إليه، وكان جباراً ولكنه كان فصيحاً معروفاً بالكهانة والسجع والخطابة والشعر والنسب، ولم يذكر أنه حاول المعارضة للقرآن وإنما اكتفى بدعوى النبوة وبنزول الوحي عليه ﴿وإنّ الشياطينَ لَيُوحونَ إلىٰ أوليائهم﴾[1].

جـ ـ ومنهم (طُلَيحة بن خويلد الأسدي) ادّعى النبوة، وكان يزعم ان (ذا النون) يأتيه بالوحي ولكنه لم يدّع لنفسه قرآنا لأن قومه كانوا من الفصحاء، ولكنهم تابعوه عصبيّة وطلباً للجاه والشهرة، وقد ذكر صاحب (معجم البلدان) أن له كلاماً كان يزعم أنه نزل عليه بالوحي ولم يظفر من كلامه إلا على هذه المقالة (إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم، وقبح أدباركم شيئاً، فاذكروا الله قياماً، فإن الرغوة فوق الصريح) يريد لا تركعوا ولا تسجدوا واكتفوا بالصلاة قياماً وبذكر الله في حالة القيام، وقد أرسل له أبو بكر جيشاً بقيادة خالد بن الوليد فلما التقى الجمعان، قتل عدد كبير من أتباعه، وتزمّل هو بكساء ينتظر الوحي، فقال له (عيينة) هل أتاك بعد؟ فقال وهو من تحت الكساء، لا والله ما جاء بعد، فقال له عيينة: لقد تركك أحوج ما كنت إليه، ثم قال: يا بني فزارة هذا كذّاب ما بورك لنا وله فيما يطلب، ثم انهزم طليحة ولحق بنواحي الشام، ويقال أنه أسلم بعد ذلك وكان له في القادسية بلاء حسن.

د ـ ومنهم (النضر بن الحارث) وهو من صناديد قريش، ورؤساء الكفر والضلالة، وهو لم يدّع النبوّة ولا الوحي ولكنه زعم أنه يعارض القرآن، فلفّق أخباراً من حوادث الفرس وملوك العجم، وكان يجلس إلى قريش فيحدّثهم بهذه الأساطير ثم يقول لهم: هذا خير مما أنزل على محمد.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢١.

هـ ـ ويروى أن (أبا العلاء المعرّي) و (المتنبي) و (ابن المقفع) حاولوا معارضة القرآن ولكنهم ما كادوا يبدؤون هذه المحاولة حتى خجلوا واستحيوا فكسروا الأقلام ومزقوا الصحف، وقد ذكرنا فيما مضى محاولة (ابن المقفع) وأنه بعد أن عزم على المعارضة وبدأ بها فعلاً، سمع صبياً يقرأ قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي، وَغِيضَ الماءُ، وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ على الجُودِيِّ، وَقِيلَ بُعْداً للقَوْمِ الظَّالمين﴾[1] فمزق ما جمع واستحيا من إظهاره أمام الناس بعد أن قال قولته المشهورة: هذا والله ما يستطيع البشر أن يأتوا بمثله. وهذه القصة عن (ابن المقفع) يذكرها (الرافعي) عليه رحمة الله ثم يعقب عليها بقوله:

« إن ابن المقفع من أبصر الناس باستحالة المعارضة، لا لشيء من الأشياء إلا لأنه من أبلغ الناس وإذا قيل لك: إن فلاناً يزعم إمكان المعارضة ويحتج لذلك وينازع فيه، فاعلم أنّ فلاناً في الصناعة أحد رجلين اثنين: إمّا جاهل يصدُق في نفسه، وإما عالم يكذب على الناس، ولن يكون ثالث ثلاثة »[2] فالرافعي ينكر صحة هذه الرواية عن (ابن المقفع) كما ينكرها على (المعرّي فكلاهما في نظره باطل وافتراء عليهما.

و ـ وتحدثنا الأيام القريبة أن زعماء (البهائية والقاديانية) وضعوا كتباً يزعمون أنهم يعارضون بها القرآن ثم خافوا أو خجلوا أن يظهروها أمام الناس، فأخفوها على أمل أن يأتي الوقت المناسب فيخرجوها بعد أن يكثر الجهل ويطيش العقل.

شبهات حول إعجاز القرآن والرد عليها:

الشبهة الأولى: يقول أعداء الإسلام في معرض الطعن في القرآن، وفي نبيّ القرآن: إنّ محمداً ﷺ قد تلقى هذا القرآن من (بحيرا الراهب) ونسبه إلى الله عزّ وجل ليوهم البشر قدسيته. والجواب: أن هذه فرية ما فيها مِرْية، وهؤلاء الخبثاء من الصليبيّين وأعوانهم من الملاحدة، إنّما يروّجون مثل هذه الأباطيل ليشوّشوا على

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٤.

(٢) أنظر اعجاز القرآن للرافعي

المثقفين من أبناء المسلمين دينهم ويفسدوا عليهم عقائدهم بأمثال هذه الشبهات الافتراءات، وهذه الشبهة باطلة لعدة أمور :

أولا : ان الرسول لم يثبت عنه أنه سافر إلى الشام إلاّ مرتين: مرة في صغره مع عمه (أبي طالب) ومرة في شبابه مع (ميسرة) غلام السيدة خديجة، ولم يحدثنا التاريخ إنه سمع من (بحيرا) أو تلقى عنه درساً واحداً، وإنما غاية الأمر أن (بحيرا الراهب) رأى سحابة تظلّل الرسول، فحدّث عمّه بأنّ هذا الغلام سيكون له شأن، ثم طلب منه أن يعيده إلى مكة خوفاً عليه من اليهود، ثم هل يعقل والرسول في سن الصغر أن يتلقى هذه العلوم والمعارف؟ أو يأتي بمثل هذا القرآن المعجز وهو لم يتجاوز بعد سن العاشرة؟ وفي المرة الثانية كان غرضه التجارة ولم يثبت أنه ألتقى بأحد من الرهبان في هذه السفرة، فمن أين لهم هذا البهتان والافتراء ؟!.

ثانياً: من المستحيل عقلاً على أي إنسان أن يصبح في هذه المرتبة (أستاذ العالم) لمجرد مصادفته لراهب من الرهبان مرتين مع أنه كان في الأولى صغيراً وفي الثانية تاجراً، وأن يأتي بهذا الكتاب المعجز وهو أميّ لمجرّد التقائه بأحد الرهبان مرة أو مرتين.

ثالثاً: لو كان هذا الراهب المسمّى (بحيرا) هو مصدر هذا القرآن، لكان هو الأحرى بالنبوءة والرسالة، أو لكانت عبقريته تفوق عباقرة الدنيا، لأنه أتى بكلام أعجز فيه الأولين والآخرين.

رابعاً: نقول إن المشركين من كفّار قريش كانوا أعقل وأسلم تفكيراً من هؤلاء المجانين لأنهم ـ مع شدة حرصهم على تكذيب الرسول وتبهيته ـ لم يقبلوا على أنفسهم مثل هذا الكذب الرخيص، ولم يفكرّوا أن يقولوا إنه تعلّم من (بحيرا الراهب) لمجرد الالتقاء به مرتين لأن العقل لا يستسيغ ذلك.

الشبهة الثانية: يقولون هذا القرآن من تعليم (جبر الرومي) تعلّم منه الرسول في مكة.. الخ. والجواب أن هذه الشبهة قد تولى الله عزّ وجل الردّ عليها بأبلغ حجة

وأنصع بيان فقال عز من قائل: ﴿ولَقَدْ نَعْلَمُ أنهمْ يَقُولونَ إنّمَا يعلمه بَشَرٌ، لِسَانُ يُلْحِدُون إلَيهِ اعجَميّ، وهَذا لِسَانٌ عَرَبيّ مُبِين﴾[1]. فهذا الرجل الذين ينسبون إليه تعليم محمد ﷺ هو رومي أعجمي لا يعرف اللسان العربيّ فكيف يعلمه القرآن؟ وقد كان (جبر) هذا حدّداً يمتهن الحدادة، وقد أسلم، فكان النبي ﷺ كثيراً ما يمر عليه فيجلس عنده، فقال المشركون: والله ما يعلّم محمداً هذا القرآن إلا جبر الرومي، وكان سيّده يضربه ويقول له: أنت تعلّم محمداً، فيقول: لا والله، بل هو يعلمني ويهديني.. ومن الغريب أنّ هذه التّهمة قد لاقت استحساناً عند بعض الأفراد مع أنها في منتهى الغرابة والهزل، إذ كيف يكون الأستاذ عبداً حداداً أعجمياً، لا يفقه شيئاً من اللغة العربية ثم يعلّم الرسول لغة الضاد!! وهل من المعقول أن يكون هذا الروميّ الأعجمي مصدراً لهذا القرآن الذي هو أبلغ نصوص العربية، بل هو معجزة المعجزات ومفخرة العرب واللغة العربية!! ولهذا كان ردّ القرآن مفحماً وقاطعاً ﴿لِسَان الذين يُلْحِدُونَ اِلَيهِ أعْجَمي، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبيّ مُبِين﴾.

الشبهة الثالثة: إن محمداً عبقريّة فذّة، وهذه العبقرية الخارقة، لماذا لا يمكن أن تكون هي منبع هذه الأخبار، وأن يكون هذا القرآن من تأليف محمد وترتيبه لأنه ذو شخصية رائعة؟!.

والجواب: إن هذا الكلام إنما يصدر عن جاهل لا يعرف شيئاً عن حياة النبي ﷺ ولا عن تاريخ عشيرته وقومه، فالرسول ﷺ عاش أربعين سنة بين قومه وهو يشار إليه بالبَنان، في صدقه وأمانته ونبله وفضله، حتى كان المشركون يلقبونه بـ (الصادق الأمين) فهل يعقل بعد هذه الحياة الشريفة الطاهرة، أن يأتي بأعظم بهتان فيزعم أن هذا القرآن من عند الله، وأنه رسول الله؟! وبداية الإنسان تدل على نهايته فكيف يتفق هذا مع تاريخ الرسول الشريف الطاهر، وحياته الفاضلة العطرة، وحين سأل (هرقل) ملك الروم أبا سفيان عن رسول الله. هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ أجابه أبو سفيان بقوله: لا، بل هو عندنا الصادق الأمين، فقال له

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

هرقل: لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذّب على الله. ومن ناحية ثانية فقد ثبت في التاريخ ثبوتاً قاطعاً أن محمداً ﷺ كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، وقد أكّد هذا القرآن بقوله عز من قائل **﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو من قَبْلِهِ مِنْ كِتَاب وَلاَ تخطهُ بِيَمِينِكَ إذاً لارْتَابَ المُبْطلونَ﴾**[1] فمن أين لرسول الله معرفةَ أخبار الأولين من الأنبياء والمرسلين؟ ومن أين له معرفة دقائق التاريخ وأحوال الأمم الغابرة وأنباء من سبق من البشر على وجه الدقة والتفصيل، وهو بعد لم يقرأ كتاباً، ولم يدرس علماً، ولم يتلق هذه الأنباء عن أحد من علماء أهل الكتاب؟!.

ثم مهما كانت عبقرية الإنسان فذّة، ونبوغه عظيماً، وذكاؤه وافراً فمن أين له معرفة أمور الغيب، وأحوال المستقبل، وهل يمكن لبشرٍ مهما سما أن يخبر عن الغيب بحيث لا يشذ عن أخباره واحدة من هذه المغيبّات إلا أن يكون رسولاً صادقاً يوحى إليه من عند الله؟! إن العقل ليجزم بأن هذا ليس في طوق البشر، ومهما بلغت العبقرية من النبوغ والذكاء، ومهما كانت الشخصية قوية ومثالية، فلن تستطيع أن تخرق أستار الغيب أو تخبر بما ليس في مقدورها وصدق الله **﴿كَذَلكَ نَقُصّ عَلَيْكَ مِنْ أنْبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً..﴾**[2].

الشبهة الرابعة: يقولون: إن عجز البشر عن الإتيان بمثل هذا القرآن لا يدلّ على أنه كلام الله، وما هذا إلاّ كمثل عجزهم عن الإتيان بمثل (الكلام النبوي) فهل يكون كلام الرسول من عند الله؟ أو يقال إنه كلام الله؟.

والجواب: أن الحديث النبوي إن عجز عامة الناس عن الإتيان بمثله فلن يعجز أحد الخاصّة عن الإتيان بمثل بعضه، ولو بمقدار حديثٍ واحدٍ أو سطرٍ واحدٍ من كلامه، وكلام الرسول ﷺ وإن كان في الذروة العليا من الفصاحة والبلاغة إلا أنه لا يخرج عن كونه كلام بشر، وقد يشتبه كلام البشر بعضهم مع بعض، حتى لنجد تشابهاً بين كلام النبوّة وكلام بعض الخواص من الصحابة ونسمع الحديث فيشتبه علينا أمره:

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

(٢) سورة طه، الآية: ٩٩.

أهو مرفوع ينتهي إلى النبي ﷺ ؟ أم هو موقوف عند الصحابي اي من كلامه؟ أم مقطوع عند التابعي؟ ولا نستطيع أن نميز حتى يرشدنا السند إلى عين قائله. ومن أوتيَ حاسه بيانية يدرك هذا الشبه كثيراً، وقد يلتبس علينا الأمر حين نسمع كلاماً رائعاً بليغاً لأحد الفصحاء فنظنه من كلام الرسول ﷺ، فإذاً قد يكون هناك بعض الشبه بين كلام أفصح من نطق بالضاد وبين كلام بعض النبغاء، واستمع مثلاً إلى هذه الجملة الرائعة (المعدة بيت الداء، والحمية رأس كل دواء، وعوّدوا كل جسمٍ ما اعتاد) فإنّ الإنسان إذا سمع هذه لم يستبعد أن تكون حديثاً لجمالها وصحتها وأسلوبها الأخاذ، وربما جزم بأنها حديث شريف مع أنها ليست بحديث إنما هي من كلام طبيب العرب المشهور (ابن كلدة) وأما القرآن فذاك له شأن آخر لا يلتبس مع غيره من الكلام، ولن تستطيع أن تجد له شبيهاً أو نداً، لأن الذي صنعه على عينه لن تستطيع أن تجد له شبيهاً أو نداً، فكيف يقاس القرآن الكريم بالحديث الشريف في هذا المقام؟.

ثانياً: ومن ناحية ثانية لو كان هذا القرآن من تأليف محمد ﷺ لكان ينبغي أن يكون الأسلوب فيْ (القرآن والسنة) واحداً ضرورة أنهما صادران عن شخص واحد، استعداده واحد، ومزاجه واحد، مع أننا نجد الفرق بينهما واضحاً، والبون شاسعاً، فأسلوب القرآن ضرب وحده تظهر عليه سمات الألوهية والربوبية التي تجل عن المشابهة والمماثلة، وأسلوب الحديث الشريف ضرب آخر، لا يجل عن المشابهة والمماثلة، بل هو محلّق في جو البيان بقدر الأساليب البشرية الرفيعة، ولا يستطيع بحال أن يصعد إلى سماء إعجاز القرآن، وهذا يدركه كل إنسان إذا ما قارن بين الأسلوبين بأبسط نظرة وصدق الله حيث يقول: ﴿ولو أنَّ ما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يمدّهُ من بعده سبعةُ أبحرٍ ما نفدتْ كلماتُ اللهِ إنَّ الله عَزيز حكيم﴾ [١] وصدق الله ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالجِنّ على أنْ يَأتُوا بِمِثْلِ هَذا القُرْآنِ لا يَأتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [٢].

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

القِسمُ الثاني

التَفسِيرُ بالدِرَايـَة (الـرَأي)

بعد أن تحدثنا عن التفسير بالرواية، ننتقل الآن إلى الحديث عن التفسير بالدراية، وهذا النوع يسمى عند علماء التفسير (التفسير بالرأي) أو التفسير بالمعقول، لأن المفسر لكتاب الله تعالى يعتمد فيه على اجتهاده، لا على المأثور المنقول عن الصحابة أو التابعين، بل يكون فيه الاعتماد على اللغة العربية، وفهم أسلوبها على طريقة العرب، ومعرفة طريقة التخاطب عندهم، وإدراك العلوم الضرورية، التي ينبغي أن يكون ملماً بها كل من أراد تفسير القرآن، كالنحو والصرف وعلوم البلاغة، وأصول الفقه، ومعرفة أسباب النزول، إلى غير ما هنالك من العلوم التي يحتاج إليها المفسّر، كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

معنى التفسير بالرأي:

المراد بالرأي هنا (الاجتهاد) المبني على أصول صحيحة، وقواعد سليمة متّبعة، يجب أن يأخذ بها من أراد الخوض في تفسير الكتاب، أو التصدي لبيان معانيه، وليس المراد به مجرد (الرأي) أو مجرد (الهوى) أو تفسير القرآن بحسب ما يخطر للإنسان من خواطر، أو بحسب ما يشاء. فقد قال القرطبي: من قال في القرآن بما سنح في وهمه، أو خطر على باله، من غير استدلال عليه بالأصول، فهو مخطيء مذموم، وعليه يحمل

الحديث الشريف « من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار »[1].

وقد قال ﷺ : « من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ »[2].

قال القرطبي رحمه الله في مقدمة تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) ما نصّه:

فسّر حديث ابن عباس « ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » تفسيرين:

أحدهما: من قال في مشكل القرآن بما لا يعرف من مذهب الصحابة والتابعين فهو متعرض لسخط الله.

ثانيهما: من قال في القرآن قولاً يعلم أن الحق غيره فليتبوأ مقعده من النار.

وقد رجح القرطبي القول الثاني فقال: وهو أثبت القولين، وأصحها معنى. ثم قال: وأما حديث (جندب) فقد حمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أنّ الرأي معنيّ به (الهوى) والمراد من قال في القرآن قولاً يوافق هواه، لم يأخذه عن أئمة السلف فأصاب فقد أخطأ، لحكمه على القرآن بما لا يعرف أصله، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيه.

وقال ابن عطية: ومعنى هذا أن يُسْأل الرجلُ على معنى في كتاب الله عز وجل، فيتسور عليه (أي يهجم عليه) برأيه دون نظرٍ فيما قال العلماء واقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول، وليس يدخل في هذا الحديث، أن يفسّر اللغويون لغته، والنحويون نحوه، والفقهاء معانيه وأحكامه، ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر، فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلاً بمجرد رأيه[3].

---

(١) الحديث رواه الترمذي عن ابن عباس، ومعنى يتبوأ: أي ينزل ويحل.

(٢) الحديث من رواية أبي داود عن جندب.

(٣) تفسير القرطبي، ج ١ ص ٣٢.

أنواع التفسير بالرأي:

وعلى هذا يمكن تقسيم التفسير بالرأي إلى قسمين:

١ ـ تفسير محمود.

٢ ـ تفسير مذموم.

فالتفسير المحمود: ما كان موافقاً لغرض الشارع، بعيداً عن الجهالة والضلالة متمشياً مع قواعد اللغة العربية، معتمداً على أساليبها في فهم النصوص القرآنية الكريمة، فمن فسّر القرآن برأيه (أي باجتهاده) ملتزماً الوقوف عند هذه الشروط معتمداً عليها فيما يرى من معاني الكتاب العزيز، كان تفسيره جائزاً سائغاً، جديراً بأن يسمى (التفسير المحمود) أو التفسير المشروع.

وأمّا التفسير المذموم: فهو أن يفسّر القرآن بدون علم، او يفسّره حسب الهوى، مع الجهالة بقوانين اللغة أو الشريعة، أو يحمل كلام الله على مذهبه الفاسد، وبدعته الضالّة، أو يخوض فيما استأثر الله بعلمه، ويجزم بأن المراد من كلام الله هو كذا وكذا، فهذا النوع من التفسير هو (التفسير المذموم) أو التفسير الباطل. وباختصار: فإن التفسير المحمود، ماكان صاحبه عارفاً بقوانين اللغة، خبيراً بأساليبها، بصيراً بقانون الشريعة.

والتفسير الباطل المذموم: ما كان منبعثاً عن الهوى، قائماً على الجهالة والضلالة. مثاله: ما ورد عن بعض الجهلة من ادعياء العلم في قوله تعالى **﴿يومَ ندعو كلّ أناسٍ بإمامهم﴾**[1] أن المراد بها أن الله تعالى ينادي الناس يوم القيامة بأسماء أمهاتهم ستراً عليهم. فقد فسر هذا الجاهل (الإمام) بالأمهات وظنّ أنّ الإمام جمع أمّ، مع أن اللغة العربية تأبى هذا، لأن جمع الأم أمهات قال تعالى **﴿وأمهاتُكم اللاتي أرضعنَكُم﴾**[2] ولا يكون جمع الأم إماماً فإن ذلك فاسد لغة وشرعاً، والمراد بالإمام هنا (النبي) الذي

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٣.

اتبعته أمته، أو كتاب الأعمال بدليل تتمة الآية: ﴿**فمنْ أوتيَ كتابه بيمينهِ فأولئك يقرءونَ كتـابهم ولا يظلمون فتيلا**﴾[1].

فإذا لم يفهم الإنسان قواعد اللغة، ولا أصول العربية، خبط خبط عشواء وكان عليل الرأي، سقيم الفهم، وكذلك من لم يفهم غرض الشرع، وقع في الجهالة والضلالة، كمن يأخذ بظاهر الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿**وَمنْ كان في هذه أعمى، فهوَ في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً**﴾[2] فيحكم على كل أعمى بالشقاوة والخسران ودخول جهنم، مع أنّ المراد بالعمى ليس عمى البصر، وإنما هو (عمى القلب) بدليل قوله تعالى: ﴿**فإنّها لا تعمى الأبصارُ، ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدور**﴾[3] وربما كان عمى البصر سبباً لسعادة الإنسان كما جاء في الحديث القدسي: (من ابتليته بحبيبته (يعني عينيه) فصبر عوّضته الجنّة).

وسنذكر بعض النماذج عن التفسير الباطل المذموم عند الكلام على غرائب التفسير. فارجع إليه هناك.

أمهات التفسير:

والأمور التي ينبغي استناد الرأي إليها في التفسير، أمهاتها أربعة كما ذكرها (الزركشي) في كتابه البرهان، ونقلها السيوطي عنه في كتابه الإتقان ونحن نلخصها بإيجاز:

الأول: النقل عن الرسول ﷺ مع التحرز عن الضعيف والموضوع.

الثاني: الأخذ بقول الصحابي في التفسير، فإنه في حكم المرفوع.

الثالث: الأخذ بمطلق اللغة، فإن القرآن نزل بلسان عربي مبين، مع ترك ما لا تحتمله لغة العرب.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٢.

(٣) سورة الحج، الآية: ٤٦

الرابع: الأخذ بما يوافق الكلام العربي، ويدل عليه قانون الشرع، وهذا هو الذي دعا به النبي عليه السلام لابن عباس في قوله: «اللّهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل»[1]

العلوم التي يحتاجها المفسّر:

يحتاج المفسر لكتاب الله تعالى، إلى انواع من العلوم والمعارف، يجب أن تتوفر فيه، حتى يكون أهلاً للتفسير، وإلاّ كان داخلاً في الوعيد السابق «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار». وقد ذكر العلماء أنواع العلوم التي يجب توفرها في المفسّر، وأوصلها السيوطي في كتابه (الاتقان) إلى خمسة عشر علماً[2]، ونحن نوجزها فيما يلي:

١ ـ معرفة اللغة العربية وقواعدها (علم النحو، والصرف، وعلم الاشتقاق).
٢ ـ معرفة علوم البلاغة (علم المعاني، والبيان، والبديع).
٣ ـ معرفة أصول الفقه (من خاص، وعام، ومجمل، ومفصل.. الخ)
٤ ـ معرفة أسباب النزول.
٥ ـ معرفة الناسخ والمنسوخ.
٦ ـ معرفة علم القراءات.
٧ ـ علم الموهبة.

أما الأول: وهو اللغة وما يتعلق بها من نحو وصرف واشتقاق، فإنه ضروري للمفسّر، إذ كيف يمكن فهم الآية بدون معرفة المفردات والتراكيب وهل باستطاعة

---

(١) أنظر: الإتقان، ج ٢ ص ١٧٩.
(٢) عدّ السيوطي العلوم خمسة عشر وسردها على النحو التالي: أحدها: اللغة، الثاني: النحو، الثالث: التصريف، الرابع: الاشتقاق، الخامس: البيان، السادس: المعاني، السابع: البديع، الثامن: علم القراءات، التاسع: أصول الدّين، العاشر: أصول الفقه، الحادي عشر: أسباب النزول، الثاني عشر: علم الناسخ والمنسوخ، الثالث عشر: علم الفقه، الرابع عشر: الأحاديث المبنية للمجمل والمبهج، الخامس عشر: علم الموهبة (الاتقان بايجاز).

أحد أن يفسر قوله تعالى: ﴿للذينَ يؤلونَ من نسائهم تربّصُ أربعة أشهر، فإن فاءوا فإنّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾ [1] بدون أن يعرف المعنى اللغوي للإيلاء، والتربص،

قال الإمام مالك: (لا أوتى برجلٍ غير عالم بلغة العرب، يفسّر كتاب الله، إلاّ جعلته نكالاً).

وقال مجاهد: «لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله، إذا لم يكن عا' بلغات العرب».

فإذا لم يتفق اللفظ مع المعنى اللغوي كان باطلاً، كتفسير بعض الروافض قوله تعالى: ﴿مرجَ البحرينِ يلتقيانِ﴾ [2] أنهما علي وفاطمة، وقوله ﴿يخرجُ منهما اللؤلؤُ والمرجان﴾ [3] يعني الحسن والحسين.

وكتفسير (فرعون) بالقلب في قوله تعالى: ﴿اذهب إلى فرعون إنّه طغى﴾ [4] ويريد به قلب الإنسان القاسي، قال القرطبي: وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة، تحسيناً للكلام، وترغيباً للمستمع، وهو ممنوع لأنه قياس في اللغة، وذلك غير جائز، وهو أحد وجهي المنع من التفسير بالرأي [5].

وعلم النحو ضروري للمفسّر، لأن المعنى يتغيّر بتغيّر الحركات تغيراً كبيراً، فقوله تعالى: ﴿إنّما يَخْشَى الله من عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾ [6] بنصب هاء الجلالة، ورفع همزة العلماء، والمعنى صحيح، لأنّ معنى الآية: الذين يخشون الله من عباده العلماء دون غيرهم، فمن ازداد علماً بالله، ازداد منه خوفاً، ولو عكس فضم هاء الجلالة، ونصب همزة العلماء لفسد المعنى.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٦.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ١٩.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٢٢.

(٤) سورة طه، الآية: ٢٤.

(٥) تفسير القرطبي، ج ١ ص ٣٣.

(٦) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

قصة لطيفة:

ذكر القرطبي في تفسيره هذه القصة في عدم اللّحن في القرآن، قال: «قدم أعرابي في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى المدينة المنورة فقال: من يقرئني مما أُنزل على محمد ﷺ؟ قال: فأقرأه رجل سورة (براءة) فقرأ عليه الآية الكريمة **﴿أنّ الله بريء منَ المشْرِكينَ ورسولِهُ﴾**[1] بالجر أي بجر اللام في (رسولِهِ) بدل الضم فقال الأعرابي: أوقدْ بريء الله من رسوله؟ فإن يكن الله بريء من رسوله، فأنا أيضاً أبرأ من رسوله، فاستعظم الناس الأمر، وبلغ عمر مقالة الأعرابي، فدعاه فقال يا أعرابي؟ أتبرأ من رسول الله ﷺ؟

فقال يا أمير المؤمنين: إني قدمت المدينة، ولا علم لي بالقرآن، فسألت من يقرئني؟ فأقرأني هذا الرجل سورة (براءة) فقال: **﴿أنّ الله بريء من المشركين ورسوله﴾** فقلت: أوقد بريء الله من رسوله، إن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه، فقال عمر: ما هكذا الآية يا أعرابي؟ قال: فكيف هي يا أمير المؤمنين؟ قال: **﴿أنّ الله بريءٌ من المشركين ورسُولُهُ﴾** فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأُ ممّا بريء الله ورسوله منه، أبرأ من المشركين.. فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ألاّ يقرىء الناس إلاّ عالم باللغة، وأمر أبا الأسود فوضع النحو[2].

ومعرفة علم الصرف والاشتقاق ضرورية أيضاً للمفسّر، حتى لا يخبط الإنسان خبط عشواء، قال الزمخشري: من بدع التفاسير قول من قال إنّ (الإمام) في قوله تعالى: **﴿يوم ندعو كلّ أناس بإمامهم﴾**[3] جمع أمّ، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم، قال: وهذا غلط فاحش أوجبه جهل القائل بالتصريف فإن (أمّا) لا تجمع على إمام[4].

٢ ـ وأما علوم (المعاني والبيان والبديع) فضرورية لمن أراد تفسير الكتاب

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣.

(٢) تفسير القرطبي، ج ١ ص ٢٤.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧١.

(٤) أنظر: الإتقان، ج ٢ ص ١٨١.

العزيز، لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وذلك لا يدرك إلا بهذه العلوم، فمثلاً قوله تعالى ﴿وأُشرِبُوا في قلوبهم العجلَ﴾[1] أي أشربوا حبّ العجل فهو على حذف مضاف. ومثله ﴿واسأل القرية﴾[2] المراد أهل القرية وقوله تعالى ﴿هنّ لباسٌ لكم وأنتمْ لباسٌ لهن﴾[3] ليس على الحقيقة وإنما هو استعارة فكما يستر اللباس العورة، ويزيّن الإنسان ويجمّله، كذلك الرجل والمرأة كل منهما كاللباس لصاحبه يزينه ويكمّله ويجمّله، وهو من روائع النظم، وبدائع الكلام، وإذا حمل الإنسان المعنى على ظاهره، فسد المعنى، كما يذكر أن (الفرنسيين) أرادوا ترجمة القرآن إلى لغتهم، فلما وصلوا إلى هذه الآية الكريمة ﴿هنّ لباسٌ لكُم وأنتمْ لباسٌ لهن﴾ ترجموها بالظاهر ولم يدركوا السّر الدقيق فيها، فكانت الترجمة كالتالي (هنّ بنطلونات لكم، وأنتم بنطلونات لهن) لأن اللباس عندهم يسمى (البنطلون) وهكذا ساء فهمهم ولم يدركوا روعة تعبير القرآن. وقريب من هذا ما وقع لبعض الأعراب حين سمع قوله تعالى ﴿وكُلُوا واشرَبُوا حتى يتبيّن لكُمُ الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسود﴾[4] أخذ عقالين أبيض وأسود وجعل يأكل وينظر إليهما حتى كادت الشمس. أن تطلع، فجاء إلى النبي ﷺ فأخبره بذلك فقال له: إنّك لعريض القفا[5] إنما ذلك بياض النهار، وسواد الليل. وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة على الاستعارة والكناية والمجاز، ولا بد في فهمها من معرفة علم البيان والبديع مثل قوله تعالى عن سفينة نوح ﴿تجري بأعيننا﴾[6] أي بحفظنا ورعايتنا، وقوله ﴿قدم صِدْقٍ﴾[7] و ﴿لسان صِدْقٍ﴾[8] و ﴿جَنَاح الذلّ﴾[9] كل ذلك وأشباهه يحتاج إلى فهم علوم البلاغة وأسرار البيان.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٣.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٥) عريض القفا: كناية عن البلاهة وسوء الفهم.

(٦) سورة القمر، الآية: ١٤.

(٧) سورة يونس، جزء من الآية: ٢.

(٨) سورة مريم، جزء من الآية: ٥٠.

(٩) سورة الإسراء، جزء من الآية: ٢٤.

وهكذا بقية العلوم من: (أصول الفقه، وأسباب النزول، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، وعلم القراءات) كلّ ذلك مما يحتاج إليه المفسّر لكتاب الله تعالى، حتى لا يخطيء في الفهم، و لا تزلّ قدمه بسبب الجهل بهذه الأمور الضرورية.

وأما علم الموهبة: فيقصد منه العلم اللدني الرباني ﴿وآتيناه[1] من لدُنّا علماً﴾[2] الذي يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم، ويفتح قلبه لفهم أسراره قال تعالى ﴿واتقوا الله ويعلّمكم الله﴾[3] فهو ثمرة التقوى والإخلاص، ولا ينالُ هذا العلمَ من كان في قلبه بدعة، أو كبر، أو حب للدنيا، أو ميلٌ إلى المعاصي قال الله تعالى:

﴿سأصرفُ عن آياتيَ الذين يتكبّرونَ في الأرضِ بغيرِ الحقِ..﴾[4] الآية، وما أجل قول الشافعي رحمه الله:

« شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي »
« وأخبرني بأنّ العلمَ نورٌ ... ونور الله لا يُهْدى لعاصي ».

قال السيوطي: « ولعلك تستشكل علم الموهبة وتقول: هذا شيء وليس في قدرة الإنسان، وليس كما ظننت من الإشكال، والطريق في تحصيله، ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل والزهد. ثم قال: علوم القرآن وما يستنبط منه بحر لا ساحل له، فهذه العلوم التي ذكرناها هي كالآلة للمفسّر، ولا يكون مفسراً إلا بتحصلها، فمن فسّر بدونها كان مفسراً بالرأي المنهي عنه »[5].

وهذه الشروط التي ذكرها العلماء إنما هي لتحصيل أعلى مراتب التفسير وهناك معان عامة يفهمها الإنسان عند سماع اللفظ الكريم، فقد سهّل الله القرآن ويسّره، وأمر

---

(١) في القرآن: (وعلمناه) بدل (وآتيناه).

(٢) سورة الكهف، الآية: ٦٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.

(٥) أنظر الإتقان، ج ٢، ص ١٨١.

بالتدبر والتذكر لكتابه المجيد **﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾**[1]؟ **وذلك أدنى مراتب** التفسير والله الموفق.

مراتب التفسير:

وقد قسّم المرحوم الشيخ محمد عبده التفسير إلى مرتبتين:

١ - مرتبة عليا.

٢ - ومرتبة دنيا.

أمّا المرتبة الأولى (العليا) فهي لا تتم إلاّ بأمور:

أحدها: فهم حقائق الألفاظ المفردة، التي أودعت في القرآن عن طريق استعمالات أهل اللغة.

ثانيها: معرفة الأساليب الرفيعة. وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته، مع التفطن لنكته ومحاسنه.

ثالثها: علم أحوال البشر، ومعرفة السنن الإلهية الكونية في تطور الأمم واختلاف أحوالهم، من قوة وضعف، وعز وذل، وإيمان وكفر.

رابعها: العلم بوجه هداية القرآن للبشرية، وما كان عليه العرب في الجاهلية من شقاء وضلال، فقد روي عن عمر أنه قال: «لا يعرف فضل الإسلام من لم يقرأ حياة الجاهلية».

خامسها: العلم بسيرة النبي ﷺ وأصحابه، وما كانوا عليه من علم وعمل، في الشؤون الدينية والدنيـويـة

المرتبة الدنيا:

وأما أدنى مراتب التفسير: فهو أن يتبيّن بالإجمال ما يشربُ قلبه عظمة الله وتنزيهه.

---

(١) سورة محمد الآية ٢٤ وسورة النساء الآية ٨٢.

ويصرف النفس عن الشر، ويجذبها إلى الخير، وهذه ميسّرة لكل أحد كما قال تعالى: ﴿ولقدْ يسرنا القرآن للذّكر، فهل منْ مُدّكر؟﴾ [1].

أوجه التفسير:

روى السيوطي نقلاً عن ابن جرير من طرق متعددة، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال:

التفسير أربعة أوجه:

١ ـ وجه تعرفه العرب من كلامها.

٢ ـ وتفسيرٌ لا يُعذر أحد بجهالته.

٣ ـ وتفسير يعرفه العلماء.

٤ ـ وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى.

(أقوال العلماء في جواز التفسير بالرأي)

بعد أن عرفنا معنى (التفسير بالرأي) وشروطه، نذكر الآن أقوال العلماء فيه، وأدلة كلٍ من المجيزين والمانعين له، حتى يظهر الحق أبْلج ساطعاً، مثل الشمس في رابعة النهار، فنقول ومن الله نستمد العون: المراد بالرأي هنا الاجتهاد، وعليه فالتفسير بالرأي معناه تفسير القرآن بالاجتهاد، بعد معرفة المفسّر لكلام العرب وأسلوبهم في الخطاب، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالتها وقد اختلف العلماء في جواز التفسير بالرأي على مذهبين:

المذهب الأول: عدم جواز التفسير بالرأي، لأنّ التفسير موقوف على السماع، وهو قول طائفة من العلماء.

المذهب الثاني: جواز التفسير بالرأي بالشروط المتقدمة، وهو مذهب جمهور العلماء.

---

(١) سورة القمر، الآية: ١٧. انتهى. من تفسير المنار بتصرف واختصار.

أدلة المانعين:

استدل المانعون للتفسير بالرأي بعدة أدلة نوجزها فيما يلي:

أولاً: إن التفسير بالرأي قول على الله بغير علم، وهو منهيّ عنه بقوله تعالى: ﴿**وأنْ تَقُولُوا على اللهِ مَا لا تَعْلَمونَ**﴾[1].

ثانياً: ما ورد في الحديث الشريف من الوعيد الشديد لمن فسّر القرآن الكريم برأيه، وهو قوله ﷺ: «اتقوا الحديث عليّ إلاّ ما علمتم، فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» رواه الترمذي.

ثالثاً: قوله تعالى ﴿**وأنزلنا إليكَ الذّكر لتبيّنَ للناس ما نُزّلَ إليهمْ، ولعلهمْ يتفكرون**﴾[2] فقد أضاف البيان إلى الرسول ﷺ فعُلِم أنه ليس لغيره شيء من البيان لمعاني القرآن.

رابعاً: تحرّج الصحابة من القول في القرآن بآرائهم، حتى روى عن الصّديق أنه قال: «أيّ سماء تظلّني؟ وأيّ أرض تقلّني؟ إذا قلت في القرآن برأي، أو قلت فيه بما لا أعلم»؟.

أدلة المجيزين للتفسير بالرأي:

وقد استدل المجيزون للتفسير بالرأي وهم (الجمهور) بعدة أدلة نوجزها فيما يلي:

أولاً: لقد حثنا الله على التدبر، وتعبّدنا في القرآن فقال عزّ من قائل: ﴿**كتابٌ انزلناهُ إليك مباركٌ ليدبّروا آياتهِ، وليتذكر أولو الألباب**﴾[3].

وقال تعالى: ﴿**أفلا يتدبّرونَ القرآن أمْ على قلوب أقفالها**﴾[4]؟.

والتدبّر والتذكّرُ لا يكون إلاّ بالغوص عن أسرار القرآن، والاجتهاد في فهم

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٩.

(٢) سورة النحل، الآية: ٤٤.

(٣) سورة ص، الآية: ٢٩.

(٤) سورة محمد، الآية: ٢٤.

معانيه، فهل يعقل أن يكون تأويل ما لم يستأثر الله بعلمه محظوراً على العلماء، مع أنه طريق العلم، وسبيل المعرفة؟.

ثانياً: إن الله تعالى قسم الناس قسمين: عامة، وعلماء، وأمر بالرجوع إلى أهل العلم الذين يستنبطون الأحكام فقال تعالى: ﴿ولو ردّوهُ إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلـمَهُ الذين يستنبطونه منهمْ﴾[1] الآية، والاستنباط هو استخراج المعاني الدقيقة بثاقب الذهن، وهو إنما يكون بالاجتهاد والغوص في أسرار القرآن، كما يغوص السباح في أعماق البحر، لاستخراج الجواهر واللآليء.

ثالثاً: قالوا، لو كان التفسير بالاجتهاد غير جائز، لما كان الاجتهاد جائزاً، ولتعطّل كثير من الأحكام، وهذا باطل فإن المجتهد في حكم الشرع مأجور سواء أصاب أو أخطأ، ما دام أنه قد استفرغ جهده، وبذل ما في وسعه، بغية الوصول إلى الحق والصواب.

رابعاً، إن الصحابة قرؤوا القرآن، واختلفوا في تفسيره على وجوه، ومعلوم أنهم لم يسمعوا كلّ ما قالوه في تفسير القرآن من النبي ﷺ إذ أنه لم يبيّن لهم كل شيء، بل بيّن لهم الضروري منه، وترك البعض الآخر الذي توصلوا إلى معرفته بعقولهم واجتهادهم، ولو بيّن لهم كلّ معانيه لما وقع بينهم اختلاف في التفسير.

خامساً: أن النبي ﷺ دعا لابن عباس فقال: «اللّهم فقّهْهُ في الدين، وعلّمْهُ التأويل» فلو كان «التأويل» مقصوراً على السّماع والنقل كالتنزيل لما كان هناك فائدة في تخصيص ابن عباس بهذا الدعاء، فدلّ على أن التأويل هو التفسير بالرأي والاجتهاد.

الرد على أدلة المانعين:

وقد ردّوا على أدلة المانعين بحجج دامغة، وبراهين قاطعة، تثبت خطأهم فقالوا في الردّ على الدليل الأول: إن التفسير بالاجتهاد ليس قولاً على الله بغير علم، بل هو قول

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٣.

بعلمٍ مأذون به من الشارع، فقد بيّن عليه السلام أن المجتهد إذا اجتهد فأصاب فله أجــران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد، فكيف يكون مأجوراً إذا لم يكن مسموحاً له بالاجتهاد؟.

ثانياً: أما الدليل الثاني وهو حديث «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» فقد ردّ السيوطي بخمسة أدلة عليه فقال جلة ما تحصل في معنى التفسير بالرأي خمسة أقوال:

أحدها: التفسير من غير حصول على العلوم التي يجوز معها التفسير.

الثاني: تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلاّ الله تعالى.

الثالث: التفسير المقرّر للمذهب الفاسد، فيجعل المذهب أصلاً، والتفسير تابعاً.

الرابع: الحكم بأنّ مراد الله كذا على وجه القطع من غير دليل.

الخامس: التفسير بالاستحسان والهوى[1].

ثالثاً: في الرد على الدليل الثالث قالوا: نعم إن النبي ﷺ مأمور بالبيان ولكنه انتقل إلى انتقل إلى جوار الله ولم يبيّن لهم كل شيء، فما ورد بيانه عنه ﷺ ففيه الكفاية، وما لم يرد عنه بيانه فلا بدّ فيه من الاجتهاد وإعمال الفكر، وختام الآية يشهد ذلك ﴿ولعلّهم يتفكرون﴾[2] فلا بدّ إذاً من الفكر والاجتهاد.

رابعاً: وفي الرد على الدليل الرابع قالوا: إن إحجام الصحابة إنما كان منهم (ورعاً واحتياطاً) خشية ألا يصيبوا عين اليقين، وكانوا يرون أن التفسير شهادة على الله بأنه أراد باللفظ كذا فأمسكوا عنه خشية ألا يكون الصواب جانبهم، وأمّا إذا ترجّح لهم وجه الصواب فإنهم لا يمتنعون، وهذا أبو بكر الصّديق يفتي في الكلالة برأيه في قوله تعالى ﴿يستفتونَكَ قُل اللهُ يفتيكُمْ في الكلالة﴾[3] فيقول رضي الله عنه: أقول فيها برأي، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان غير ذلك فمني ومن الشيطان الكلالة: ما خلا الوالد والولد.

---

(١) أنظر: الإتقان، ج ٢ ص ١٨٣.

(٢) سورة النحل، جزء من الآية: ٤٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٧٦.

من هذه النظرة العابرة يتبيّن لنا خطا وجهة الدين منعوا تفسير القرآن بالاجتهاد، وقصروه على المنقول والمأثور، وقد علمت أدلة الجمهور القويّة، وتفنيدهم لأدلة المانعين. ونزيد هنا كلمة للإمام الغزالي، وأخرى للراغب الأصفهاني، وثالثة للقرطبي حول جواز تفسير القرآن بالاجتهاد.

كلمة الإمام الغزالي:

قال الغزالي في الإحياء: «إنّ في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً، ومتسعاً بالغاً، وإنّ المنقول من ظاهر التفسير، ليس منتهى الإدراك فيه. فيطل أن يشترط السماع في التأويل، وجاز لكل واحدٍ أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه، وحدّ عقله..»[1].

كلمة الراغب الأصفهاني:

وقال الراغب الأصفهاني في مقدمة التفسير ـ بعد أن ذكر المذهبين وأدلتها ـ قال: «وذكر بعض المحققين أنّ المذهبين هما (الغلوّ والتقصير) فمن اقتصر على المنقول فقد ترك كثيراً مما يحتاج إليه، ومن أجاز لكل أحدٍ الخوض فيه فقد عرّضه للتخليط، ولم يعتبر حقيقة قوله تعالى: ﴿**ليدبّروا آياته وليتذكر أولو الألباب**﴾[2]

كلمة الإمام القرطبي:

وقال العلامة القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن ما نصّه:

«وقال بعض العلماء: إنّ التفسير موقوف على السماع لقوله تعالى ﴿**فإنْ تنازعتُم في شيءٍ فردّوهُ إلى الله والرسول..**﴾[3] الآية، وهذا فاسد، لأنّ النهي عن تفسير القرآن لا يخلو إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط، أو المراد به أمر آخر. وباطل أن يكون المراد به ألاّ يتكلم أحد في القرآن، إلاّ بما سمعه، فإنّ الصحابة رضي الله عنهم قد قرؤوا القرآن واختلفوا في تفسيره على وجوه، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبي ﷺ فإنّ النبي ﷺ دعا لابن عباس فقال «اللهم

---

(١) أنظر: الإحياء، ج ٣، ص ٣٦، ٣٧.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٩. مقدمة التفسير للراغب، ص ٤٢٣

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩.

فقّهه في الدين وعلّمه التأويل ، فإن كان التأويل مسموعاً كالتنزيل فما فائدة تخصيصه بذلك ؟[1] ثم قال: والنهيُ محمول على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون له في الشيء رأي، وإليه ميل من الطبع والهوى، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه.

الثاني: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسماع والنقل، فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الحذف والإضمار، والتقديم والتأخير، تأمل قوله تعالى ﴿وآتينا ثمود الناقة مُبْصِرَةً فَظَلَموا بها﴾[2] فإنّ معناه: آتينا ثمود الناقة معجزة واضحة، وآية ظاهرة، فظلموا أنفسهم بقتلها. والناظر إلى ظاهر العربية يظنّ أن الناقة كانت مبصرة، ولا يدري بماذا ظلموا، وأنهم ظلموا غيرهم أو أنفسهم، فهذا من الحذف والإضمار، وأمثال هذا في القرآن كثير، وما عدا هذين الوجهين فلا يشمله النهي[3].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ج ١ ص ٣٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ج ١ ص ٣٤.

القسم الثالث

التفسير الإشاري وغرائب التفسير

النوع الثالث من التفسير هو (التفسير الإشاري) وسنتعرض في هذا البحث إلى معنى التفسير الإشاري، وإلى شروطه، وإلى آراء العلماء فيه، ثم نعقب ذلك ببيان نماذج عن التفسير الإشـاري، وأهم الكتب التي نحت هذا المنحى، وما فيها من حسنات وسيئات.

معنى التفسير الإشاري:

التفسير الإشاري هو: تأويل القرآن على خلاف ظاهره، لإشارات خفية تظهر لبعض أولي العلم، أو تظهر للعارفين بالله من أرباب السلوك والمجاهدة للنفس، ممّن نوّر الله بصائرهم فأدركوا أسرار القرآن العظيم، أو انقدحت في أذهانهم بعض المعاني الدقيقة، بواسطة الإلهام الإلهي، أو الفتح الرباني، مع إمكان الجمع بينها وبين الظاهر المراد من الآيات الكريمة.

فالتفسير الإشاري هو أن يرى المفسّر معنىً آخر، غير معنى الظاهر تحتمله الآية الكريمة، ولكنّه لا يظهر لكل إنسان وإنما يظهر لمن فتح الله قلبه، وأنار بصيرته، وسلكه في ضمن عباد الله الصالحين، الـذين منحهم الله ألفهم والإدراك، كما قال تعالى في قصة الخضر مع موسى عليه السلام ﴿فوَجَدَا عبْداً من عبادنا آتيناهُ رحمةً من

عندنا، وعلّمناهُ من لدّنا علماً﴾ [١].

وهذا النوع من العلم ليس من العلم (الكسبّي) الذي ينال بالبحث والمذاكرة وإنما هو من العلم (اللدُنيّ) أي الوهبيّ الذي هو أثر التقى والاستقامة والصلاح كما قال تعالى ﴿واتقوا الله ويعلمكُم اللهُ، واللهُ بكلِ شيءٍ عليم﴾ [٢].

آراء العلماء في التفسير الإشاري:

اختلف العلماء في التفسير الإشاري، وتباينت فيه آراؤهم، فمنهم من أجازه، ومنهم من منعه، ومنهم من عدّه من كمال الإيمان، ومحض العرفان ومنهم من اعتبره زيغاً وضلالاً، وانحرافاً عن دين الله تبارك وتعالى.

والواقع أن الموضوع دقيق، يحتاج إلى بصيرة ورؤية، وغوصٍ إلى أعماق الحقيقة، ليظهر ما إذا كان الغرض من هذا النوع من التفسير هو اتباع الهوى، والتلاعب في آيات الله كما فعل (الباطنية) فيكون ذلك زندقة وإلحاداً أو الغرض منه الإشارة إلى أن كلام الله تعالى، لا يحيط به بشر، لأنه كلام خالق القوى والقُدَر، وأنّ لكلامه تعالى مفاهيم وأسراراً، ونكتاً ودقائق، وعجائب لا تنقضي، فيكون ذلك من محض العرفان وكمال الإيمان، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: (إنّ القرآن ذو شجون وفنون، وظهورٍ وبطون، لا تنقضي عجائبه، ولا تُبْلغ غايتُه، فمن أوغل فيه برفقٍ نجا، ومن أوغل فيه بعنفٍ هوى، أخبار وأمثال، وحلال وحرام، وناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه، وظهر وبطن، فظهره التلاوة، وبطنه التأويل، فجالسوا به العلماء، وجانبوا به السفهاء) [٣].

أدلة المجيزين:

وقد استدل القائلون بجواز التفسير الإشاري بما رواه البخاري في صحيحه في باب التفسير، عند تفسير سورة (النصر) ونصّ الحديث.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٦٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الضحاك أنظر: الإتقان، ج ٢ ص ١٨٥.

عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال:

كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأنّ بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنّه مَن علمتم؟ فدعاني ذات يوم فأدخلني معهم، قال: فما رأيت أنه دعاني إلاّ ليريهم، فقال عمر: ما تقولون في قول الله تعالى ﴿إذا جاءَ نَصْرَ اللهِ والفَتْحُ﴾[1]؟ فقال بعضهم: أُمِرْنا بأن نحمد الله ونستغفره، إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذا تقول يا ابن عباس؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلَمه، فقال: ﴿إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فسبّح بحمد ربك واستغفرْهُ إنهُ كانَ تواباً﴾[2] فقال عمر: ما أعلم منها إلاّ ما تقول[3].

فهذا الفهم من ابن عباس لم يفهمه بقية الصحابة، وإنما فهمه عمر وفهمه ابن عباس، وهو من (التفسير الإشاري) الذي يلهمه الله من شاء من خلقه، ويطلع عليه بعض عباده، فالسورة الكريمة فيها (نعي) للنبي عليه الصلاة والسلام وإشارة إلى دنو أجله. ومثل هذا ما ورد في الحديث الشريف أن النبي ﷺ خطب الناس يوماً، فقال في جلة خطبته: «إنّ الله خيّر عبداً بين الدنيا، وبين ما عنده فاختار ما عنده»، فبكى أبو بكر - وفي رواية فقال فديناك يا رسول الله بآبائنا وأمهاتنا - فعجبنا له يبكي، فلما قبض رسول الله ﷺ علمنا أنه كان هو المخيّر، وكان أبو بكر أعلمنا[4].

فأبو بكر الصّديق فهم (طريق الإشارة) ما لم يفهمه عامة الصحابة، وكان الأمر كما قال.

طائفة من أقوال العلماء:

وأنا أنقل هنا طائفة من أقوال العلماء في التفسير الإشاري بإيجاز، سائلاً المولى أن

---

(١) سورة النصر، الآية: ١.

(٢) سورة النصر، الآية: ٣.

(٣) نقلاً عن جمع الفوائد وأعذب الموارد، ج ٢ ص ٢٨٥.

(٤) الحديث رواه البخاري والترمذي.

يلهمنا السداد والرشاد، وأن يجنبنا الخطأ والضلال، ثمّ أعقبها بكلمة لحجة الإسلام الإمام (الغزالي) رحمه الله فهي مسك الختام، فأقول ومن الله أستمد العون:

كلمة الزركشي في البرهان:

قال الزركشي في البرهان: «كلام الصوفية في تفسير القرآن، قيل إنّه ليس بتفسير، وإنما هو معانٍ ومواجيد يجدونها عند التلاوة كقول بعضهم في قوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين يلونكُم منَ الكفّار﴾[1] إن المراد «النّفسُ» يريدون أن علّة الأمر بقتال من يلينا هي القرب، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسُه».

كلمة النسفي والتفتازاني:

وقال النسفي في العقائد: «النصوص على ظواهرها، والعدول عنها إلى معانٍ يدّعيها أهل الباطل إلحاد..» اهـ.

وقال التفتازاني في شرحه على العقائد: «سميّت الملاحدة باطنية لادعائهم أنّ النصوص ليست على ظاهرها، بل لها معان لا يعرفها إلاّ المعلّم، وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية، قال: وأمّا ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها، ومع ذلك فيها إشارات خفيّة إلى دقائق تنكشف لأرباب السلوك، يمكن التوفيق بينها وبين الظواهر المرادة، فهو من كمال الإيمان، ومحض العرفان»[2]. فأنت ترى أن النسفي أشار إلى (الباطنية) وبيّن أن طريقهم إلحاد في دين الله، والتفتازاني فصّل البحث، ووضّح الموضوع، فردّ على (الباطنية) ضلالهم، وأقرّ لبعض أرباب السلوك طريقهم في استنباط الدقائق، والإشارات الخفية، وجعلها من كمال المعرفة والإيمان.

ومن هنا يظهر لنا الفرق جلياً بين (التفسير الإشاري) الذي هو تفسير بعض العارفين بالله، وبين (التفسير الباطني) الذي هو تفسير الباطنية الملاحدة الذين يحرّفون معاني الكتاب العزيز.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٣.

(٢) شرح العقائد النسفية للتفتازاني.

فالأولون: لا يمنعون إرادة الظاهر، بل يقولون إنه هو الأصل والأساس ويحضون عليه ويقولون: لا بدّ منْ معرفة الظاهر أولاً، إذ من ادّعى فهم أسرار القرآن ولم يُحْكِمْ الظّاهر، يكون كمن ادّعى بلوغ سطح البيت قبل أن يلج الباب.

وأما الباطنية: فإنهم يقولون: إن الظاهر غير مراد أصلاً، وإنما المراد الباطن وقصدُهم من وراء هذا الكلام، نفي الشريعة وإبطال الأحكام، وهذا بلا شك إلحاد في الدين، وقد قال الله تبارك وتعالى:

﴿إنّ الذين يُلْحِدونَ في آياتِنا لا يَخْفَوْنَ علينا، أفمَنْ يُلقى في النارِ خيرٌ أمْ منْ يأتي آمناً يوم القيامة، اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾[1].

كلام السيوطي في الاتقان:

والعلامة السيوطي ذكر في كتابه (الاتقان) عن ابن عطاء النص الآتي: «اعلم أن التفسير من هذه الطائفة (يعني التفسير الإشاري) لكلام الله وكلام رسوله بالمعاني العربية، ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جاءت الآية له، ودلت عليه في عرف اللسان، ولهم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث، لمن فتح الله قلبه.

فلا يصدّنك عن تلقي هذه المعاني منهم، أن يقول لك ذو جدل ومعارضة هذا إحالة لكلام الله وكلام رسوله ﷺ، فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون حالة لو قالوا: لا معنى للآية إلاّ هذا، وهم لم يقولوا ذلك، بل يقرّرون الظواهر على ظواهرها، مراداً بها موضوعاتها، ويفهمون عن الله ما ألهمهم[2]

أقول: هذا كلام الإنصاف، فقد وضع الشيخ الحقّ في نصابه، وجمع بين النصوص الظاهرة، والمعاني الخفية الواردة، التي تشرق على قلب المؤمن العارف بالله، كما كان الحال مع الصّديق وعمر، ولا عجب فالله تعالى يعطي الحكمة من يشاء، ويضع الفهم

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٠.

(٢) أنظر: الإتقان، ج ٢ ص ١٨٥.

فيمن أراد، وهذا هو القرآن الكريم يخبرنا عن (داود وسليمان) في أمر عرض عليهما فحكم كلّ واحدٍ منهما بحكم يخالف الآخر فيقول: ﴿ففهّمناها سليمان وكلاً آتينا حُكماً وعلماً﴾ (١).

معنى الحديث الوارد في التفسير الإشاري:

ويجدر بنا هنا أن نبيّن معنى الحديث الوارد في التفسير الإشاري، في بيان معنى ظهر الآية وبطنها، وحدّ الحرف، ومطلع الحد.. الخ. لئلا يتخذه الملاحدة الباطنية حجة لهم في دعواهم الباطلة، في تفسير كلام الله تعالى على طريقتهم الباطنية، وتلاعبهم في النصوص الكريمة حسب الأهواء.

روى الفريابي بسنده عن الحسن عن النبي ﷺ أنه قال: «لكل آية ظهر وبطن، ولكل حرفٍ حدّ، ولكل حدّ مطلع».

وروى الطبراني عن ابن مسعود موقوفاً: «إن هذا القرآن ليس منه حرف إلاّ له حدّ، ولكل حدٍّ مطلعٌ».

وقد ذكر العلامة السيوطي بعض الوجوه في تأويل الحديث الشريف في معنى (الظهر والبطن) ونحن نذكر أقرب هذه الأوجه إلى الصواب:

الوجه الأول: أن المراد بالظاهر لفظها، وبالباطن تأويلها.

الوجه الثاني: أن المراد بالظاهر، ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر، وبطنها ما تضمّنته من الأسرار، التي أطلع الله عليها أرباب الحقائق.

الوجه الثالث: أن القصص التي قصّها الله تعالى عن الأمم الماضية، وما عاقبهم به، ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين، وباطنها وعظ الآخرين، وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم، فيحلّ بهم مثل ما حلّ بهم، قال السيوطي: وهذا الوجه اشبهها بالصواب (٢)

---

(١) سورة الإنبياء، الآية: ٨٩.

(٢) عن الإتقان ج ٢ ص ١٨٤ بتصرف.

وأما المراد (بالحدّ) فهو أحكام الحلال والحرام، والمراد (بالمطلع) الوعد والوعيد ويؤيده حديث ابن عباس السابق (إن القرآن ذو شجون وفنون) الحديث وقد مرّ معك ذكره.

شروط قبول التفسير الإشاري:

والتفسير الإشاري لا يكون مقبولاً إلاّ إذا توفرت فيه الشروط الآتية:

أولاً: عدم التنافي مع المعنى الظاهر في النظم الكريم.

ثانياً: عدم ادعاء أنه المراد وحده دون الظاهر.

ثالثاً: ألاّ يكون التأويل بعيداً سخيفاً لا يحتمله اللفظ، كتفسير الباطنية قوله تعالى: ﴿وورث سليمانُ داودَ﴾[1] أي أن الإمام علياً ورث النبيّ في علمه.

رابعاً: ألاّ يكون له معارض شرعي أو عقلي.

خامساً: ألاّ يكون فيه تشويش على أفهام الناس.

وبدون هذه الشروط لا يقبل التفسير الإشاري، ويكون عند ذلك من قبيل التفسير بالهوى والرأي المنهي عنه والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

كلمة قيمة للشيخ الزرقاني:

ونسوق هنا كلمة قيمة للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني حول التفسير الإشاري، فيها حكمة بالغة. ونصيحة صادقة، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. قال رحمه الله:

«ولعلك تلاحظ معي أن بعض الناس قد فتنوا بالإقبال على دراسة تلك الإشارات والخواطر، فدخل في روعهم أنّ الكتاب والسنة، بل والإسلام كله ما هي إلاّ سوانح وواردات، على هذا النحو من التأويلات والتوجيهات وزعموا أنّ الأمر ما هو إلاّ تخييلات، وأنّ المطلوب منهم هو الشطح مع الخيال أينما شطح، فلم يتقيّدوا بتكاليف

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٦.

الشريعة، ولم يحترموا قوانين اللغة العربية، في فهم أبلغ النصوص العربية، كتاب الله وسنة رسوله.

والأدهى من ذلك أنهم يتخيّلون للناس، أنهم هم أهل الحقيقة الذين أدركوا الغاية، واتصلوا بالله اتصالاً أسقط عنهم التكليف، وسما بهم عن حضيض الأخذ بالأسباب، ما داموا في زعمهم مع ربّ الأرباب، وهذا ـ لعمر الله ـ هو المصاب العظيم، الذي عمل له الباطنية كيما يهدموا التشريع من أصوله، ويأتوا بنيانه من قواعده.

فواجب النصح لإخواننا المسلمين يمتضينا أن نحذرهم الوقوع في هذه الشباك، ونشير عليهم أن ينفضوا أيديهم من أمثال تلك التفاسير الإشارية الملتوية، لأنها كلها أذواق ومواجيد خارجة عن حدود الضبط والتقييد، وكثيراً ما يختلط فيها الخيال بالحقيقة، والحق بالباطل، فالأحرى بالفطن العاقل أن ينأى بنفسه عن هذه المزالق، وأن يفرّ بدينه من هذه الشبهات، وأمامه في الكتاب والسنة، وشروحها على قوانين الشريعة واللغة، رياض وجنات ﴿**أتستبدلونَ الذي هو أدنى بالذي هو خير**﴾ [1]؟.

كلمة حجة الإسلام الغزالي:

ويقول حجة الإسلام الغزالي رحمه الله في كتابه (إحياء علوم الدين) في فصل الذكر والتذكير ما نصّه:

« وأمّا الشطح فنعني به ضنفين من الكلام أحدثها بعض الصوفية:

أحدها: الدعاوي الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد، وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية، والمشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا وقلنا كذا، ويتشبّهون فيه بالحسين (الحلاج) الذي صلب لاجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس، ويستشهدون بقوله: « أنا الحق » وهذا فنّ من الكلام عظيم ضرره على العوام، حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦١. أنظر مناهل العرفان، ج ١ ص ٥٥٨.

الثاني: كلمات غير مفهومة، لها ظواهر رائقة، وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوّش القلوب ويدهش العقول ويحيّر الأذهان، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه « ما حدّث أحد قوماً بحديث لا يفقهونه إلاّ كان فتنةً عليهم[1] ».

وقال علي كرّم الله وجهه: « كلموا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذّب الله ورسوله »[2].

أمثلة على التأويل الإشاري الفاسد:

ثم قال طيّب الله ثراه: « وأمّا الطاعات فيدخلها ما ذكرناه من الشطح، وأمر آخر يخصها وهو: صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة، إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة، فهذا أيضاً حرام وضرره عظيم. ومن أمثلة تأويل أهل الطّامات، قول بعضهم في تأويل قوله تعالى **﴿اذهبْ إلى فرعونَ إنّه طغى﴾**[3] إنه إشارة إلى قلبه، وقال هو المراد بفرعون، وهو الطاغي على كل انسان. وفي قوله تعالى **﴿وأن ألقِ عصاكَ﴾**[4] أي كل ما يتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله عز وجل فينبغي أن يلقيه.

وفي قوله ﷺ: « تسحّروا فإن في السحور بركة » فسّروا السحور بأنه الاستغفار في الأسحار وأمثال ذلك حتى ليحرفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء، وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعاً، كتنزيل فرعون على القلب، فإنّ فرعون شخص محسوس تواتر إلينا النقل بوجوده، وبعضها يعلم بطلانه بغالب الظنّ، وكلّ ذلك حرام وضلالة، وإفساد للدين على الخلق.

---

(١) روي في مقدمة صحيح مسلم موقوفاً على ابن مسعود.

(٢) رواه البخاري موقوفاً على علي.

(٣) سورة طه، الآية: ٢٤.

(٤) سورة القصص، الآية: ٣١.

ومن يستجيز من أهل الطّامات مثل هذه التأويلات، مع علمه بأنها غير مرادة بالألفاظ، يضاهي من يستجيز الاختراع والوضع (الكذب) على رسول الله ﷺ كمن يضع في كل مسألة يراها، حديثاً عن النبي ﷺ فذالك ظلم وضلال، ودخول في الوعيد « من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ».. بل الشرّ في تأويل هذه الألفاظ أطمّ وأعظم، لأنه مبطل للثقةبالألفاظ، وقاطع طريق الاستفادة والفهم من القرآن بالكلية[1]..) انتهىٰ كلام الغزالي.

خلاصة البحث:

ومما تقدم يتبين لنا أن التفسير الإشاري له ما يؤيده من الشرع، ولكنه قد دخلت عليه بعض التأويلات الفاسدة، وسلك فيه بعض الناس مسلك الباطنية ولم يراعوا الشروط التي وضعها العلماء، وأخذوا يخبطون فيه خبط عشواء، بل أصبح كلّ من هبّ ودبّ، يتطاول على كتاب الله تعالى، فيتأوله حسب ما يمليه عليه الهوى، أو يسوس له به الشيطان، ويزعم أنه من التفسير الإشاري مع أنه سفاهة وضلالة وجهالة، لأنه تحريف لكتاب الله، وسلوك لمسلك الباطنية الملاحدة وهو إن لم يكن تحريفاً لألفاظه فإنه تحريف لمعانيه. ولقد سمعت من يستشهد بالآية الكريمة **﴿قل الله ثم ذرهُم في خوضهم يلعبوْن﴾**[2] على ضرورة ملازمة المريد لذكر الله تعالى بلفظ (الله) فجعل هذه اللفظة مقول القول: أي (قل: الله) وما درى هذا الجاهل الغبيّ أنّ هذه جملة حذف منها الخبر، والتقدير: (الله أنزله) بدليل سياق الآية الكريمة **﴿وما قدروا الله حقَّ قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشرٍ منْ شيء ، قل مَن أنزل الكتاب الذي جاء به موسى..﴾** إلى قوله: **﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾** وأمثال هذا التخليط كثير. فلا ينبغي لعلماء المسلمين أن يسمحوا لأمثال هؤلاء الجهلة، بالتطاول على كتاب الله، وبتفسيره بما يخالف الظاهر، ويجافي الحق والصواب، زعماً منهم أنه من نوع (التفسير الاشاري) فالتفسير له حدود وشروط، وليس لكل انسان أن يقول فيه

---

(١) الإحياء للغزالي باختصار.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

برأيه، أو يعبث في نصوصه بفهمه العليل، ولقد صدق شيخ الإسلام (ابن تيمية) حين قال: «نصف طبيب يفسد الأبدان، ونصف عالم يفسد الأديان» والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

(غرائب التفسير)

ذكر العلامة (السيوطي) في كتابه الاتقان، نقلاً عن الكرماني أنه ألّف كتاباً في مجلدين سماه (العجائب والغرائب) ضمنّه أقوالاً منكرة في التفسير، لا يجوز قولها ولا الاعتماد عليها، لأنها من أقوال أهل الضلال، وإنما ذكرها للتحذير منها، وقال: إنما أردت بذكرها أن يعلم الناس أنّ فيمن يدّعي العلم حمقى. ونحن ننقل طرفاً منها، وننقل بعض أقوال أخرى عن الباطنية حتى يحذر المسلمون من أمثال هذه الأباطيل، التي دخلت على الأمة الإسلامية بسبب التعصب الأعمى واتباع الأهواء.

أمثلة على هذه الغرائب.

أولاً: في قوله تعالى ﴿حمعسق﴾ [1] قالوا: الحاء حرب علي ومعاوية، والميم ولاية بني مروان، والعين ولاية العباسيين، والسين ولاية السفيانيين، والقاف القدوة بالمهدي، إلى غير ما هنالك من الضلال.

ثانياً: قوله تعالى ﴿ولكُم في القصاص حياةٌ يا أولي الألباب﴾ [2] قالوا: القصاص المراد به قصص القرآن، وهو باطل لغة وشرعاً، وقول لا يقول به إلا الجهلاء.

ثالثاً: قوله تعالى ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾ [3] قالوا: إن إبراهيم كان له صديق وصفه بأنه قلبه، وفسّروه بمعنى ولكن ليسكن صديقي وهذا بعيد جداً.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

رابعاً: قوله تعالى ﴿ربّنا ولا تُحملّنا مالا طاقةَ لنا به﴾ [1] قالوا: إنه الحبّ والعشق، ففسّروا مالا طاقة للإنسان به بهذا التفسير الباطل، وهذا حكاه الكواشي في تفسيره.

خامساً: قوله تعالى ﴿ومن شرِّ غاسقٍ إذا وقَبَ﴾ [2] قالوا: إنّه الذّكر إذا انتصب، وهذا بلا شك ـ جرأة غريبة، ووقاحة شنيعة لا تصدر إلاّ من سفيه أحمق.

سادساً: قوله تعالى ﴿الذي جعلَ لكُم منَ الشجرِ الأخضر ناراً فإذا أنتُم منه توقِدون﴾ [3] قالوا: المراد بالشجر الأخضر (إبراهيم) وناراً أي نوراً (محمد) ﷺ، فإذا أنتم منه توقدون أي تقتبسون الدين [4]. وهذا التفسير من الغرائب لا تدل عليه اللغة، وهو تأويل باطل لنصوص القرآن، وإن كان سبكه جميلاً وعبارته لطيفة.

نماذج عن تفسير الشيعة:

الشيعة هم فرق عديدة، أسرفوا في حبّ الإمام (علي) كرّم الله وجهه، فمنهم من أغرق في نفس التشيّع حتى كفر، وعلى رأس هؤلاء (ابن سبأ) اليهودي الخبيث الذي ما اعتنق الاسلام إلا بقصد الكيد له، والدس فيه، ومنهم من يعتقد بأن الأمين جبريل قد تاه وأخطأ في النزول، وأنه كان سينزل بالرسالة على (علي) فأخطأ ونزل على (محمد) وهؤلاء كانوا دائماً في حرب وخصومة مع المسلمين، حتى ورد أنّ علياً نفسه شن الغارة عليهم وحاربهم وطاردهم على كفرهم وضلالهم.

ومنهم أناس معتدلون، لم يسقطوا في هاوية الكفر، وإنما خالفوا أهل السنة والجماعة، واعتقدوا بأفضلية (علي) على جميع الصحابة وأنه أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان، وبأحقيته بالخلافة لأنه من آل البيت، واعتقدوا بأن الخلفاء الثلاثة قد سلبوا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) سورة الفلق، الآية: ٣.

(٣) سورة يس، الآية: ٨٠.

(٤) الإتقان، ج ٢ ص ١٨٦ بتصرف

علياً حقه في توليهم الخلافة، ومنهم من يفضل علياً فقط، ومنهم من لا يكتفي بذلك بل يشتم (الشيخين) أبا بكر وعمر، ويعتقد فيهم الضلال والعياذ بالله، مع أن الله تعالى أثنى عليهما في آيات عديدة وجعلهم من خاصة أصحاب نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، وسنعرض إلى نماذج من تأويلات (الإثني عشرية) والشيعة (السبئية) في كتاب الله الكريم.

من تفسيرات الشيعة (الاثني عشرية):

١ - ﴿**ثم ليقضوا تَفَثَهُمْ**﴾[١] فسّروه بلقاء الإمام علي رضوان الله عنه.

٢ - ﴿**يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة**﴾[٢] الراجفة الحسين، والرادفة أبوه علي كرم الله وجهه.

٣ - ﴿**إنما وليكُم اللهُ ورسولُه والذين آمنوا**﴾[٣] يعني بالذين آمنوا الأئمة الإثني عشرية.

٤ - ﴿**لا تتخذوا إلهين اثنين**﴾[٤] أي لا تتخذوا إمامين إنما هو إمام واحد.

٥ - ﴿**وأشْرَقتِ الأرضُ بنورِ ربِّها**﴾[٥] أي أشرقت بنور الإمام رضي الله عنه

٦ - ﴿**مثلُ الذينَ كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدَّت بهِ الريحُ**﴾[٦] الآية، فسروها بأنَّ من لم يقرَّ بولايـة عليّ عليه السلام بطل عمله، وأصبح كالرماد الذي تحمله الريح فتذروه.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٩.

(٢) سورة النازعات، الآية: ٦.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٤) سورة النحل، الآية: ٥١.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٦٩.

(٦) سورة إبراهيم، الآية: ١٨.

٧ - ﴿يا ليتني كنتُ تراباً﴾[١] أي من شيعة (أبي تراب) ،هي كنية علي رضي الله عنه.

من تفسيرات السبئية:

١ - السبئية من الشيعة، وهم يزعمون أنّ علياً كرّم الله وجهه في السحاب، ويفسرون الرعد بأنه صوت عليّ، والبرق لمعان سوطه أو تبسمه وإذا سمع أحدهم صوت الرعد يقول: عليك السلام يا أمير المؤمنين.

٢ - ومن مزاعمهم أنهم يعتقدون بأن محمداً ﷺ سيرجع إلى الحياة الدنيا ويستدلون بقوله تعالى: ﴿**إنّ الذي فرضَ عليكَ القرآن لرادُّكَ إلى مَعَادٍ**﴾[٢] أي سيرجعك إلى الدنيا.

٣ - وفي آية الأمانة ﴿**إنّا عرَضْنَا الأمَانَةَ على السمواتِ والأرض والجبال فأبيْنَ أنْ يحملنها وأشفقن منها وحَمَلَها الإنسانُ إنّه كانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾[٣] يزعمون أنّ الظلوم الجهول هو (أبو بكر).

٤ - وفي قوله تعالى: ﴿**كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر..**﴾[٤] يفسرون الشيطان بأنه عمر[٥]

ومن تفاسير الشيعة كتاب يسمى (مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار) وهو مطبوع. مؤلفه يدعى المولى (الكازلاني) من النجف. وهذا التفسير مشتمل على تأويلات تشبه تأويلات الباطنية، فالأرض يفسّرها بالدين، وبالأئمة عليهم السلام، وبالشيعة، وبالقلوب التي هي محل العلم وقراره، وبأخبار الأمم الماضية.. الخ.

---

(١) سورة النبأ، الآية: ٤٠.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٥.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

(٤) سورة الحشر، الآية: ١٦.

(٥) أنظر كتاب الوشيعة في نقد عقائد الشيعة ص ٦٥، والفرق بين الفرق، للبغدادي.

فيقول في قوله تعالى ﴿ألم تكن أرض الله واسعة﴾[1] المراد دين الله وكتاب الله. ويقول في قوله تعالى: ﴿أولم يسيروا في الأرض﴾[2] المراد أولم ينظروا في القرآن الخ.

فأنت ترى أنه قد حمل اللفظ الذي لا يجهله أحد، على معانٍ غريبة من غير دليل، وما حمله على ذلك إلاّ مركب الهوى، والتعصب الأعمى لمذهبه، وذلك لا شك ضلال لا يقل عن ضلال الباطنية ولا البهائية ﴿ومَنْ يُضْلِلِ الله فمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[3].

تفسيرات الباطنية:

الباطنية ترم لا يقبلون الأخذ بظاهر القرآن، وإنما يقولون: إن القرآن له (ظاهر وباطن) ويعتقدون بأن المراد منه (الباطن) دون الظاهر، ويستدلون بقوله تعالى ﴿فضُرِبَ بَينَهم بسورٍ له بابٌ، باطنهُ فيه الرحمةُ، وظاهرهُ مِنْ قِبلِه العذابُ﴾[4].

وهم فرق متعدّدة نذكر أهمها:

١ ـ الإسماعيلية: نسبة إلى (إسماعيل) أكبر أولاد جعفر الصادق وكانوا يعتقدون فيه الإمامة.

٢ ـ القرامطة: نسبة إلى (قرمط) إحدى قرى واسط، وقد تزعمهم رجل منها اسمه (حمدان).

٣ ـ السبعية: نسبة إلى (السبعةُ) لأنهم يعتقدون أنّ في كل سبعة منهم إماماً يقتدى به.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٧.

(٢) سورة محمد، الآية: ١٠.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٣٣. نقلاً عن كتاب مناهل العرفان ج ١ ص ٥٤٥.

(٤) سورة الحديد، الآية: ١٣.

٤ ـ الحرميّة: نسبة إلى (الحرمة) وذلك لأن هؤلاء يستبيحون الحرمات والفواحش[١].

نماذج عن تفسير الباطنية:

١ ـ قوله تعالى ﴿لتركبُنّ طبقاً عَنْ طبَق﴾[٢] قالوا: إنه إشارة إلى الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء، أي لتسلكن سبيل من قبلكم بالغدر في الأئمة بعد الأنبياء.

٢ ـ قوله تعالى ﴿قالَ الّذين لا يَرْجُونَ لِقَاءنا ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدّله﴾[٣] يفسرونه (أو بدّله) أي بدّل علياً، ومعلوم أن علياً لم يسبق له ذكر.

٣ ـ قوله تعالى ﴿إنَّ الذين آمنوا ثُمَّ كفروا ثُمَّ آمنوا ثم كفروا ثُم ازدادوا كفراً لم يكن اللهُ ليغفِر لهم ولا ليَهْديَهم سبيلاً﴾[٤] قالوا: إن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان، آمنوا بالنبي أولاً، ثم كفروا حيث عرضت عليهم ولاية عليّ، ثم آمنوا بالبيعة لعلي، ثم كفروا بعد النبي، ثم ازدادوا كفراً بأخذ البيعة من كل الأمة[٥].

٤ ـ قوله تعالى ﴿إنَّ اللهَ يأمركُمْ أنْ تذبَحُوا بقرةً﴾[٦] قالوا: المراد بالبقرة (عائشة) والمراد (اضربوه ببعضها) طلحة والزبير.

٥ ـ قوله تعالى ﴿إنما الخمرُ والميسرُ﴾[٧] قالوا: المراد بهما أبو بكر وعمر، قاتلهم الله أنّى يؤفكون. وباختصار فمذهب الباطنية وباء وضلال، انتقل إليهم من المجوس، وهم يؤولون (الجنابة) بإفشاء السّر، ويؤولون (الغسل) بتجديد العهد، و

---

(١) أنظر كتاب الفرق بين الفرق للبغدادي.

(٢) سورة الإنشقاق، الآية:١٩.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٥.

(٤) سورة النساء، ١٣٧.

(٥) أنظر: الوشيعة في نقد عقائد الشيعة ص ٦٥.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٦٧.

(٧) سورة المائدة، الآية: ٩٠

(التيمم) بالأخذ عن المأذون، و (الصوم) بالإمساك عن كشف السر، إلى آخر ما لديهم من ضلالاتْ ونجاسات. وهذه التأويلات الفاسدة، من أشد وأنكى ما يصاب به الإسلام والمسلمون، لأنها تؤدي إلى نقض بنيان الشريعة حجراً حجراً، وتجعل القرآن ألعوبة بين أيدي هؤلاء الأنعام، ومن فضل الله أنّ كتبهم لم تظهر إلى الوجود، وأنهم يخفون هذا في نفوسهم، وينفثون به بين كل حين وآخر، وهم إلى الزوال والفناء إن شاء الله، والله غالب على أمره ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون.

اشهر كتب التفسير

(بالرواية والدراية والاشارة)

مع تعريف موجز عن أصحابها

أشهر كتب التفسير بالمأثور

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ الوفاة	الشهرة
١	جامع البيان في تفسير القرآن	محمد بن جرير الطبري	٣١٠ هـ	تفسير الطبري
٢	بحر العلوم	نصر بن محمد السمرقندي	٣٧٣ هـ	تفسير السمرقندي
٣	الكشف والبيان	أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري	٤٢٧ هـ	تفسير الثعلبي
٤	معالم التنزيل	الحسين بن مسعود البغوي	٥١٠ هـ	تفسير البغوي
٥	المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز	عبد الحق بن غالب الأندلسي	٥٤٦ هـ	تفسير ابن عطية
٦	تفسير القرآن العظيم	اسماعيل بن عمر الدمشقي	٧٧٤ هـ	تفسير ابن كثير
٧	الجواهر الحسان في تفسير القرآن	عبد الرحمن بن محمد الثعالبي	٨٧٦ هـ	تفسير الجواهر

٨ الدر المنثور في جلال الدين السيوطي ٩١١ هـ تفسير السيوطي
التفسير بالمأثور .

التعريف بكتب التفسير بالمأثور

١ - تفسير ابن جرير :

مؤلفه هو ابن جرير الطبري، وكنيته (أبو جعفر) ولد سنة ٢٢٤ هـ وتوفي سنة ٣١٠ هـ، وكتابه من أجل التفاسير بالمأثور، وأصحها وأجمعها لأقوال الصحابة والتابعين، ويعتبر المرجع الأول للمفسرين، قال النووي : « كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنّف أحدٌ مثلَه ».

مزايا هذا التفسير :

١ - اعتماده على المأثور من أقوال النبي ﷺ والصحابة والتابعين.

٢ - عرضه للأسانيد وللأقوال المروية وترجيحه للروايات.

٣ - إحاطته بالناسخ والمنسوخ من الآيات ومعرفته لطرق الرواية صحيحها وسقيمها.

٤ - ذكره لوجوه الأعراب، واستنباط الأحكام الشرعية من الآيات الكريمة.

وأخيراً فهو كتاب عظيم جليل، حافل بالروائع، إلا أنه أحياناً أخباراً بأسانيد غير صحيحة، ثم لا ينبّه على عدم صحتها، كما أنه يسوق بعض أخبار هي من (الروايات الإسرائيلية) وتفسيره مطبوع منتشر في الأقطار وهو عمدة لأكثر المفسّرين.

٢ - تفسير السمرقندي :

مؤلفه نصر بن محمد السمرقندي، وكنيته (أبو الليث توفي سنة ٣٧٣ هـ وكتابه يسمى (بحر العلوم) وهو تفسير بالمأثور، يذكر فيه كثيراً من أقوال الصحابة والتابعين، غير أنه لا يذكر الأسانيد، وهو مخطوط في مجلدين، وتوجد نسخة منه في مكتبة الأزهر.

٣ - تفسير الثعلبي:

مؤلف هذا التفسير هو أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، المقريء المفسّر، كنيته (أبو اسحق) وقد توفي سنة ٤٢٧ هـ أما ولادته فليست معروفة على وجه الضبط، وكتابه يسمى (الكشف والبيان عن تفسير القرآن).

يفسّر القرآن بما ورد عن السلف، مع اختصاره للأسانيد، اكتفاءً بذكرها في مقدمة الكتاب، ويتوسع في الأبحاث النحوية والفقهية، وهو مولع بالقصص والأخبار، ولهذا فإننا نجد في تفسيره قصصاً اسرائيلية نهاية في الغرابة، بل منها ما هو باطل قطعاً.

يقول ابن تيمية عنه: «الثعلبي في نفسه فيه خير ودين، ولكنه حاطب ليل»[1].

وتفسيره مخطوط غير كامل ينتهي إلى آخر سورة الفرقان وهو موجود بمكتبة الأزهر، وباقي الكتاب مفقود.

٤ - تفسير البغوي:

مؤلف هذا التفسير هو الحسين بن مسعود الفرّاء البغوي، الفقيه، المفسّر المحدّث الملقّب بمحيي السنة، كنيته (أبو محمد) توفي سنة ٥١٠ بعد أن جاوز الثمانين من العمر، وكان إماماً جليلاً، ورعاً زاهداً، جامعاً بين العلم والعمل، وقد عدّة السبكي من أعلام علماء الشافعية

وقال ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير: «والبغوي في تفسيره مختصر من الثعلبي، ولكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة، والآراء المبتدعة[2].

وقد طبع هذا التفسير مع تفسير ابن كثير. كما طبع مع تفسير الخازن. وتفسيره هذا فيه بعض القصص الإسرائيلية، ولكنه في جملته أحسن وأسلم من كثير من كتب التفسير بالمأثور.

---

(١) أنظر: أصول التفسير لابن تيمية ص ١٩.

(٢) أصول التفسير لابن تيمية، ص ١٩.

٥ - تفسير ابن عطية:

مؤلف هذا التفسير هو عبد الحق بن غالب بن عطيّة، الأندلسي، المغربي، الغرناطي، وكنيته (أبو محمد) ولد سنة ٤٨١ هـ وتوفي سنة ٥٤٦ هـ.

كان نحوياً لغوياً، أديباً شاعراً، على غاية من الذكاء والدهاء، وقد تولى القضاء بالأندلس في العصور الذهبية للإسلام، وتفسيره يسمى (المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) وقد جمع فيه مؤلفه الأقوال التي ذكرها علماء (التفسيربالمأثور) وتحرّى ما هو أقرب إلى الصحة منها.

وابن تيمية في فتاواه يعقد مقارنة بين تفسير (ابن عطية) وتفسير (الزمخشري) فيقول: «وتفسير ابن عطيّة خير من تفسير الزمخشري، وأصح نقلاً وبحثاً وأبعد عن البدع، وأن اشتمل على بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعلّه أرجح هذه التفاسير»[1].

وهذا الكتاب على شهرته الواسعة، ومزاياه الفريدة، لا يزال مخطوطاً إلى اليوم، وهو يقع في عشر مجلدات كبار، ولعلّ الله يوفق من يخرج لنا هذا الكنز الثمين، ويطبعه ليعم به نفعه.

٦ - تفسير ابن كثير:

مؤلف هذا التفسير هو الحافظ عماد الدين (اسماعيل بن عمرو بن كثير) القرشي الدمشقي كنيته (أبو الفداء) ولد سنة ٧٠٠ هـ وتوفي سنة ٧٧٤ هـ.

كان ابن كثير رحمه الله جبلاً شامخاً، وبحراً ذاخراً في جميع العلوم وخاصة في التاريخ والحديث والتفسير، وكان إماماً جليلاً متفنّناً في أسلوب الكتابة والتأليف، قال الذهبي عنه:

«الإمام المفتي، المحدّث البارع، فقيه متفنّن، محدّث متقن، مفسّر نقّال، وله تضانيف مفيدة».

---

(١) فتاوى ابن تيمية، ج ٢ ص ١٤٢.

وتفسيره هذا يسمى (تفسير القرآن العظيم) وهو من أشهر ما دوّن في التفسير بالمأثور، ويعتبر الكتاب الثاني بعد كتاب الطبري، أعتنى فيه مؤلفه بالرواية عن مفسّري السلف، فروى الأحاديث والآثار مسندة إلى أصحابها وتكلّم عن بعضها بالجرح والتعديل، وردّ ما كان منها منكراً أو غير صحيح وهكذا يعتبر تفسيره من أحسن ما كتب في التفسير بالمأثور. وطريقته في التفسير أنه يذكر الآية، ثم يفسرها بعبارة سهلة موجزة، ويأتي لها بشواهدٍ من آيات أخرى، ويقارن بين هذه الآيات حتى يتبين المعنى ويظهر المراد، وهو شديد العناية بهذا النوع من التفسير، الذي يسمونه (تفسير القرآن بالقرآن).

وأنا أنقل طرفاً ممّا جاء في مقدمة تفسيره، يقول طيّب الله ثراه:

« فإن قال قائل فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: أنّ أصح الطريق في ذلك أن يفسّر القرآن بالقرآن، فما أجْمل في مكانٍ فإنه قد بسط في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسُنّة فإنها شارحة للقرآن وموضّحة له، بل قد قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: كلّ ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، قال الله تعالى ﴿إنّا أنزلنا إليكَ الكتابَ بالحق لتحكمَ بين الناس بما أراكَ اللهُ﴾[1] وقال ﷺ: « ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه »[2].

ومما يمتاز به (ابن كثير) أنه ينبّه إلى ما في التفسير بالمأثور من منكرات الإسرائيليات ويحذّر منها، وعلى الجملة فعلم ابن كثير يتجلى بوضوح لمن يقرأ تفسيره وتاريخه. وهما من خير ما أُلّف، ومن أفضل ما كتب، وتفسيره هذه من أصح التفاسير بالمأثور إن لم يكن أصحها جميعاً.

٧ - تفسير الجواهر:

مؤلف هذا التفسير هو الإمام الجليل عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي،

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

(٢) أنظر: تفسير ابن كثير، ج ١ ص ٣.

الجزائري المغربي المتوفي سنة ٨٧٦ هـ وتفسيره هذا من التفسير بالمأثور نقل فيه أقوال السلف الصالح، وميّز بين الصحيح والضعيف، وتفسيره هذا مطبوع.

٨ ـ تفسير السيوطي:

مؤلف هذا التفسير هو الإمام الحجة الثقة جلال الدين السيوطي، صاحب المؤلفات الشهيرة المولود سنة ٧٤٩ المتوفي سنة ٩١١ هـ وتفسيره هو المسمى (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) قال في مقدمته: إنه لخصّه من كتاب ترجمان القرآن، وهو التفسير المسند إلى رسول الله ﷺ وهو مطبوع بمصر، وقد ذكر في كتابه الإتقان: أنه شرع في تفسير جامع لما يحتاج إليه من التفاسير المنقولة، والأقوال المعقولة، والاستنباط والإشارات والأعاريب واللغات، ونكت البلاغة ومحاسن البديع وسمّاه (مجمع البحرين ومطلع البدرين) وهو غير هذا التفسير المسمّى بالدر، وقد احصيت مؤلفاته فبلغت قريباً من خمس مائة. رحمه الله تعالى على ما قدّم في سبيل خدمة العالم والدين.

اشهر كتب التفسير بالدراية (بالرأي)

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ الوفاة	الشهرة
١	مفاتيح الغيب	محمد بن عمر بن الحسين الرازي	٦٠٦ هـ	تفسير الرازي
٢	أنوار التنزيل وأسرار التأويل	عبد الله بن عمر البيضاوي	٦٨٥ هـ	تفسير البيضاوي
٣	لباب التأويل في معاني التنزيل	عبدالله بن محمد المعروف بالخازن	٧٤١ هـ	تفسير الخازن
٤	مدارك التنزيل وحقائق التأويل	عبدالله بن أحمد النسفي	٧٠١ هـ	تفسير النسفي
٥	غرائب القرآن ورغائب الفرقان	نظام الدين الحسن محمد النيسابوري	٧٢٨ هـ	تفسير النيسابوري
٦	ارشاد العقل السليم	محمد بن محمد بن مصطفى الطحاوي	٩٥٢ هـ	تفسير أبي السعود
٧	البحر المحيط	محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي	٧٤٥ هـ	تفسير أبي حيّان
٨	روح المعاني	شهاب الدين محمد الألوسي البغدادي	١٢٧٠ هـ	تفسير الألوسي

٩	السراج المنير	محمد الشربيني الخطيب	٩٧٧ هـ	**تفسير الخطيب**
١٠	تفسير الجلالين	١ ـ جلال الدين المحلي	٨٦٤ هـ	**تفسير الجلالين**
		٢ ـ جلال الدين السيوطي	٩١١ هـ	

التعريف بكتب التفسير بالرأي

١ ـ تفسير الفخر الرازي :

مؤلف هذا التفسير هو العلامة الشيخ محمد بن عمر الرازي المتوفي سنة ٦٠٦ هـ وتفسيره يسمّى (مفاتيح الغيب) وقد سلك في تفسيره ، مسلك الحكماء الإلهيّين ، فصاغ أدلته في مباحث الإلهيات ، وردّ على المعتزلة والفرق الضّالة بالحجج الدامغة ، والبراهين القاطعة ، وتعرّض لشبهات المنكرين والجاحدين بالنقض والتفنيد ، وتفسيره من أوسع التفاسير في موضوع علم الكلام ، كما أنه في العلوم الطبيعية والكونية إمام جليل ، فقد تكلّم عن الأفلاك والأبراج وعن السماء والأرض ، والحيوان والنبات ، وفي أجزاء الإنسان ، بشكل واسع وغرضه نصرة الحق وإقامة البراهين على وجود الله عز وعلا . والرد على أهل الزيغ والضلال .

٢ ـ تفسير البيضاوي :

مؤلف هذا التفسير هو العالم الجليل الشيخ عبد الله البيضاوي المتوفي سنة ٦٨٥ هـ ، وتفسيره يسمى (أنوار التنزيل) وهو كتاب جليل دقيق ، جامع بين الرواية والدراية وهو يقرر الأدلة على مذهب أهل السنّة ، وهو حجة ثبت ، وقد التزم أن يختم كل سورة بما روى في فضلها من الأحاديث ، غير أنه لم يتحر الصحيح ، وله حواش عديدة أشهرها حاشية الشهاب الخفاجي وحاشية سعدى أفندي .

٣ ـ تفسير الخازن:

مؤلف هذا التفسير الإمام عبد الله بن محمد المشهور بالخازن المتوفى سنة ٧٤١ هـ وتفسيره يسمى (لباب التأويل في معاني التنزيل) وهو تفسير مشهور يعنى بالمأثور، بيد أنه لا يذكر السند، وعبارته سهلة لا تعقيد فيها، ولا غموض وله ولوع بالتوسع في الروايات والقصص، وقد يذكر في تفسيره بعض الروايات الإسرائيلية لينبّه على ما فيها من باطل، فيسوق القصة الطويلة ثم يحكم عليها بالضعف او الكذب، ولكنه في بعض الأحيان يسكت عنها حتى يظنّ القارىء أنّ هذه الرواية صحيحة، وبالجملة فتفسيره حسن رائع لولا كثرة ما فيه من قصص وروايات لا يحسن ذكرها لكونها ضعيفة أو مكذوبة.

٤ ـ تفسير النسفي:

مؤلف هذا التفسير هو الشيخ العالم الزاهد عبد الله بن أحمد النسفي المتوفي سنة ٧٠١ وتفسيره يسمى (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) وهو تفسير جليل، متداول مشهور، سهل ودقيق، يعتبر بالنسبة لبقية التفاسير بالرأي أوجز تفسير وأوسطه، قال فيه صاحب كشف الظنون: «هو كتاب وسط في التأويلات جامع لوجوه الإعراب والقراءات، متضمن لدقائق علم البديع والإشارات، مرشح لأقاويل أهل السنة والجماعة، خالٍ من أباطيل أهل البدع والضلالة، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل..» اهـ.

٥ ـ تفسير النيسابوري:

مؤلف هذا التفسير هو الشيخ نظام الدين الحسن محمد النيسابوري المتوفي ٧٢٨ هـ وتفسيره يسمى (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) ويمتاز هذا التفسير بسهولة عبارته وبتحقيق ألفاظه، مع خلّوه من الحشو والتعقيد، وقد عنى بأمرين يلتزمها: الكلام على القراءات، والكلام على التفسير الإشاري، وهو مطبوع طبعة شهيرة على هامش تفسير ابن جرير، وهو مختصر لتفسير الفخر الرازي مع تهذيب كبير.

٦ - تفسير أبي السعود:

مؤلف هذا التفسير العالم اللغوي، الحجة الضليع، القاضي محمد بن محمد بن مصطفى الطحاوي، المشهور بأبي السعود، المتوفى سنة ٩٥٢ هـ وتفسيره هذا يعتبر من أحسن التفاسير وأجمعها، لأنه غاية في حسن الصوغ، وجمال التعبير، كشفَ فيه عن أسرار البلاغة القرآنية، والحِكَم الربانية، يستهويك حسن تعبيره، ويروقك سلامة تفكيره، ويروعك ما أخذ نفسه به من تجلية بلاغة القرآن، والعناية في بيان إعجازه، مع سلامة في الذوق، ومحافظة على عقائد أهل السنة، وبعد عن الحشو والتطويل، وتفسيره دقيق يحتاج لفهمه الخاصة من أهل العلم.

٧ - تفسير أبي حيان:

مؤلف هذا التفسير هو الشيخ محمد بن يوسف بن حيّان الأندلسي المتوفي سنة ٧٤٥ هـ وتفسيره يسمى (البحر المحيط) وهو في ثماني مجلدات ضخمة وقد جمع المؤلف فيه فنون العلوم من نحو وصرف وبلاغة وأحكام فقهية إلى غير ما هنالك ويعتبر هذا التفسير مرجعاً هاماً من مراجع التفسير، وعبارته سهلة ليس فيها تعقيد أو غموض، وسمّاه البحر المحيط لكثرة ما فيه من علوم متنوعة تتعلق بمادة التفسير.

٨ - تفسير الألوسي:

مؤلف هذا التفسير هو الإمام العالم الجهبذ شهاب الدين السيد محمود الألومي المتوفي سنة ١٢٧٠ هـ مفتي بغداد، حجة الأدباء، وقدوة العلماء، ومرجع أهل الفضل والعرفان، كان رحمه الله على جانب عظيم من الفهم والعلم وسعة الإطلاع، وكتابه المسمّى (روح المعاني) جامع لآراء السلف رواية ودراية، مشتمل على أقوال أهل العلم، جامع لخلاصة ما سبقه من التفاسير، وهو شديد النقد للروايات الإسرائيلية، يعتنى بالتفسير الإشاري، وبوجوه البلاغة والبيان، ويعتبر تفسيره من خير المراجع في علم التفسير بالرواية والدراية والإشارة.

أشهر تفاسير آيات الأحكام

الرقم	اسم الكتاب والمذهب	اسم المؤلف	تاريخ الوفاة	الشهرة
١	أحكام القرآن (حنفي)	أحمد بن علي الرازي الجصاص	٣٧٠ هـ	تفسر الجصاص
٢	أحكام القرآن (شافعي)	علي بن محمد الطبري لكيا الهراسي	٥٠٤ هـ	تفسير لكيا الهراسي
٣	الإكليل في استنباط التنزيل (شافعي)	جلال الدين السيوطي	٩١١ هـ	تفسير السيوطي
٤	أحكام القرآن (مالكي)	محمد بن عبدالله الأندلسي	٥٤٣ هـ	تفسير ابن العربي
٥	الجامع لأحكام القرآن (مالكي)	محمد بن أحمد بن فرح القرطبي	٦٧١ هـ	تفسير القرطبي
٦	كنز العرفان (شيعي)	مقداد بن عبدالله السيوري	التاسع الهجري	تفسير السيوري
٧	الثمرات اليانعة (زيدي)	يوسف بن أحمد الثلائي	٨٣٢ هـ	تفسير الزيدي

اشهر كتب التفسير الاشاري

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	الشهرة
١	تفسير القرآن الكريم	سهل بن عبدالله التستري	تفسير التستري
٢	حقائق التفسير	أبو عبد الرحمن السلمي	تفسير السلمي
٣	الكشف والبيان	أحمد بن ابراهيم النيسابوري	تفسير النيسابوري
٤	تفسير ابن عربي	محي الدين بن عربي	تفسير ابن عربي
٥	روح المعاني	شهاب الدين محمد الألوسي	تفسير الألوسي

(اشهر تفاسير المعتزلة والشيعة)

الرقم	اسم الكتاب والمذهب	اسم المؤلف	تاريخ الوفاة	الشهرة
١	تنزيه القرآن عن المطاعن (معتزلي)	عبد الجبار بن أحمد الهمذاني	٤١٥ هـ	تفسير الهمذاني
٢	أمالي الشريف المرتضى (معتزلي)	علي بن أحمد الحسين	٤٣٦ هـ	تفسير المرتضى
٣	الكشاف (معتزلي)	محمود بن عمر الزمخشري	٥٣٨ هـ	تفسير الزمخشري
٤	مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار (شيعي)	عبد اللطيف الكازراني	غير معروف	تفسير المشكاة
٥	تفسير العسكري (شيعي)	الحسن بن علي الهادي	٢٦٠ هـ	تفسير العسكري
٦	مجمع البيان (شيعي)	الفضل بن الحسن الطبرسي	٥٣٨ هـ	تفسير الطبرسي
٧	الصافي في تفسير القرآن (شنيعي)	محمد بن الشاه مرتضى الكاشي	١٠٩٠ هـ	تفسير الكاشي
٨	تفسير القرآن (شيعي)	عبدالله بن محمد العلوي	١٢٤٢ هـ	تفسير العلوي
٩	بيان السعادة (شيعي)	سلطان محمد بن حيدر الخراساني	١٣١٥ هـ	تفسير الخراساني

اشهر كتب التفسير في العصر الحديث

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	الشهرة
١	تفسير القرآن الكريم	محمد رشيد رضا	تفسير المنار
٢	تفسير المراغي	أحمد مصطفى المراغي	تفسير المراغي
٣	محاسن التأويل	جمال الدين القاسمي	تفسير القاسمي
٤	في ظلال القرآن	الشهيد سيد قطب	تفسير الظلال
٥	التفسير الواضح	محمد محمود الحجازي	التفسير الواضح
٦	تفسير الجواهر	طنطاوي جوهري	تفسير الجوهري
٧	تيسير التفسير	الشيخ عبد الجليل عيسى	تفسير عيسى
٨	المصحف المفسّر	محمد فريد وجدي	تفسير وجدي
٩	الهداية والعرفان	أبو زيد الدمنهوري	تفسير الدمنهوري
١٠	صفوة البيان	حسنين مخلوف	تفسير مخلوف
١١	فتح البيان	صدّيق حسن خان	تفسير حسن خان

وهناك تفاسير أخرى غير هذه التفاسير السابقة لم نذكرها خشية التطويل والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

فصل

(في التنبيه على أحاديث وضعت في فضل سور القرآن)

قال العلامة القرطبي في مقدمة تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) في باب التنبيه على الأحاديث الموضوعة في فضل سور القرآن ما يلي:

« لا التفات لما وضعه الواضعون، واختلقه المختلقون، من الأحاديث الكاذبة، والأخبار الباطلة، في فضل سور القرآن، وغير ذلك من فضائل الأعمال، قد ارتكبها جماعة كثيرة، اختلفت أغراضهم ومقاصدهم في ارتكابها.

١ - فمنهم قوم من الزنادقة مثل (المغيرة الكوفي) و(محمد الشامي) المصلوب وغيرهما وضعوا أحاديث، وحدّثوا بها ليقعوا بذلك (الشكّ) في قلوب الناس، منها ما رواه الشامي عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: « أنا خاتم النبيّين لا نبيّ بعدي إلا ما شاء الله » فزاد هذا الاستثناء لما كان يدعو إليه الإلحاد والزندقة.

٢ - ومنهم جماعة وضعوا الحديث (هوًى) يدعون الناس إليه، قال شيخ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب: « إنّ هذه الأحاديث دين، فانظروا عمّن تأخذون دينكم، فإنّا كنّا إذا هوينا أمراً صيّرناه حديثاً ».

٣ - ومنهم جماعة وضعوا الحديث (حسبةً) كما زعموا، يدعون الناس إلى فضائل الأعمال كما روى عن (أبي عصمة المرْوَزيّ) قيل له: من أين لك عن عكرمة

عن ابن عباس، في فضل سور القرآن سورة سورة؟

فقال: إني رأيت الناس قد اعرضوا عن القرآن، واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي ابن إسحاق، فوضعت هذا الحديث حسبة[1]. قال ابن الصلاح: وهكذا الحديث الطويل الذى يُروى عن (أبي بن كعب) عن النبي في فضل القرآن سورة سورة، وقد بحث باحث عن مخرجه حتى انتهى إلى من اعترف بأنه وجماعة وضعوه، وإن أثر الوضع عليه لبين، وقد أخطأ الواحدي المفسّر، ومن ذكره من المفسّرين في إيداعه في تفاسيرهم.

٤ - ومنهم قوم من السُؤال[2] يقفون في الأسواق والمساجد، فيضعون على رسول الله ﷺ أحاديث بأسانيد صحاح قد حفظوها، فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد.

قال جعفر بن الطيالسي:

« صلى أحمد بن حنبل، ويحيي بن معين، في مسجد الرّصافة، فقام بين أيديهما قاصٌ (محدّث) فقال: حدّثنا أحمد بن حنبل، ويحيي بن معين قالا أنبأنا عبد الرزاق، قال أنبأنا معمر، عن قتادة، عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: « من قال لا إله إلا الله، يُخلق من كلّ كلمة منها طائر، منقاره من ذهب، وريشه مرجان »، وأخذ في قصة نحواً من عشرين ورقة، فجعل أحمد ينظر إلى يحيي، ويحيي ينظر إلى أحمد، فقال: أنتَ حدّثته بهذا؟ فقال: والله ما سمعت به الآ هذه الساعة، فسكتا حتى فرغ من قصصه فقال له يحيي: من حدّثك بهذا الحديث فقال: أحمد بن حنبل، ويحيي بن معين، فقال: أنا ابن معين، وهذا أحمد بن حنبل، ما سمعنا بهذا قطّ في حديث رسول الله. فإن كان ولا بدّ من الكذب فعلى غيرنا فقال له: أنت يحيي بن معين؟ قال: نعم، قال: لم أزل أسمع أنّ يحيي بن معين أحمق، وما علمته إلاّ هذه الساعة، فقال له يحيي: وكيف علمت أني أحمق؟ قال: كأنه ليس في الدنيا يحيي بن معين، وأحمد بن حنبل غيركما.

---

(١) حسبة: أي لوجه الله ونر غيباً في الدين.

(٢) السُؤال: جمع سائل الذي يسأل الناس المعونة.

كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هذا، قال: فوضع أحمد كمّه على وجهه وقال: دعه يقوم، فقام كالمستهزيء بها.

قال القرطبي: فهؤلاء الطوائف كذبة على رسول الله ﷺ ومن يجري مجراهم.. ثم قال: فلو اقتصر الناس على ما ثبت في الصحاح والمسانيد وغيرهما من المصنفات التي تداولها العلماء، ورواها الأئمة الفقهاء، لكان لهم في ذلك غُنْية، وخرجوا عن تحذيره ﷺ حيث قال: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

فحذار مما وضعه أعداء الدين، وزنادقة المسلمين، في باب الترغيب والترهيب وغير ذلك، وأعظمهم ضرراً أقوام من المنسوبين إلى الزهد، وضعوا الحديث حسبة فيما زعموا. فتقبّل الناس موضوعاتهم، ثقة منهم بهم، وركوناً إليهم، فضلوا وأضلوا [1].»

هل في القرآن ألفاظ غير عربية؟

من المقطوع به أن القرآن نزل بلسان العرب، وأنه كتاب عربي. نزل على أمة عربية بلسانٍ عربي مبين، ليكون منهاجاً لحياتهم، ودستوراً لمجتمعهم وليعتبروا به ويذكروا بما فيه ﴿ليدبّروا آياته، وليتذكر أولو الألباب﴾[2] وقد تضافرت النصوص القرآنية الكثيرة. على أن القرآن «عربي» في نظمه وفي لفظه. وفي أسلوبه وفي تركيبه وأنه ليس فيه ما يخالف طريقة العرب في المفردات والجمل والأسلوب والخطاب. من هذه النصوص الكريمة ما يلي:

١ - قوله تعالى ﴿لتكونَ منَ المنذرينَ ★ بلسانٍ عربيٍ مبينٍ﴾[3]

٢ - وقوله تعالى: ﴿كتابٌ فصّلتْ آياته قرآناً عربياً لقومٍ يعلمون﴾[4]

---

(١) أنظر: تفسير القرطبي، ج ١ ص ٧٨.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٩.

(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٤، ١٩٥.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٣.

٣ - وقوله جل ثناؤه ﴿إنّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ [١]
٤ - وقوله جل علا ﴿قرآناً عربياً غيرَ ذي عوجٍ لعلهم يتقون﴾ [٢]

وقد أجمع العلماء على أن القرآن عربي، ولكن اختلفوا هل فيه ألفاظ مفردة من غير كلام العرب؟ على مذهبين:

آ - **المذهب الأول**: مذهب الجمهور وعلى رأسهم القاضي (أبو بكر ابن الطيب) وشيخ المفسرين (ابن جرير الطبري) و (الباقلاني) وغيرهم من العلماء الأعلام قالوا: إن القرآن عربي كلّه، وليس فيه ألفاظ أو مفردات من غير كلام العرب، وما وجد فيه من الألفاظ التي تنسب إلى سائر اللغات، فإنما اتفق فيها أن تواردت اللغات عليها، فتكلمت بها العرب، والفرس، والحبشة وغيرهم.

ب - **المذهب الثاني**: مذهب طائفة من العلماء قالوا: إنّ في القرآن بعض ألفاظ ليس عربية، وأنّ تلك الألفاظ لقلتها، لا تخرج القرآن عن كونه عربياً مبيناً، فمثلاً لفظ (المشكاة) بمعنى الكُوة، ولفظ (الكفل) بمعنى الضعف، ولفظ (قسورة) بمعنى الأسد كل هذه الألفاظ هي بلسان الحبشة وهي ألفاظ غير عربية.

وكذلك لفظ (القسطاس) بمعنى الميزان بلسان الروم.

ولفظ (السجيل) بمعنى الحجارة والطين بلسان الفرس.

ولفظ (الغساق) بمعنى البارد المنتن بلسان الترك.

ولفظ (اليم) بمعنى البحر، و (الطور) بمعنى الجبل بلسان السريانية.

قال ابن عطية:

« فحقيقة العبارة أنّ هذه الألفاظ في الأصل (أعجمية) لكنّ العرب استعملتها وعرّبتها فهي عربية بهذا الوجه، وقد كان للعرب مخالطة لجيرانهم من سائر الألسنة فعلِقت العرب بألفاظ أعجمية، استعملتها في أشعارها ومحاوراتها، حتى جرت مجرى

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٨.

العربي الصحيح، وعلى هذا الحدّ نزل بها القرآن[1]...».

أدلة الجمهور:

وقد استدل الجمهور ببعض الأدلة التي تثبت أن القرآن عربي وليس فيه ألفاظ غير عربية وفيه أسماء أعلام لمن لسانه غير لسان العرب، مثل (اسرائيل) و(جبرئيل) و(عمران) و(نوح) و(لوط). وقد استدل الجمهور بما يلي:

أولاً: الآيات القرآنية السابقة التي أثبتت أن هذا القرآن عربيّ كله في لفظه، وأسلوبه، ونظمه، وتركيبه، فقد أخبر الله عز وجل عن القرآن بأنه عربي فقال تعالى ﴿قرآنا عربياً﴾ وتكرّر هذا اللفظ في آيات عديدة ومعلوم أنّ لفظ القرآن عام يشمل جميع السور والآيات، ويشمل كلّ الألفاظ والمفردات.

ثانياً: إن القرآن نزل بلغة العرب ليفهموه ويعقلوه ويتدبروا معانيه، ويستحيل ان يخاطب الله تعالى قوماً بما لا يعلمون، كيف والآيات صريحة في انزاله بلغة العرب للاعتبار والعمل ﴿إنّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[2] و ﴿قرآناً عربياً لقوم يعلمون﴾[3] وهذا ينفي أن يكون فيه ألفاظ غير عربية.

ثالثاً: إنّ الله تعالى قد ردّ على المشركين حين زعموا أن محمداً ﷺ تلقى هذا القرآن عن بعض أهل الكتاب (جبر الرومي) وأقام الحجة عليهم باختلاف اللسانين قال تعالى ﴿ولقد نعلمُ أنهم يقولونَ إنّما يعلمه بشرٌ، لسانُ الذي يلحدون إليه أعجميّ، وهذا لسانٌ عربيّ مبين﴾[4] فالقرآن عربي وذلك أعجمي وشتّان بينهما.

رابعاً: لو كان في هذا القرآن شيء ليس من لغة العرب، أو لا يفهمه العرب، أو ألفاظ (أعجمية) غير عربية، لأعلن المشركون اعتراضهم على القرآن، واحتجوا

---

(١) انظر: تفسير القرطبي، ج ١ ص ٦٨.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

بذلك على عدم صدق الرسول كما قال تعالى ﴿**ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا: لولا فصّلت آياتُه، أعربيّ وعجميّ..**﴾ [١] الآية.

خامساً: إن ما وجد في القرآن من ألفاظ تنسب إلى سائر اللغات، فإنما هو من باب (توارد اللغات واتفاقها بمعنى أن هذه اللفظة تكلم بها العرب، وتكلم بها الفرس، والعجم، وتكلم بها غيرهم، فهي مما اتفقت عليه اللغات لا يعني أن هذه الألفاظ غير عربية، فإذا تكلم بها العرب فهي عربية، وإذا تكلم بها غيرهم أو استعملها الأعاجم فلا يخرجها عن كونها عربية.

الترجيح:

والصحيح ما ذهب إليه (الطبري) وجمهور العلماء من أنّ القرآن كله عربي، وهو ما تشهد له النصوص الكثيرة، والحجج الدامغة القوية التي احتج بها العلماء.

وقد انتصر العلامة القرطبي لرأي الجمهور، وردّ الرأي الثاني، وقال ـ بعد أن ذكر المذهبين ـ إن الأول أصح، فإن العرب لا يخلو أن تكون تخاطب بها أوْ لا، فإن كان الأول فهي من كلامهم، ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم.

وإن لم تكن العرب تخاطبت بها، ولا عرفتها استحال أن يخاطبهم الله بما لا يعرفون، وحينئذ لا يكون القرآن عربياً، ولا يكون الرسول مخاطباً لقومه بلسانهم». اهـ [٢].

بحث ترجمة القرآن

معنى الترجمة:

ترجمة القرآن معناها نقل القرآن إلى لغات أجنبية أخرى غير اللغة العربية وطبع

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٤. ومعنى الآية: لو أنزلنا القرآن بغير لغتهم، وجعلناه باللغة الأعجمية لقالوا: هلا بينت آياته ونزلت كلماته بلغتنا العربية لنتفهمه ونتدبره؟ (أعربي وعجمي)؟ أي رسول عربي وقرآن أعجمي؟ كيف يكون ذلك؟ وكيف ينزل القرآن الأعجمي على الرسول العربي؟

(٢) انظر: تفسير القرطبي، ج ١ ص ٦٩.

هذه الترجمة في نسخ ليطلع عليها من لا يعرف اللغة العربية (لغة القرآن) ويفهم مراد الله عز وجلّ من كتابه العزيز بواسطة هذه الترجمة.

أنواع الترجمة:

وتنقسم هذه الترجمة إلى قسمين:

الأول: الترجمة الحرفية.

الثاني: الترجمة التفسيرية.

والمراد بالقسم الأول (الحرفية) أن يترجم القرآن بألفاظه ومفرداته وجمله وتركيبه ترجمة طبق الأصل إلى اللغة الانجليزية، أو الألمانية، أو الفرنسية.

مثلاً فيقال: (القرآن باللغة الانجليزية) أو (القرآن باللغة الألمانية) وهكذا فهي تشبه وضع المرادف مكان مرادفه، وبعض الناس يسمي هذه الترجمة (ترجمة لفظية).

وأما القسم الثاني (التفسيرية) فهو يترجم معنى الآيات الكريمة، بحيث لا يتقيد الإنسان باللفظ، وإنما يكون همّه المعنى، فيترجم القرآن بألفاظ لا يتقيد بها بالمفردات والتراكيب، وإنما يعمد إلى الأصل فيفهمه. ثم يصبّه في قالب يؤديه من اللغة الأخرى ويكون هذا المعنى موافقاً لمراد صاحب الأصل من غير أن يكلف نفسه عناء البحث والوقوف عند كل مفرد من المفردات، أو لفظة من الألفاظ. وهذا النوع يسمى (الترجمة الحرفية) أو الترجمة المعنوية.

شروط الترجمة:

ويشترط للترجمة سواء كانت حرفية، أو تفسيرية، شروط عدة نوجزها فيما يلي:

١ - أن يعرف (المترجم) بكسر الجيم اللغتين معاً، لغة الأصل، ولغة الترجمة.

٢ - أن يكون ملماً بأساليب وخصائص اللغات التي يود ترجمتها.

٣ - أن تكون (صيغة الترجمة) صحيحة بحيث يمكن أن تحل محل الأصل.

٤ - أن تفي الترجمة بجميع معاني الأصل ومقاصده وفاء كاملاً

كما يشترط للترجمة (الحرفية) زيادة على هذه الشروط شرطان آخران:

الأول: وجود مفردات كاملة في لغة الترجمة، مساوية للمفردات التي هي لغة الأصل.

الثاني: تشابه اللغتين في الضمائر المستترة، والروابط التي تربط الجمل لتأليف التركيب.

هل تجوز الترجمة الحرفية للقرآن؟

وعلى ضوء ما سبق من تقسيم الترجمة إلى حرفية، وتفسيرية، ومعرفة معنى كلّ منهما، والشروط التي ينبغي أن تتوفر في الترجمة، يتضح لنا أنّ (الترجمة الحرفية) غير جائزة، وغير صحيحة وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: أنه لا يجوز كتابة القرآن بغير أحرف اللغة العربية لئلا يقع التحريف والتبديل.

ثانياً: إنّ اللغات (غير العربية) ليس فيها من الألفاظ والمفردات والضمائر ما يقوم مقام الألفاظ العربية.

ثالثاً: إن الاقتصار على الألفاظ قد يفسد المعنى، ويسبب الخلل في التعبير والنظم.

ولنضرب بعض الأمثلة على ذلك ليتوضح الأمر فنقول:

لو أردنا ترجمة الآية الكريمة وهي قوله تعالى **﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك، ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾**[1] فإذا أردنا ترجمتها ترجمة حرفية، فإنّ الترجمة تكون كالآتي: (لا تجعل يدك مربوطة إلى عنقك، ولا تمدّها كل المد) إلى آخره وهو معنى فاسد لم يقصده القرآن الكريم بل قد يستنكر المترجم له هذا الوضع، فيقول: لماذا ينهانا الله عن ربط اليد بالعنق، أو مدها غاية المدّ؟

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.

فالتعبير الذي جاء في القرآن إنما هو من (باب التمثيل) لبيان عاقبة الإسراف أو الشح، وهو معنى من أروع المعاني لا يدركه إلاّ من فهم أساليب العرب في التخاطب بالأسلوب البليغ. وكذلك قوله تعالى ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾[١] فإن هذا اللفظ لا يمكن ترجمته ترجمة حرفية لوجود نوع خاص من التعبير البليغ يسمى ب (الاستعارة المكنية) وهذا لا يوجد في غير اللغة العربية، ومثله قوله تعالى ﴿قدمَ صدقٍ عندَ ربهم﴾[٢] وقوله ﴿تجري بأعيننا﴾[٣] ومثله كذلك قوله تعالى ﴿هنَّ لباسٌ لكم وأنتُم لباس لهن﴾[٤] فإذا ترجمناها ترجمة حرفية يفسد المعنى تماماً، ويصبح ضرباً من الهذيان في الكلام وأمثال هذا كثير وفساده واضح.

ترجمة القرآن بالمعنى:

أما ترجمة القرآن بالمعنى فهي جائزة بالشروط المتقدمة، وهي لا تسمى (قرآنا) وإنما تسمّى تفسيراً للقرآن. ذلك لأن الله تعبدنا بألفاظ القرآن، ولم يتعبدنا بغيره من الكلام. فكلام الرسول ﷺ تجوز روايته بالمعنى بأن نقول قال رسول الله: ما معناه، ولكن القرآن لا يجوز روايته بالمعنى، فلا يصح ان نقول: قال الله تعالى ما معناه، بل لا بدّ من تلاوة النص بحروفه وألفاظه لأنه موحى به من عند الله، ولأنه معجز بلفظه ومعناه.

فالترجمة في الحقيقة ههنا ليست ترجمة للقرآن، وإنما هي ترجمة لمعاني القرآن، او ترجمة لتفسير القرآن، وقد أنزل الله كتابه الى الخلق اجمعين، ليكون مصدر هداية، وإرشاد وإسعاد لهم، فلا مانع لنا ان ننقل معاني القرآن إلى الامم الأخرى ممن لا يعرفون اللغة العربية، ليستنيروا بهذا القرآن ويقبسوا من هديه وإرشاده. وهذا بلا شك غرض من أغراض القرآن ﴿إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقومُ﴾[٥].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٤.

(٢) سورة يونس، الآية: ٢.

(٣) سورة القمر، الآية: ١٤.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٥) سورة الاسراء، الاية: ٩.

فترجمة القرآن بهذا المعنى يجيزها العلماء بل هي واجبة على المسلمين ليبلغوا الناس دعوة الله، ويحملوا اليهم هداية القرآن، وبغير هذه الترجمة لا يمكن أن يدرك الناس عظمة هذه الشريعة، وروعة هذا الدين، وجمال هذا القرآن والله يقول الحقّ وهو يهدي السبيل.

الفصل التاسع

نزول القرآن على سبعة أحرف والقراءات المشهورة

تمهيد

لما خلق الله الخلق، جعل لكل منهم شرعة ومنهاجاً، وكان للعرب لهجات متعددة، اكتسبوها من فطرتهم، واقتبسوا بعضها من جيرانهم، وكانت لغة (قريش) لها الصدارة والذيوع لأسباب عدة منها: اشتغالهم بالتجارة ووجودهم عند بيت الله الحرام وقيامهم على السدانة والرفادة، وكان القرشيون يقتبسون بعض اللهجات والكلمات التي تعجبهم من غيرهم، وكان من الطبيعي، أن ينزل الله احكم الحاكمين القرآن، باللغة التي يفهمها العرب أجمع لتيسير فهمها وللاعجاز والتحدي لأرباب الفصاحة بالاتيان بسورة او بآية وتيسير قراءته وفهمه وحفظه لهم، لأنه نزل بلغتهم كما قال جلّ ثناؤه:

﴿إنّا أنزلناهُ قُرآناً عربِيّاً لعلّكم تعقِلُونَ﴾ (١)

أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف:

أولاً: روى البخاري ومسلم في صحيحها عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال:

(١) سورة يوسف، الآية: ٢

قال رسول الله ﷺ : « اقرأني جبريلُ على حرف فراجعته فلم أزل استزيده ويزيدني حتى انتهى الى سبعة أحرف »[1] زاد مسلم: (قال ابن شهاب: بلغني ان تلك السبعة في الأمر الذي يكون واحداً لا يختلف في حلال ولا حرام).

ثانياً: روى البخاري ومسلم ـ واللفظ للبخاري ـ ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال (سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساوره في الصلاة فانتظرته حتى سلم ثم لببته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة؟ قال: اقرأنيها رسول الله ﷺ قلت له: كذبت، فوالله إن رسول الله ﷺ أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها، فانطلقت اقوده الى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله اني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها وأنت أقرأتني سورة الفرقان فقال رسول الله ﷺ، أرسله يا عمر، اقرأ يا هشام، فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرؤها قال رسول الله ﷺ : هكذا أنزلت، ثم قال: « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه ».

وفي بعض الروايات ان رسول الله استمع إلى قراءة عمر أيضاً وقال: هكذا انزلت.

ثالثاً: روى مسلم بسنده عن أبي بن كعب قال: (كنت في المسجد، فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر، فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ ، فقلت: إن هذا قرأ قراءة انكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه فأمرهما رسول الله ﷺ فقرآ، فحسن النبي ﷺ شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني ضرب في صدري، ففضت عرقاً، وكأنما انظر الى الله

(١) صحيح البخاري، ج ٣، ص ٢٢٧ وصحيح مسلم، ج ١، ص ٥٦١ بسندهما عن عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة.

عز وجل فرقاً فقال لي: يا أبي، أرسل إلي ان اقرأ القرآن على حرف فرددت إليه: أن هوّن على أمتي، فرد الي الثانية اقرأه على حرفين، فرددت إليه: أن هون على أمتي، فردّ إلي الثالثة: اقرأه على سبعة أحرف، ولك بكل ردة رددتها مسألة تسألنيها فقلت «اللهم اغفر لامتي وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي الخلق، كلهم حتى ابراهيم ﷺ» أهـ.

قال القرطبي «فكان هذا الخاطر (يشير إلى ما سقط في نفس أبي) من قبيل ما قال فيه النبي ﷺ حين سألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: أو قد وجدتموه؟ قالوا: نعم. طال ذلك صريح الإيمان» رواه مسلم.

رابعاً: روى الحافظ أبو يعلي في مسنده الكبير أن عثمان رضي الله عنه قال يوماً وهو على المنبر: «أذكر الله رجلاً سمع النبي ﷺ قال: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف» لما قام. فقاموا حتى لم يحصوا، فشهدوا أن الرسول ﷺ قال (أنزل القرآن على سبعة حروف كلها شاف كاف). فقال عثمان رضي الله عنه: (وأنا أشهد معهم).

خامساً: روى مسلم بسنده عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ كان عند أضاة[1] بني غفار قال: (فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف. فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك. ثم أتاه الثانية فقال: ان الله يأمرك ان تقرا أمتك القرآن على حرفين. فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك. ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف. فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك. ثم جاءه الرابعة فقال إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف. فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا) أ. هـ.

سادساً: روى الترمذي عن أبي بن كعب أيضاً قال: لقي رسول الله ﷺ جبريل

---

(١) أضاءة بني غفار: مستنقع الماء كالغدير. وهو موضع بالمدينة نسب إلى بني غفار لأنهم نزلوا عنده.

عند أحجار المروة. قال: فقال رسول الله ﷺ لجبريل: إني بعثت إلى أمة أميين، فيهم الشيخ الفاني، والعجوز الكبير، والغلام، قال: «فمرهم فليقرؤوا القرآن على سبعة أحرف» قال الترمذي: حسن صحيح.

وفي لفظ: (فمن قرأ بحرف منها فهو كما قرأ).

وفي لفظ حذيفة: «فقلت يا جبريل إني أرسلت إلى أمة أمية فيهم الرجل والمرأة والغلام والجارية والشيخ الفاني الذي لم يقرأ كتاباً قط قال: «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف».

سابعاً: أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص عن عمرو أن رجلاً قرأ آية من القرآن. فقال له عمرو: إنما هي كذا وكذا، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: (إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فأي ذلك قرأتم أصبتم فلا تماروا).

ثامناً: روى الطبري والطبراني عن زيد بن أرقم قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أقرأني ابن مسعود سورة أقرأنيها زيد بن ثابت، وأقرأنيها أبي بن كعب فاختلفت قراءتهم، فبقراءة أيهم آخذ؟ فسكت رسول الله ﷺ وعليّ إلى جنبه فقال علي: ليقرأ كل انسان منكم كما علم، فإنه حسن جميل.

تاسعاً: أخرج ابن جرير الطبري عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ولا حرج، ولكن لا تختموا ذكر رحمة بعذاب ولا ذكر عذاب برحمة» اهـ.

الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف:

١ ـ التيسير على الأمة الإسلامية وخاصة الأمة العربية التي نزل عليها القرآن وكان لها لهجات متعددة على الرغم أنها تجمعها كلمة العروبة، نأخذ هذا من قوله ﷺ: «أنْ هوّنْ على أمتي» «وإنّ أمتي لا تطيق ذلك» وغيرها.

قال المحقق ابن الجزري:

« وأما سبب وروده على سبعة أحرف فللتخفيف على هذه الأمة، وإرادة اليسر بها، والتهوين عليها شرفاً لها، وتوسعة ورحمة وخصوصية لفضلها وإجابة لقصد نبيها أفضل الخلق وحبيب الحق، حيث أتاه جبريل فقال « إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف، فقال ﷺ: أسأل الله معافاته ومعونته، فإن أمتي لا تطيق ذلك، ولم يزل يُردد المسألة حتى بلغ سبعة أحرف » ثم قال: وكما ثبت أن القرآن نزل من سبعة أبواب على سبعة أحرف، وأنّ الكتاب قبله كان ينزل من باب واحد على حرف واحد، وذلك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يبعثون إلى قومهم الخاصين والنبي ﷺ بعث إلى جميع الخلق، أحمرهم وأسودهم، عربيهم وعجميهم، وكان العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، لغاتُهم مختلفة، وألسنتهم شتى، ويعسر على أحدهم الإنتقال من لغة إلى غيرها، أو من حرف إلى آخر، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولو بالتعليم والعلاج لا سيما الشيخ والمرأة، ومن لم يقرأ كتاباً كما أشار إليه ﷺ، فلو كلفوا العدول عن لغتهم، والانتقال عن ألسنتهم، لكان من التكليف بما لا يستطاع، وما عسى أن يتكلف المتكلف وتأبى الطباع » اهـ.

٢ ـ جمع الأمة الإسلامية على لسان واحد يوحد بينها هو لسان قريش الذي انتظم كثيراً من مختارات ألسنة القبائل العربية التي كانت تختلف إلى مكة في موسم الحج وغيره. ولذلك نزل القرآن على سبعة أحرف نصطفي ما شاء من لغات القبائل العربية التي تمثلت في لسان القرشيين وهذه حكمة إلهية سامية فإن وحدة اللسان العام من أهم العوامل في وحدة الأمة خصوصاً أول عهدها بالتوثب والنهوض.

معنى نزول القرآن على سبعة أحرف:

الأحرف: جمع حرف والحرف له معان كثيرة قال صاحب القاموس: (الحرف من كل شيء طرَفه، وشفيره وحده، ومن الجبل اعلاه المحدد، وواحد حروف التهجي « ومن الناس من يعبد الله على حرف » أي وجه واحد، وهو ان يعبده على السراء لا على الضراء، او على شك، او على غير طمأنينة من أمره، أي لا

يدخل في الدين متمكناً. «ونـزل القرآن على سبعة أحرف» أي سبع لغات من لغات العرب. وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه إن جاء على سبعة أو عشرة أو أكثر. ولكن معناه أن هذه اللغات السبع متفرّقة في القرآن» اهـ. بتصرف.

مما تقدم نرى أن الحرف من قبيل المشترك اللفظي، والمشترك اللفظي يراد به أحد معانيه التي تعينها القرائن وتناسب المقام.

فالمراد من لفظ الحرف أنه الوجه بدليل ما يأتي:

قوله ﷺ «أنزل القرآن على سبعة أحرف».

كلمة (على) تشير إلى أن هذا الشرط للتوسعة والتيسير. بمعنى؛ أنزل القرآن موسعاً فيه على القارىء أن يقرأه على سبعة أوجه، يقرأ بأي حرف أراد منها على البدل من صاحبه كأنه قال أنزل على هذا الشرط وعلى هذه التوسعة.

اختلاف العلماء في تفسير الأحرف الواردة في الحديث:

هنا يحتدم الجدال والنزاع، ويكثر القيل والقال. وسنذكر بعضاً من الآراء ونرجح ما نراه أقرب للصواب.

١ ـ ذهب بعض العلماء إلى أن المراد بها سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد. على معنى أنه حيث تختلف لغات العرب في التعبير في معنى من المعاني يأتي القرآن بألفاظ على قدر هذه اللغات وإذا لم يكن اختلاف فإنه يأتي بلفظ واحد وقيل: إن السبعة هي لغة (قريش) و (هذيل) و (ثقيف) و (هوازن) و (كنانة) و (تميم) و (اليمن).

٢ ـ وقيل إن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات العرب نزل عليها القرآن، على معنى أنه في جملته لا يخرج في كلماته عن سبع لغات هي أفصح لغاتهم، فأكثر بلغة قريش، ومنه ما هو بلغة هذيل، أو ثقيف، أو هوازن، أو كنانة، أو تميم، أو اليمن.

قال بعضهم: هذا أصح الأقوال وأولاها بالصواب، وهو الذي صححه البيهقي، واختاره الأبهري واقتصر عليه صاحب القاموس.

٣ - إن المراد بالأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، سبعة أصناف في القرآن.

ولكن أصحاب هذه الأقوال يختلفون في تعيين هذه الأصناف وفي أسلوب التعبير عنها اختلافاً كبيراً، فمنهم من يقول: (إنها أمر، ونهي، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال).

ومنهم من يقول إنها (وعد، ووعيد، وحلال، وحرام، ومواعظ، وأمثال، واحتجاج).

ومنهم من يقول إنها: (محكم، ومتشابه، وناسخ، ومنسوخ، وخصوص، وعموم، وقصص)[1].

٤ - أن المراد بالأحرف السبعة أوجه من الألفاظ المختلفة في كلمة واحدة ومعنى واحد، نحو: هلُمّ، وأقبل، وتعال، وعجل، واسرع، وقصدي، ونحوي. فهذه الألفاظ السبعة معناها واحد هو طلب الإقبال.

وهذا القول منسوب لجمهور أهل الفقه والحديث منهم ابن جرير الطبري والطحاوي وغيرهما.

٥ - ان المراد بالأحرف السبعة الاختلاف في أمور سبعة:

أ - اختلاف الأسماء إفراداً وتذكيراً وفروعها.

مثاله قوله تعالى ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾[2] فكلمة (أمانتهم) قريء بالجمع والإفراد.

ب - الاختلاف في تصريف الأفعال من مضارع وماض وأمر.

---

(١) أنظر: مناهل العرفان، ص ١٧٦.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٨.

مثاله قوله تعالى ﴿ربّنا باعد بين أسفارنا﴾ [1] قرىء بنصب لفظ (ربنا) على أنه منادى وبلفظ (باعد) فعل أمر.

وقرىء «ربُّنا بَعَّدَ» برفع «ربُّ» على أنه مبتدأ وبلفظ «بعد» فعلاً ماضياً مضعف العين جملته خبر.

جـ ـ الاختلاف بالإبدال، سواء كان ابدال حرف بحرف كقوله تعالى ﴿وانظرْ إلى العظام كيفَ نَنشزها﴾ [2] قرىء بالزاي وبالراء مع فتح النون.. وقوله سبحانه ﴿وطلح منضود﴾[3] قرىء (وطلع) فلا فرق في هذا بين الاسم والفعل أو ابدال لفظ بلفظ كقوله سبحانه ﴿كالعهن المنفوش﴾ [4] قرأ ابن مسعود (كالصوف المنفوش).

د ـ اختلاف بالتقديم والتأخير إما في حرف كقوله تعالى ﴿أفلم ييأس﴾ [5] قرىء (أفلم يأيس) وأما في الكلمة نحو (فيقتلون ويقتلون) قرىء بالبناء للفاعل في الأول وللمفعول في الثاني وقرىء بالعكس وكقوله سبحانه ﴿وجاءت سكرت الموت بالحق﴾ [6] قرىء ﴿وجاءت سكرة الحق بالموت﴾.

هـ ـ اختلاف وجوه الإعراب كقوله سبحانه ﴿ما هذا بشراً﴾[7] قرأ ابن مسعود بالرفع وكقوله سبحانه ﴿ذو العرش المجيدُ﴾[8] برفع المجيد على أنه نعت كلمة ذو. وجرها على أنها صفة العرش.

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.
(٣) سورة الواقعة، الآية: ٢٩.
(٤) سورة القارعة، الآية: ٥.
(٥) سورة الرعد، جزء من الآية: ٣١.
(٦) سورة ق، الآية: ١٩.
(٧) سورة يوسف، جزء من الآية: ٣١.
(٨) سورة البروج، الآية: ١٥.

و ـ الاختلاف بالزيادة والنقص كقوله تعالى ﴿**وما خلق الذكر والأنثى**﴾[1] قرىء (والذكر والأنثى) بحذف (ما خلق).

ز ـ اختلاف اللهجات بالتفخيم والترقيق والإمالة والإظهار والإدغام وهو كثير، ومنه الإمالة وعدمها في مثل قوله تعالى ﴿**هل أتاك حديث موسى**﴾[2].

وهذا الرأي الأخير قد ذهب إليه الرازي وقاربه كل القرب مذهب ابن قتيبة وابن الجزري وابن الطيب وقد أخذ به الشيخ الزرقاني في كتابه مناهل العرفان) وأيّده ببعض الأدلة.

الترجيح:

وأقرب الوجوه إلى الصواب هو المذهب الأخير الذي اختاره الرازي، واعتمده الزرقاني في كتابه «مناهل العرفان» وأيده بأدلة منها:

١ ـ إن هذا المذهب هو الذي تؤيده الأحاديث المتقدمة.

٢ ـ أنه يعتمد على الاستقراء التام لاختلاف القراءات وما ترجع إليه من الوجوه السبعة.

٣ ـ ان هذا الرأي لا يلزمه محذور.

والأراء في (الأحرف السبعة) كاملة تجدها في كتاب «مناهل العرفان» للزرقاني وفيها توهين المذاهب الأخرى والرد عليها في ص ١٦٥ الى ١٧٧.

ونحن ننقل خلاصة هذا المذهب من كلام أبي الفضل الرازي في اللوائح حيث يقول: الكلام لا يخرج عن سبعة أحرف في الأختلاف.

الأول: اختلاف الأسماء من إفرادٍ، وتثنيةٍ، وجمعٍ، وتذكيرٍ، وتأنيث.

---

(١) سورة الليل، الآية: ٣.

(٢) سورة النازعات، الآية: ١٥.

الثاني: اختلاف تصريف الأفعال، من ماضٍ، ومضارع، وأمر.

الثالث: اختلاف وجوه الإعراب.

الرابع: الاختلاف بالنقص والزيادة.

الخامس: الاختلاف بالتقديم والتأخير.

السادس: الاختلاف بالإبدال.

السابع: اختلاف اللغات (يعني اللهجات) كالفتح والإمالة، والترقيق والتفخيم، والإظهار والإدغام ونحو ذلك. أهـ.

هل الأحرف السبعة موجودة في المصاحف الآن:

١ - ذهب جماعة من الفقهاء والقراء والمتكلمين إلى أن جميع هذه الأحرف موجودة بالمصاحف العثمانية.

حجتهم:

ا - أنه لا يجوز للأمة أن تهمل نقل شيء منها.

ب - أن الصحابة أجمعوا على أن الصحف التي نقلها عثمان رضي الله عنه من الصحف التي كتبها أبو بكر رضي الله عنه.

جـ - معنى ما تقدم أن الصحف التي عند أبي بكر قد جمعت الأحرف السبعة، ونقلت منها المصاحف العثمانية بالأحرف السبعة كذلك.

د - قول النبي ﷺ (إن أمتي لا تطيق ذلك) لا يختص بعهد الصحابة دون غيرهم. وبقاء تيسير القرآن مع بقاء إعجازه.

٢ - ذهب جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين إلى أن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط، جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل.

٣ - ذهب ابن جرير الطبري ومن معه إلى أن المصاحف العثمانية لم تشتمل إلا على حرف واحد من الحروف السبعة.

وقالوا: ان الأحرف السبعة كانت أيام الرسول عليه الصلاة والسلام وأبي بكر وعمر فلما كان عهد عثمان رأت الأمة بقيادته ان تقتصر على حرف واحد جمعاً لكلمة المسلمين. ونسخ عثمان بهذا الحرف الذي استبقته الأمة وحده جميع المصاحف العثمانية.

قال الزرقاني في «مناهل العرفان» ص ٦٦٢ ما نصه (ونحن إذا رجعنا بهذه الأوجه السبعة إلى المصاحف العثمانية وما هو مخطوط بها في الواقع ونفس الأمر، نخرج بهذه الحقيقة التي لا تقبل النقض، ونصل إلى فصل الخطاب في هذا الباب، وهو ان المصاحف العثمانية قد اشتملت على الأحرف السبعة كلها، ولكن على معنى أن كل واحد من هذه المصاحف اشتمل على ما يوافق رسمه من هذه الأحرف كلاً أو بعضاً، بحيث لم تخل المصاحف في مجموعها عن حرف منها رأساً).

وقد بيّن ووضّح الشيخ الزرقاني وجود الأوجه السبعة على مذهبه المختار وإن الأوجه السبعة موجودة الآن في المصاحف العثمانية وسأكتفي بذكر مثال من أمثلته غير أن بعض الوجوه السبعة ذكر أنه منسوخة بالعرض الأخيرة.

مثاله قوله تعالى ﴿والذين هُم لأمانَاتِهِم وَعَهْدِهم رَاعُونَ﴾[1] المقروءة بجمع الأمانة وإفرادها فقد اشتمل عليها المصحف إذ كان الرسم العثماني فيه هكذا:

«لأمنتهم» برسم المفرد في الخروف ولكن عليها ألف صغيرة لتشير إلى قراءة الجمع وغير منقوطة ولا مشكولة[2].

مناقشة مذهب الطبري:

قال الطبري أن الأحرف الستة نسخت باجماع الأمة في عهد عثمان رضي الله عنه

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٨.

(٢) أنظر، مناهل العرفان، ص ١٦٢.

وبقي حرف واحد حفاظاً لوحدة الأمة الإسلامية من التفرق حين كفّر بعضهم بعضاً بسبب اختلاف القراءات وخيفت الفتنة، فلم تجد الأمة حلاً لهذه المشكلة إلا جمع الأمة على قراءة حرف واحد.

الرد عليه:

١ ـ الصحابةُ رضوان الله عليهم اختلفوا في القراءة في عهد رسول الله وكادت أن تقع فتنة كما قلتم فكيف حلّ الرسول عليه السلام هذه المشكلة؟.

إنما كان حله الوحيد إقرار كل من المختلفين على القراءة التي قرأ بها وأفهمهم أن تعدد وجوه القراءة هو رحمة من الله بهم وتيسير عليهم: كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة.

٢ ـ وقال في الحديث (إن أمتي لا تطيق ذلك) وأمته باقية إلى يوم القيامة. كما نشاهد نحن الآن أنّ بعض الشعوب الإسلامية لا يتيسر لها النطق ببعض الحروف ولا تحسن اتقان بعض اللهجات دون بعض.

٣ ـ بعد ما عرفنا ما تقدم نقول كيف يسوغ لصحابة رسول الله عليهم من الله الرضوان، وعلى رأسهم عثمان بن عفان اغلاق باب الرحمة والتخفيف الذي فتحه الله لأمة الإسلام، مخالفين الرسول عليه الصلاة والسلام في علاجه للنزاع الذي حصل بين الصحابة بتقرير هذا التعدد للحروف.

٤ ـ إننا نربأ باصحاب رسول الله ﷺ أن يكونوا قد وافقوا أو فكروا على ضياع ستّة أحرف من القرآن الكريم، وهي لم تنسخ لا تلاوة ولا حكما، ولم يكونوا ليخالفوا الرسول في قوله وعمله.

٥ ـ لو كانت هذه الأحرف نسخت في عهد عثمان رضي الله عنه لم يبق مجال لأختلاف العلماء فيها ولكننا نجدهم اختلفوا فيها على نحو من أربعين قولا.

٦ ـ لو فرضنا جدلاً أن الأحرف الستة نسخت في عهد عثمان فلماذا لا تبقى

لمجرد التاريخ فقط في أعظم كتاب مقدس مع أن الصحابة بينوا الآيات المنسوخة تلاوة أو حكماً وكذلك الآيات المنسوخة والأحاديث الموضوعة وبينوا لكل وجهته.

٧ ـ وقصارى القول ان الصحابة رضي الله عنهم لم يرضوا بمخالفة رسول الله في قوله أو فعله ولم يكن لهم التبديل ونسخ ما لم ينسخ من كتاب الله وحاشاهم ان يقدموا على مثل هذا الفعل رضي الله عنهم وأرضاهم.

بعض الشبهات الواردة على الموضوع والرد عليها

الشبهة الأولى:

يقولون: ان المراد بالأحرف السبعة هي القراءات السبع المنقولة عن الائمة السبعة المعروفين عند القراء.

الرد عليهم:

قولكم هذا باطل من وجوه:

١ ـ إن قول الرسول ﷺ (ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف) يكون عارياً من الفائدة على قولكم حتى يولد الائمة السبعة مع أن قولكم غير صحيح، لان الرسول ﷺ قرأ بها وصحابته وتابعيه قبل ميلاد القراء.

قال المحقق ابن الجزري (فلو كان الحديث منصرفاً الى قراءات السبعة المشهورين او سبعة غيرهم من القراء الذين ولدوا بعد التابعين، لأدى ذلك إلي ان يكون الخبر عارياً عن الفائدة إلى ان يولد هؤلاء السبعة، فتؤخذ عنهم القراءة، وأدى أيضاً إلى انه لا يجوز لاحد من الصحابة ان يقرأ إلا بما يعلم ان هؤلاء السبعة من القراء إذا ولدوا وتعلموا اختاروا القراءة به وهذا باطل إذ طريق أخذ القراءة ان تؤخذ عن امام، ثقة لفظاً عن لفظ إماماً عن إمام إلى ان يتصل بالنبي ﷺ) اهـ.

٢ ـ ان الأحرف السبعة أعم من القراءات السبع عموماً مطلقاً لأن الأحرف

السبعة تشمل القراءات التي قرأ بها الرسول ﷺ وتشمل أيضاً ما وصل الى هؤلاء القراء السبعة وما نسخ قبل ان يصل اليهم وتنتظم جميع القراءات صحيحها ومنكرها وشاذها فما دام أن الاحرف اعم من القراءات فلا تكون هي نفس القراءات.

٣ ـ من المحال عقلاً أن يفرض الرسول عليه السلام قراءة القرآن على صحابته بقراءة القراء الذين لم يخلقوا بعد، وهذا الرأي باطل.

الشبهة الثانية:

يقولون: ان أحاديث نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف تثبت الاختلاف مع ان القرآن نفسه ينفي الاختلاف بقوله تعالى ﴿**أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾[١]. وذلك تناقض ولا ندري أيهما الصادق

الجواب:

ان الاختلاف الذي تثبته الأحاديث غير الذي ينفيه القرآن وعلى هذا كلاهما صادق. إذ ان الاختلاف الذي تثبته الأحاديث فيما يتعلق بطرق الأداء والنطق بألفاظ القرآن في دائرة محدودة لا تعدو سبعة أحرف، وبشرط التلقي فيها كلها عن النبي ﷺ.

فعلى هذا يكون الاختلاف في الأحاديث بمعنى: التنويع اما القرآن فينفي التناقض بين أحكامه ومعانيه وتعاليمه مع ثبوت التنويع في التلفظ والأداء[٢].

والحاصل:

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: وهذا المجموع في المصحف: هل هو جميع

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٢) نقلاً عن مناهل العرفان ص ١٧٩ بتصرف.

الأحرف السبعة التي اقيمت القراءة عليها؟ أو حرف واحد فيها؟ قال القاضي أبو بكر إنه جيعها، وصرح أبو جعفر الطبري والأكثرون من بعده بأنه حرف منها، ومال الشيخ الشاطبي إلى قول القاضي فيما جمعه أبو بكر، وإلى قول الطبري فيما جمعه عثمان رضي الله عنه.

قال الزركشي في البرهان:

قال بعض المتأخرين: القراءات السبع التي قرأها القراء السبعة كلها صحت عن رسول الله ﷺ، وهو الذي جمع عليه عثمان رضي الله عنه المصحف، وهذه القراءات السبع اختيارات أولئك القراء، فإن كلّ واحد منهم اختار فيما روى وعلم وجهةً من القراءة ما هو الأحسن عنه، ولزم طريقة منها ورواها وقرأ بها، واشتهرت عنه ونسبت اليه، فقيل حرف نافع وحرف ابن كثير، ولم يمنع واحد منهم حرف الآخر ولا أنكره بل سوّغه وحسّنه..

إلى ان قال: وقد أجمع المسلمون في هذه الأعصار على الاعتماد على ما صح عنهم، وكان الانزال على الأحرف السبعة توسعة من الله ورحمة للأمة، إذ لو كلف كل فريق منهم ترك لغته والعدول عن عادة نشئوا عليها، من الإمالة والهمز، والتليين، والمد، وغيره لشق عليهم.

القراءات المشهورة

في نهاية البحث نرى لزاماً علينا ان نتكلم على نبذة مختصرة عن القراءات وكيف نشأت؟ ومن هم القراء المشهورون؟

تعريف القراءات:

القراءات جمع قراءة: مصدر قرأ يقرأ قراءة. واصطلاحاً: مذهب من مذاهب النطق في القرآن يذهب به إمام من الأئمة القراء مذهبا يخالف غيره في النطق بالقرآن لكريم وهي ثابتة بأسانيدها إلى رسول الله ﷺ.

هل كان في عهد الصحابة قراء ؟

نعم يرجع عهد القراء الذين اقاموا الناس على طرائقهم في التلاوة الى عهد الصحابة الكرام.

فقد اشتهر بالإقراء منهم: أبي، وعلي، وزيد بن ثابت، وابن مسعود وأبو موسى الاشعري وغيرهم.

وعن هؤلاء اخذ كثير من الصحابة والتابعين في الأمصار وكلهم يسند إلى رسول الله ﷺ الى ان جاء عهد التابعين في المائة الاولى فتجرد قوم واعتنوا بضبط القراءة عناية تامة حين دعت الحاجة الى ذلك وجعلوها علماً كما فعلوا بعلوم الشريعة الأخرى.

ونعود ونقول كيف نشأت القراءات:

عرفنا آنفاً ان عهد القراء من عهد الصحابة الى عهد التابعين، وان المعول عليه في القرآن الكريم إنما هو التلقي والأخذ ثقة عن ثقة وإماماً عن إمام الى النبي ﷺ. وكانت المصاحف غير منقوطة ولا مشكولة. وأن صورة الكلمة فيها كانت محتملة لكل ما يمكن من وجوه القراءات المختلفة، واذا لم تحتملها كتبت الكلمة بأحد الوجوه في مصحف، ثم كتبت في مصحف آخر بوجه آخر وهلم جراً.

فلا غرو ان كان التعويل على الرواية والتلقي هو العمدة في باب القراءة والقرآن.

ثم ان الصحابة رضوان الله عليهم قد اختلف اخذهم عن رسول الله ﷺ فمنهم من قرأ بحرف ومنهم من أخذه عنه بحرفين، ومنهم من زاد ثم تفرقوا في البلاد وهم على هذه الحال.

وكان عثمان رضي الله عنه حين بعث المصاحف الى الآفاق ارسل مع كل مصحف من يوافق قراءته في الأكثر الغالب، وعند تفرق الصحابة في البلدان مع اختلافهم في القراءات نقل ذلك عنهم التابعون ومن تبعهم واختلف بسبب ذلك اخذ التابعين حتى

وصل الامر على هذا النحو الى الأئمة القراء المشهورين الذين تخصصوا وانقطعوا للقراءات يضبطونها ويعنون بها وينشرونها.

هذا منشأ علم القراءات واختلافها وإن كان هذا الاختلاف يرجع في الواقع إلى امور يسيرة بالنسبة لمواضع الاتفاق الكثيرة كما هو معلوم وهذا الاختلاف في حدود الاحرف السبعة التي نزل عليها القرآن الكريم كلها من عند الله.

ويحسن في هذا المقام ان ننقل ما كتبه الشيخ الزرقاني في كتابه « مناهل العرفان » وقد نقله من كتاب للنويري مخطوط بدار الكتب المصرية وضعه شرحاً للطيبة في القراءات.

قال: (والاعتماد في نقل القرآن على الحفّاظ، ولذلك ارسل (أي عثمان رضي الله عنه) كل مصحف مع من يوافق قراءته في الاكثر وليس بلازم. وقرأ كل مصر بما في مصحفهم، وتلقوا ما فيه من الصحابة الذين تلقوه عن النبي ﷺ. ثم تجرد للأخذ عن هؤلاء قوم اسهروا ليلهم في ضبطها، واتعبوا نهارهم في نقلها، حتى صاروا في ذلك أئمة للأقتداء، وأنجماً للإهتداء وأجمع اهل بلدهم على قبول قراءتهم، ولم يختلف عليهم اثنان في صحة روايتهم ودرايتهم، ولتصدّيهم للقراءة نسبت اليهم، وكان المعول فيها عليهم.

« ثم ان القراء بعد هؤلاء كثروا، وفي البلاد انتشروا وخلفهم امم بعد امم، وعرفت طبقاتهم، واختلفت صفاتهم، فكان منهم المتقن للتلاوة، المشهورة بالرواية والدراية، ومنهم المحصل لوصف واحد، ومنهم المحصل لاكثر من واحد فكثر بينهم لذلك الاختلاف وقلّ منهم الإئتلاف.

فقام عند ذلك جهابذة الائمة، وصناديد الأمة فبالغوا في الاجتهاد بقدر الحاصل، وميزوا بين الصحيح والباطل، وجمعوا الحروف والقراءات، وعزوا الاوجه والروايات، وبينوا الصحيح والشاذ، والكثير والفاذ بأصول اصّلوها وأركان فصّلوها [1].. الخ ».

---

(١) انظر مناهل العرفان ج ١ ص ٤٠٧.

عدد القراءات وانواعها

ذكر صاحب كتاب (الإتقان) ان القراءات، متواترة، ومشهورة، وآحاد، وشاذ، وموضوع، ومدرج.

قال القاضي جلال الدين البلقيني: القراءة تنقسم الى متواتر وآحاد وشاذ: فالمتواتر القراءات السبع المشهورة.

والآحاد قراءة الثلاثة التي هي تمام العشر ويلحق بها قراءة الصحابة.

والشاذ قراءة التابعين كالأعمش ويحي بن وثاب، وابن جبير ونحوهم.

قال السيوطي هذا الكلام فيه نظر وأحسن من تكلم في هذا النوع إمام القراء في زمانه الشيخ ابو الخير بن الجزري قال في اول كتابه «النشر» كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت احد المصاحف العثمانية ولو احتمالا وصح سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل انكارها بل هي من الاحرف السبعة التي نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة ام عن غيرهم من الائمة المقبولين ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة اطلق عليها شاذه او باطله سواء كانت عن السبعة ام عمن هو اكبر منهم، هذا هو الصحيح عند ائمة التحقيق من السلف والخلف[1].

قال صاحب الطيبة في ضابط قبول القراءات:

وكلّ ما وافق وجه النحو
وكان للرسم احتمالاً يحوي
وصح اسناداً، هو القرآن
فهذه الثلاثة الاركانُ
وحيثما يختل ركن أثبتِ
شذوذه لو أنه في السبعةِ

(١) أنظر مناهل العرفان، ج ١ ص ٤٠٩.

والقراءات: قيل: القراءات السبع. القرا ات العشر، والقراءات الأربع عشرة، وأحظى الجميع بالشهرة، ونباهة الشأن، القراءات السبع.

وتنسب هذه القراءات الى الائمة السبعة المعروفين وهم: نافع، وعاصم، وحمزة، وعبد الله بن عامر، وعبد الله بن كثير، وأبو عمرو بن العلاء، وعلي الكسائي.

والقراءات العشر هذه السبعة وزيادة قراءة: لأبي جعفر، ويعقوب، وخلف.

والقراءات الأربع عشرة، بزيادة أربع على قراءات هؤلاء العشرة وهي: قراءة الحسن البصري، وابن محيص، ويحيى اليزيدي، والشنبوذي.

أول من صنّف في القراءات:

علم القراءات أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً.

واول من صنف في القراءات امثال ابي عبيد القاسم بن سلاّم، وأبي حاتم السجستاني، وأبي جعفر الطبري، واسماعيل القاضي.

متى اشتهرت قراءة السبعة؟

اشتهرت قراءة السبعة على رأس المائتين في الأمصار الإسلامية.

فكان الناس في البصرة على قراءة (أبي عمرو) و(يعقوب)، وبالكوفة على قراءة (حمزة) و(عاصم).

وبالشام على قراءة (ابن عامر).

وبمكة على قراءة (ابن كثير).

وبالمدينة على قراءة (نافع).

متى دونت القراءات؟

دونت في نهاية القرن الثالث ببغداد على يد الإمام ابن مجاهد أحمد بن موسى بن عباس فجمع قراءات هؤلاء السبعة غير أنه اثبت اسم الكسائي وحذف يعقوب.

طريقته:

كان آخذاً على نفسه ألا يروي إلا عمن اشتهر بالضبط، والأمانة، وطول العمر في ملازمة القراءة، واتفاق الآراء على الأخذ عنه والتلقي منه.

واقتصار ابن مجاهد على هؤلاء السبعة، ليس بحاصر للقراء فيهم، ولا بملزم أحداً أنْ يقف عند حدود قراءتهم.

القرّاء السبعة المشهورون

القراءات المتواترة نقلت لنا عن القرّاء الحفظة، المشهورين بالحفظ والضبط والإتقان. وهم أئمة القراءات المشهورة، الذين نقلوا لنا قراءة الصحابة عن رسول الله ﷺ وكان لهم فضل العلم والتعليم، لكتاب الله العظيم كما قال صلوات الله وسلامه عليه (خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه) وقد جمع الشيخ ابو اليسر عابدين هؤلاء القراء في بيتين من الشعْر فقال:

«فنافع، وابن كثير، وعاصم
وحمزة، ثمّ أبو عَمْرو همو»
«مع ابن عامر أتى الكسائي
ائمة السبع بلا امتراء»

القُرّاء السبعة:

١ ـ ابن عامر: اسمه عبد الله اليحصبي قاضي دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك، ويكنى أبا عمران، وهو تابعي، وقد أخذ القراءة عن المغيرة بن أبي شهاب المخزومي، عن عثمان بن عفان، عن رسول الله ﷺ توفي بدمشق سنة ثماني عشر ومائة، وقد اشتهر برواية قراءته هشام وابن ذكوان.

قال فيهم صاحب الشاطبية:

«وأما دمشق الشام دار بن عامر
فتلك بعبد الله طابت محللا

هشـــام وعبـــد الله وهـــو انتســـابـــه

لذكـــوان بالاســـناد عنـــه تنقـــلا

٢ ـ ابن كثير: هو ابو محمد، عبد الله بن كثير الداري المكي كان إمام الناس في القراءة بمكة، وهو تابعي لقي من الصحابة عبد الله بن الزبير، وأبا أيوب الأنصاري وأنس بن مالك وتوفي بمكة سنة مائة وعشرين.

وراوياه: البزي (ت ٢٥٠) وقنبل (ت ٢٩١ هـ).

قال فيهم صاحب الشاطبية:

ومكـــة عبـــد الله فيهـــا مقـــامـــه

هـــو ابـــن كثيـــر كـــاثـــر القـــوم مُعْتـــلا

روى أحـــمـــد البـــزي لـــه ومحـــمـــد

علـــى سنـــد وهـــو الملقـــب قنبـــلا

٣ ـ عاصم الكوفي: هو عاصم بنْ أبي النجود الأسدي، ويقال له: ابن بهدلة، ويكنى أبا بكر، وهو تابعي.

توفي بالكوفة سنة ١٢٧ او ١٢٨ هـ وراوياه شعبة (ت ١٩٣ هـ) وحفص (ت ١٨٠ هـ).

يقول فيهم صاحب الشاطبية:

وبـــالكـــوفـــة الغـــراء منهـــم ثلاثـــة

أذاعـــوا فقـــد ضاعـــت شـــذى وقـــرنفـــلا

فـــأمـــا أبـــو بكـــر وعـــاصم اسمـــه

فشعبـــة راويـــه المبـــرز أفضـــلا

وذاك بـــن عيـــاش أبـــو بكـــر الرضـــا

وحفـــص وبالاتقـــان كـــان مفضـــلا

٤ ـ ابو عمرو: هو ابو عمرو زَبّان بن العلا بن عمار البصري شيخ الرواة وقيل اسمه يحيى، وقيل اسمه كنيته، توفي بالكوفة سنة أربع وخمسين ومائة. وراوياه:

الدوري (ت ٢٤٦ هـ) والسوسي (ت ٢٦١ هـ).

قال صاحب الشاطبية:

وأما الإمام المازني صريحهم
أبو عمرو البصري فوالده العلا

أفاض على يحيى اليزيدي سيبه
فأصبح بالعذب الفرات معللا

أبو عمرو الدوري صالحهم أبو
شعيب هو السوسي عنه تقبلا

٥ ـ حمزة الكوفي: هو حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات الفرضي التيمي مولى عكرمة بن ربيع التيمي ويكنى أبا عمارة توفي بحلوان في خلافة أبي جعفر المنصور سنة ١٥٦ هـ وراوياه: خلف (ت ٢٢٩) وخلاد (ت ٢٢٠ هـ) بواسطة سليم.

قال صاحب الشاطبية:

وحمزة ما أزكاه من متورّع
إماماً صبوراً للقرآن مرتلا

روى خلفٌ عنه وخلاد الذي
رواه سليم متقناً ومحصلا

٦ ـ نافع: هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي أصله من اصفهان، وانتهت اليه رئاسة الاقراء بالمدينة المنورة وتوفي بها سنة ١٦٩، وراوياه: قالون (ت ٢٢٠) وورش[1] (ت ١٩٧).

يقول صاحب الشاطبية:

فأما الكريم السر في الطيب نافع
فذاك الذي اختار المدينة منزلا

---

(١) قالون: معناه الجيد في أصل وضعها. وورش: لشدة بياضه.

وقــالــون عيـــــى ، تــم عثمــان ورشهــم

بصحبـــــة المجـــــد الرفيـــــع تأنـــــلا

٧ ـ الكسائي: هو علْي بن حمزة إمام النحاة الكوفيين، ويكنى ابا الحسن وقيل له الكسائي لأنه كان في الإحرام لابسا كساء، توفي (برنبوية) قرية من قرى الري حين توجه الى خراسان مع الرشيد سنة ١٨٩، وراوياه أبو الحارث (ت ٢٤٢) والدوري (ت ٢٤٦).

يقول صاحب الشاطبية:

وأمـــا علي فـــالكســـائـــي نعتـــه

لمـــا كـــان فـي الإحـــرام فيـــه تســـربـــلا

روى ليثهـــم عنـــه أبـــو الحارث الرضـــا

وحفـــص هـــو الدوري وفـي الذكـــر قـد خـــلا

besturdubooks.wordpress.com

الفهرس

الفوز العظیم

اردو شرح

الفوز الکبیر

مؤلفہ: حضرت شاہ ولی اللہ محدث دہلویؒ

شارح: مولانا خورشید انور قاسمی فیض آبادی

پچاس سے زائد اہم کتابوں کے منتخب علوم اور محقق
اساتذہ کرام کے فیوض وافادات سے مزین
"الفوز الکبیر" کی نہایت جامع اردو شرح

ناشر
قدیمی کتب خانہ۔ مقابل آرام باغ۔ کراچی